هموم مصرية

تأليف
المستشار/ محمد مرشدى بركات

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

تصميم الغلاف: شريف رضا

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

.الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg
www. gate.dar-elmaaref.com

إهـــداء

إلى روح والدىَّ وشقيقىَّ الأستاذ محمود والدكتورة رقية تغمدهم الله بواسع رحمته..

وإلى كل من: اللواء إقدام على عبد الواحد وافى، والدكتور عادل وهبة اللذين لا يرد فضلهما علينا إلا الله سبحانه وتعالى؛ فقد أحاطونا بكريم الرعاية وفائق العناية.

المستشار

محمد مرشدى بركات

مقدمة الكتاب

هموم مصرية، أو هموم وطنية – سيان، فهما فى معنى واحد يلتقيان.

والكاتب يجب أن يشمر عن ساعديه ليكشف هموم وطنه ويسلط ضوء قلمه عليها، وهذا يعنى حضور الوطن فى ذهن الكاتب وذاكرته، فالوطن يمثل له ولغيره نبع الخير والعطاء. إذا استقر فى سويداء قلبه بالحب، والانتماء. وإذا ألمت لائمة بالوطن بالكدر والأوضار فيظل بالنسبة له الشمس والقمر والضياء. والأمل والرجاء، إذا ناداه الوطن لبى النداء يهرع إليه باحثًا له عن دواء يعالج به أوصابه، بقلمه حتى يجد له الدواء.

فالوطن هو القمة العلياء، وهو الكبرياء يظل شاخصًا ببصره وبصيرته له فوق القمة الشماء.

والإبداع هو غمس اليراع، فى هموم الوطن، ورسالة الكاتب – بقلمه – هى كمبضع الجراح الماهر يستأصل بها شأفة الهم الوطنى قبل أن يستفحل الداء، ويعز الدواء.

والكاتب لم يخلق لكى يمسك فى يده، بقلمه يهش به على وجوه القارئين، ولكن ليرفع به الظلم عن المعذبين ويكفكف به دموع المظلومين، بحدة نظره، ونفاذ بصيرته.

وهاهوذا «شكسبير Shakespeare»، وقد استن قلمه العبقرى ليعبر عن روح الشعب الإنجليزى بل شعوب العالم قاطبة، وجاء من بعده «تشارلز ديكنز Charles Dickens»، «وجراهام جرين Graham Greene»، وكذلك «مارك تويـن Mark Twain» ليعبروا عن الروح الأمريكية،

و«إميل زولا Emile Zola» و «هوجو Hugo» عن الروح الفرنسية، و «تشيكوف Chekhov»، و«جوركى Gorky»، و«تولوستوى Tolstoy» عن الروح الروسية.

أما فى مصر فكان «العقاد» و«طه حسين» و«نجيب محفوظ»، و«توفيق الحكيم» ولطفى السيد وسلامة موسى، وغيرهم من العمالقة الذين جعلوا أقلامهم رماحًا وسيوفًا شرعوها فى وجه ما انتاب وطنهم من ملمات، وحل عليها من نائبات.. فنجد فى كتاباتهم وإبداعاتهم – جميعًا – التعبير العميق عن روح شعبهم، ومعبرين بها عن هموم وطنهم.

وكم من نقيضة اعتورت الوطن لم تبرح مكمنها إلا بفكر الكاتب الأديب اللبيب يسبر غور مشكلات وطنه وما اعتوره من علل. وصدق الشاعر حين قال:

ليست بلادى بيرقًا وخريطةً لكن بلادى حيث أستطيع أن أكتبُ

وأصاب من قال عن بلاده:

لو تطلب البحر فى عينيك أسكبه أو تطلب الشمس فى كفيك أرميها

ومن هنا يعكف الكاتب دائمًا على البحث عن مشكلات وطنه وهمومه.

والبحث كما ورد فى «المعجم الوسيط» هو:

بذل الجهد فى موضوع ما، وجمع المسائل التى تتصل به.

بيد أننا نرى له تعريفًا موجزًا آخر فنراه أنه:

جمع الشتات وتأصيل الرأى.

لا جَرَمَ – إذن – إن أمعنت نظرى، وأنعمت فكرى فيما ألم بمصر من

(هموم) اعتورتها، وأرقتها، وكادت أن تشوه حضارتها وتنال من مجدها الغابر التليد التى زين التاريخ بها نفسه فى أنصع صفحاته.

وكَمْ هو عدد المؤرخين الذين استهوتهم مصر منذ عهدها العهيد بدءًا من أبى التاريخ «هيرودت» وانتهاء «بأبى عمر الكندى»، و«الحسن ابن زولاق»، ورجل الحرب والقلم «عز الملك المسبحى»، و«القلقشندى» و«الحافظ العسقلانى»، و«شمس الدين السخاوى»، و«ابن إياس»، و«المقريزى»، و«ابن تغرى بردى»، وغيرهم ممن ذخرت بتواليفهم المكتبات الشرقية والغربية.

ناهيك عن الدراسات المسهبة التى نهض عليها علماء الحملة الفرنسية، فسجلت يراعاتهم، وتبارت أقلامهم فى الكتابة عنها، والإشادة بها فى مجلدات تربو على العشرين مجلدًا.

أليست هى مصر التى كانت مسرى الأنبياء بدءًا من «إدريس»، وأبو الأنبياء «إبراهيم»، و«يوسف الصديق»، وكليم الله «موسى»، وروح الله «المسيح عيسى بن مريم» عليهم جميعًا السلام؟

أحب مصر أهلوها وبنوها، وهام بها زائروها، وتملك سحرها قلوب المقيمين فيها والوافدين عليها، وكل من مكث على أرضها، أو ترعرع بين أرجائها، أو شرب من ماء نيلها، أو تغذى من خيراتها، أو اختلط بشعبها. فالجميع لا يود مفارقتها، أو الترحال عن أرضها، فمصر درة الأوطان. إذا تسلل الكرى إلى من هواها: والكل يهواها. فهو نائم يقظان!. متمثلًا بقول «قيس بن ذريح»:

وإنى لأهوى النوم من غير نَفْسةٍ لعل لقاء فى المنام يكون!

عاش المصريون على ثراها، أعزاء ما لمست جباههم تُربها إلا مُصلينا.

وما مستهم المحن أو أحاطت بهم الإحن – وما أكثرها فى تاريخ مصر – إلا كانوا ذاكرينا. فمن شاء فى ظل السعادة ضِجعةً، فهنا فى مصر تُشاد صروحها وتقام، وإن رام نسيان (الهموم) فها هنا تنسى الهموم وتذهب الآلام. فالنيل والبحر الخضم يحوطه، والباسقات على الطريق قيام.

يقول «جوستاف فلوبير Gustave Flaubert» عن القاهرة عاصمتها:

«حقًا إن الشرق يبدأ من القاهرة».

ويعبر «على الجارم» مخاطبًا إياها:

«سحرت عيون الخافقين كأنما بأرضك سحرا للفراعين مودع»

وكما يقول:

لكل جسم شرايين يعيش بها ومصر للشرق والإسلام شريان
مالى فتنت بلحظك الفتاك وسلوت كل مليحة إلاك؟

يُحكى عن الخديوى «سعيد» الذى تولى حكم مصر بعد موت أخيه «عباس باشا» فى ١٦ يوليو ١٨٥٤م، والذى استقبله شعب مصر بالترحاب بعد أن لاقى الويلات إبان فترة حكم «عباس» حتى إن أحد المصريين قد صور احتفاء المصريين به قد قال:

«إن الزيت الذى أوقدناه احتفالاً بجلوس سعيد على العرش ندفع ثمنه (دموعًا) منذ أربع سنوات»!

وقد تمكنت مصر من عقل «سعيد» ومن سويداء قلبه فقال – وهو التركى الصميم:

«أتمنى أن أعرف أى عرق فى جسدى يضخ الدماء التركية فيه حتى أقطعه وأجعله ينزف دمًا وأتخلص منه للأبد»!

ومن وحى نشأتى، فى قريتى «منية المرشد» التى استولى هيامى بها على مجامع فكرى، وما علمه لى والدى - رحمه الله، وجعل الجنة مثواه - من أن حب الوطن من الإيمان، شببت عن الطوق على حب مصر، فلم أجرؤ على مغادرتها أو الترحال عنها يوم أن رشحت للسفر إلى (السودان) الشقيق، إثر انتخابى أمينًا للجنة الثقافية بكلية الحقوق جامعة القاهرة ، والذى كان يشرف عليها أستاذنا المرحوم الدكتور «عبد المنعم فرج الصده».. وعزفت عما أزمعت، مع دهشة الجميع عن رغبتى فى عدم الرحيل من مصر إليها، و لمدة من الزمن موقوتة تنتهى بانتهاء ميقاتها.

وجاء اليوم الذى قر العزم منى على السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن لُبيت طِلبتى إلى الهجرة إليها.. فهجرت هذه الفكرة حتى إنها لم يكن لها عندى.. من بعدها قيام.

وعندما شددت الترحال إلى دولة قطر الشقيقة للانتظام فى منظومتها القضائية لم ألبث غير بعيد، وطلبت العودة إلى مصر مع أنها كانت بالنسبة لى وطنًا ثانيًا كنت أراها «لؤلؤة الخليج»، وما أحاطنى به قاضيها الجليل «عبد الله مبارك» من رعاية وعناية، ومع ما تكبده من مال، فى سبيل الاحتفاء بى. فلقد جاش بخاطرى ما عبر به أستاذنا «العقاد» عن المال قائلًا:

لا تحسدن غنيًا فى تنعمه قد يكثر المال مقرونًا به الكدر

وعندما ارتسمت الدهشة على وجه زميلى المفضال من رغبتى فى الأوبة إلى مصر قال لى:

(... إنك ليس لديك جلد...).

فأجبته:

(بـل الجلد هو الذى دفعنى إلى الرغبة فـى العودة إلى مصر لأنى لم أجلد على البعد عنها!).

كنت أُنظر فى قطر، فى كل شارع وميدان، وأهفو إلى مصر بالتَحنان.

والذى لا مُشـاحة فيه أن الانتماء للوطن هو الوطنية ذاتها، واليوم وأنا أرنو إلى مصر، فأراها وقد أحاطت بها الهموم من كل جانب، إحاطة السوار بالمعصم، فقد هبطت عليها الأوصاب والأوضار، ومنها على سـبيل المثال، ما ذكرنـاه فى الصفحات المقبلة من هذا الكتاب عن.. (المشـكلة الثقافية) التى تعانى منها مصر. وكادت أن تكون وصمة على عقول الشـباب لتدنى مسـتواهم فى اللغـة العربية، لغة البلاد القومية بعـد أن زاحمتها اللهجة العامية فضلًا عن اللغات الأجنبية التى نافسـت اللغة الأم وزحزحتها عن طريق تقدمها، وذكرتنا بآبدة العلامة «**ابن خلدون**» فى قولته:

«إن غلبة اللغـة بغلبة أهلها، وإن منزلتها بـين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم».

فاللغـة تعمل أبدًا على الحفاظ على (الهوية) التى هى ذات دلالات لغوية وفلسفية واجتماعية وثقافية.

ولفظ (الهوية) كما ورد فى كتاب «جوب جوزيف» والموسوم بذات لفظهـا ، وترجمه إلى اللغة العربيـة الدكتور المغربى «عبد النور خرافى» مشتق من أصل لاتينى sameness، يعنى «الشىء نفسه».

كمـا يتضمـن مفهوم (الهوية) الإحسـاس بالانتماء القـوى، وكذلك الدين. فبناء الهوية هو فى واقع الأمر بناء (للماهية).

أمـا بعد، ومن خـلال انتمائى لمصـر، وكذلك هم جـل المصريين،

سطرت سطور هذا الكتاب فأنت إذا أصلحت يومك، صلح غدك.

فعسى أن يرحل عن مصر (شتاء السخط) كما عبر الروائى الأمريكى الأشهر (جون شتاينبيك John Steinbeck). بإصلاح شأنها والنهوض على هَبتَّها من رقدتها.

جاء فى ذخائر العرب:

(كانت يدى، كانت بها قوتى. فاختلس الدهر يدى من، يدى)!.

لا تيأسوا أن تصلحوا من أمر مصر. وأن تمسحوا عن جبينها ما ران عليها من هموم.

قيل لـ «نابليون بونابارت» يومًا: إن جبال الألب الشاهقة تمنعكم من التقدم.

فقال: يجب أن تزول من الأرض.

وكان نابليون يرد بثلاث على ثلاث.

من قال: لا أقدر. قال له حاول.

من قال: لا أعرف. قال له تعلم.

ومن قال: مستحيل. قال له جرب.

وقيمة الوطن أغلى فى النهى ثمنًا من أن تباع بدينار وقنطار.

فهل نترك مصر هكذا تعصف بها الهموم؟

وهل نتركها تباع وتشترى؟

ولرب مغلوب هوى، ثم ارتقى!.

ولرب ضائقة يضيق بها الفتى ذرعًا وعند الله منها المخرج.

والله الموفق.. والله المستعان.

المستشار

محمد مرشدى بركات

مشكلة الشباب

فى قاموس اللغة أن التعب هو نقيض الراحة.
يقول أبو تمام:

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها تُنَـالُ إلا علـى جسـر من التعب

أضحت مشـكلة الشباب فى بلادنا بؤرة المشكلات التى تؤرق مصر، وخلد الشـباب إلى الراحة بعد أن اسـتبد بهم اليـأس من عثورهم على ما يُؤجج فيهم من آمال، ويوصلهم إلى ما يصبون إليه من منال.

فمشـكلة الشـباب فـى بلادنا من كبريـات المسـائل التى أضحت حديث الناس من جميع الأجناس، وفازت باهتمام مفكرينا وأدبائنا فى الاجتماعات والندوات، فراح كل منهم يقدم ماعنده من آراء ومقترحات ويطرحها على بساط البحث؛ لعل فيها ما ينفع أو يفيد.

فالأب يقول إن الأم هى السـبب، وعليهـا وحدها يرجع ما أصيب به الشـباب من تخنث وميوعة. وترد الأم بـأن الأب هو العمود الفقرى للأسـرة؛ فإذا كان قويًا فالذى لا مرية فيه – أن أبناءه سينشـأون أشداء أقوياء، لا علة فيهم..

وعالم النفس يقول إنه الضغط يولد الكبت، ويولد معه التهور والطيش والانزلاق. ومسـتوى المعيشة وما اكتنفها من تغير، وما صاحبها من تبدل أدى إلى عدم استقرار، وولد فى نفوس الشباب القلق وخلق لهم الأرق.

ولسان أحدهم يردد: أن أرضهم وبلادهم لن يتملك من خيرها البسطاء فقد أمست لهم كجثة الأشقياء.

ورجل الاجتماع يسند الأمر إلى عدم الإحساس بالمسئولية والإسراف في المطالبة، فالشاب يطلب الكثير ولا يعطى إلا القليل؛ فيقف منفصلاً عن المجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه.

أما رجل السياسة فيعزو المشكلة إلى المرحلة الانتقالية التى تمر بها البلاد، ويمر بها العالم كله، وكل انتقال مصحوب باضطراب. فالمجتمع يمر بعمليتين في آن واحد، عملية هدم للقديم، وعملية بناء الجديد، وبين هذا وذاك يقف فريق يتناول المشكلة تناول الوعاظ ورجال الدين، فالشباب عندهم سيئة من السيئات، ونكبة من النكبات، لا سبيل لعلاجها إلا بالزجر الصادم والعقاب الصارم.

ولكى نكون واقعيين؛ ينبغى لنا أن نسأل: «ما هو عدد الشباب الذى نعده منحرفًا منسوبًا إلى عدد الشباب فى الوطن كله؟».

ويجىء الجواب: شرذمة ضئيلة فى كل أقليم من الأقاليم وماعدا ذلك فشباب يعد من حيث مقياس الشباب فى العالم مفخرة لوطنه وبلاده منه العامل الكادح، والفلاح المكافح، والطالب النابه، ومنهم من يطوف شمالاً أو جنوبًا، شرقًا أو غربًا. منقبًا عن العلم. باحثًا عن الحقيقة. ساعيًا وراء الرزق. ومنهم من يعول أسرته أو يتعهد إخوته وهو لايزال -بعد - طرى العود غض الإهاب.

ولكنهم - مع ذلك - مع استبداد اليأس بهم يرون أن إقامتهم فى وطنهم أرض النخيل والأشجار والطيور والأزهار، الأرض الطيبة التى كرمها الله فى كتبه التى نزلها، فى التوراة والإنجيل، وأنزلها الله فى كتابه الكريم، يرون مقامهم فيها كما كان يقول المتنبى:

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود؟!

وكما قال الشاعر محمد البحيرى على لسان شاب يخاطب مصر بحسبان أنها أمه:

تاه فى قلبك قلب الأم
وغاب عنى بر الأبناء
وكأنا فى وسط اليم
نبحث أين الميناء؟
وكل منا يقول:
بل غيرى هو المسئول
لم لا تنسى يا أمى؟
ذنوب الماضى وما كان
تتجنبين ذكر اسمى
وكأنى حقا شيطان
نبت الشوك بقلبى
لكن جفاءك هو البستان

أما تلك الشرذمة المريضة من الشباب، فإذا كان صحيحًا أن مثلها قد تكرر وجوده فى العصور الماضية ووردت الإشارة إليه فى «تواريخ العرب، وتواريخ اليونان والرومان والفرس والهنود والصينيين»، وتكرر وجوده أيضًا ولو بصورة أكبر وأعم فى حاضر أوربا وأمريكا. إذا كان هذا صحيحًا. فهذا لا يجعلنا نغض الطرف عن هؤلاء هاتفين: شبابنا بخير فلنرفع الأيدى عنهم فهم من أعظم شباب العالم! فهنا يكمن الخطر ومن هنا تكون الطامة الكبرى.

ومن الخطأ والخطل معًا أن نقول ذلك. أما السخف الذى لا سند له من الواقع فهو أن يشتط البعض فيقول إن الشباب مظلوم، وإنه ضحية

المجتمع، فالعيب ليس عيبه، والمسئولية ليست مسئوليته. فالمجتمع هو الجانى، وهو الأحق بالملامة والعقاب؟!.

ولنترك أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد يتساءل معنا، ويرد على هذا السخف المثبت فى بعض الأذهان. ويقول فى جريدة أخبار اليوم عام ١٩٥٩م من مقال له عن الشباب:

«ما هو هذا المجتمع؟.. وما هى هذه الجناية؟».

«إن أولئك الدجاجلة ليتحدثون عنه كما كان شعراء الأمس يتحدثون عن الدهر المسئول عن كل شىء، وليس فى حديثهم طائل على جميع الفروض والاحتمالات، لأنه لن يسقط المسئولية الفردية عن أحد ليس بالطفل وليس بالمعتوه».

ويستطرد قائلًا:

«أنت مسئول وتزداد المسئولية عليك كلما ازدادت أسباب الحذر والانتباه، ويجب علينا جميعًا أن نذكر ذلك ولا ننساه. ومن نسيه فهو المسئول مهما يكن من شأن المجتمع الذى يعيش فيه..».

نعم من الحمق أن نتهم المجتمع ونتحدث عنه كما يتحدث أولئك الدجاجلة!.، ونعم من الجهالة أن ننظر إلى أمر هؤلاء من زاوية واحدة دون أخرى. ولكن من الحمق والجهالة معًا أن نترك تلك الفئة الضالة المريضة تجمح على هواها، وتعيث فى الأرض فسادًا. فتنغل فى جسد بقية الشباب كما ينغل الدود فى الأرض الصالحة فيفسدها، بل علينا أن نمعن تفكيرنا ونتعقب المشكلة من أساسها، ولن يطول بنا الوقت لنتعرف على بدايتها وعلى منتهاها ونكتشفه فى «المنزل» الذى هو عندنا المسئول عن نكسة بعض الشباب وانحلالهم. فإننا إلى الآن لم نحصل على ما يمكن أن يكون مرادفًا فى معناه لكلمة الـ (Home) وهو البيت

النموذجـــى الذى يقوم على الدين ومكارم الأخلاق. وبتعبيره الإنجليزى الدقيق إلا فى حالات قل أن يوجد منها الكثير.

فالأسرة النموذجية ليست تلك التى يجمعها جدران بيت واحد وبين هذه الجدران تراق حرمة الأسرة كما تراق الدماء!

وهى ليســت تلك التى تتكون من الأب والأم والأبناء الذين يجمعهم طعــام واحد وشــراب واحــد، ويفرقهم اختــلاف جوهرى فــى الآراء والأهداف. وتقــارب العقول، فلا النظرة تكفيــه. ولا الاجتماع الواحد يرضيه. ولا ينجلى له خطر هذا الانفصام والانفصال إلا بعد فوات الأوان.

وهى ليست تلك التى تتفق فى الأفراح، وتنفصل فى الأتراح.

وهى ليست تلك التى لا يحدب كبيرها فيها على صغيرها. ولا يوقر صغيرها كبيرها. ولا تراعى فى قواعدها مبادئ الخلق القويم المســتقيم، وقوانــين الآداب فالخارجــين عن هذه الآداب يعيشــون فى فرح فارح، فغابت عنهم المســئولية. وانزرعت فيهم الأنانية.. فهم يموتون ســرورًا وتموت أســرهم بهم غمًــا.. وعلى حد القول القائــل إن من فرح النفس ما يقتل.

فالأســرة النموذجية هى التــى تمثل «الروح الدافــع الغلاب» الذى يســيطر على كل فرد من أفرادها. كما عبر أســتاذ من ثقات التربية هو «مايك إيفر».

فهل الأسرة عندنا كذلك؟

لا! ونقولهــا عن ثقة واطمئنان لما نقول. فالأســرة فى مجتمعنا غالبًا ما تكون أســرة فى الكلمة ولكنها ليســت كذلك فــى المعنى أو المغزى. فلا رابط روحى يربطها. ولا هدف أساســى يحركها، ولا أمل مشــترك

يدفعهـا إلى المضى قدمًا فى طريق الحيـاة. فإلى جانب التقاليد العتيقة، والآراء المقيتة التى توارثتها الأسـرة جيلًا بعد جيل تعيش موجة التحرر بطوفانها وسـيلها العرم فتتأرجح الأسرة بين القديم والجديد، فهى هنا أشبه ببركان ثائر إذا ثار فلكي يهدأ وإذا هدأ فلكى يثور من جديد!

وبـين خضم من الآراء والنِّحَل، تولد حياة قلقة تعتور هذا الشـباب الحائر الذى لا يجد من يقدم له زاد النصح والإرشاد، فيعانى كل منهم تناقضـا خطيرًا بـين المجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه وبين أنفسـهم وذواتهـم وما تعانيه، ويصـاب معظمهم (بالبارانويـا Paranoia) وهو مصطلح اسـتخدمه أبقراط لوصف المرض العقلى، واستخدمه فوجل سنة ١٧٩٤م للدلالـة علـى اضطرابات العمليات الذهنيـة. وقد عرف «إميل كريبلين» البارانويا بأنها ذهان يتميز بوجود هذيان و مشـاعر الاضطهاد التى تصيب من ينشأ بعيدًا عن تقاليد الأسر الكريمة.

ناهيك عن (الشيزوفرينيا Schizophrenia) التى تعتمل فى عقولهم فتصبح بمثابة ضربة لازب لا شفاء منها.

الأسـرة – إذن – هى حجر الزاوية فى مشكلة الشباب.. الأسرة التى تعنى بالجسد أكثر مما تعنى بالروح، وتهتم بالعلم دون اهتمامها بالثقافة، وتأخذ بالشكل أكثر مما تعتنق الجوهر. وعلم النفس له حقيقة هامة تقول:

«إن كل ما يتصف به المرء مكتسب أغلبه، وليس موروثًا».

فلو طبقنا هذه الحقيقة العلمية على الأسرة فى بلادنا أو الأسرة عامة لخرجنا بحقيقة أخرى جد مهمة وهى أن الأبناء يكتسبون جل صفاتهم من بيئتهم التى يعيشـون فيها؛ وبالتالى فلو وجه الشـباب المريض من الأصل بواسـطة أبويه الوجهة السـليمة، وتعلم معنى المسـئولية لعرف طريق الصواب، وما كان له أن يضل أو يغوى.

ولم يكن الروائى الفرنسى «أندريه موروا André Maurois» مخطئًا حين خط بقلمه العبارة التالية فى كتابه «فن الحياة Art de vivre»: «إن الشىء الحقيقى الذى تخلقه المرأة هو طفلها!».

وصدق حجة الإسلام الغزالى حين وصف الطفل بأنه:

«جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة.. وهو قابل لكل ما ينقش عليه».

فلا بد لنا أن نسأل: ما هو العلاج؟!

ونجيب: العلاج يكمن فى الأصل ذاته قبل أن يكون كائنًا فى الفرع.. العلاج فى معالجة الآباء والأمهات وإعدادهم إعدادًا تربويًا علميًا يمكنهم من أداء رسالتهم المقدسة بوعى وحسن إدراك لفنون التربية السليمة التى يسعد بها الفرد والمجتمع، والتى تزود النشء والشباب بما يمهدهم للنجاح فى الأمور الدنيوية والآخروية وتحقق قول الله عزوجل: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾. [سورة القصص – الآية: ٧٧]

العلاج فى معالجة الآباء والأمهات الذين يزرعون فى أبنائهم روح التواكل. ويثبتون فى عقولهم دروسًا فجة لاتعمل عملها أكثر من تكوين شباب لا يفقه ولا يأبه إلا لذاته فقط.

العلاج فى معالجة الآباء والأمهات الذين لا يؤمنون بالتطور، فلا يصارحون أبناءهم، ولا يجاذبونهم أطراف الحديث إلا فيما يمس هامش الحياة، أما الحياة نفسها فلا شأن لهم بها ولا بسبر غورها أو الوقوف على خباياها وأسرارها، ومن هنا يقف الشباب حائرًا مشدوهًا وكأن قيدًا قد أطبق عليه فلا يدرى من أمره شيئا. مثله مثل ذلك الذى

راح يناوئ العواصف، ويصارع الأمواج، وهو لا يعلم من أمر السباحة شيئاً. فما هى إلا دقائق معدودات ويكون اليم قد ابتلعه، وجذبه إلى غور مظلم سحيق فلا قدرة له على مغالبة عباب الماء.

العلاج فى معالجة الآباء والأمهات الذين يغرسون فى قلوب أبنائهم الخوف، ويذهبون من نفوسهم الحق، ويسلبون منهم الإرادة والقدرة على مجابهة الصعاب.

وها هو ذا شاب رفع راية الظلم فى وجه أمه يشكو ما ألم به جراء انفصالها عنه، يقول على لسان الشاعر:

كفى الملام وعللينى فالشك أودى باليقين
وتناهبت كبدى الشجون فمن مجيرى من شجونى؟
وأمضنى الداء العياء فمن يغيثى؟ ومن يعينى؟

العلاج فى معالجة الآباء والأمهات الذى لا يحفظون وشائج الأرحام. فلا يعرفون كرامة الأسرة ولا يعترفون بقدسيتها.. فيتشرب الشباب منذ نعومة الظفر بسموم الفرقة وآفة الاستهتار!.

العلاج فى معالجة الآباء والأمهات الذين يكفرون بالمبادئ، ويتنكرون للمثل، ويتنصلون من المسئولية ويتركون أولادهم عرضة للطيش والانحراف عن جادة الصواب. وهنا تصدق الكلمة التى جاءت على لسان الفيلسوف «برجسون».

«ما الفرد إلا جزء من والديه..».

ورب سائل يقول: «والمجتمع.. أليس له هو الآخر من نصيب؟!.

ونرد: «ولكنه نصيب متبوع، ليس إلى الحد الذى يتصوره البعض ويحيطه بهالة من التهويل والتهليل..، وليس إلى الحد الذى ننحى فيه باللائمة عليه فى كل ما يمس الشباب أو يصدر عنه. فالأسرة كما ألمعنا هى

حجر الزاوية وقطب الرحى. ولا يجب أن ننسى أن المجتمع كما يصيب يصاب، وكما يكون الأفراد من ضحاياه، فهو أيضًا يكون ضحية الأفراد.

نصيب المجتمع فى هذا كنصيب الجندى المعين للحراسة يظل طوال الليل يقظًا ساهرًا يجافى النوم عينيه ويتقلب على جنبيه يمنع عن النائمين الشر ويدفع عنهم الأذى حتى إذا استيقظوا وتنبهوا مضى هو لشأنه مرتاح الضمير بعد أن تفتحت الجفون، وذهبت الغفلة عن العيون.

وهكذا المجتمع من واجبه أن يظل ساهرًا على حراسة الشباب فى فترة تكونه البيولوجى والروحى يكبح جماحه، ويُقوِّم شططه ويبعده عن المغريات والمفسدات من أمثال الأفلام الهزيلة، والكتب المبتذلة الرخيصة، من شاكلة «الأدب المكشوف» وغيره.

هنا دور المجتمع، وهنا أيضًا يكمن العلاج..

فمن واجب المجتمع أن يتدخل ويحمى الشباب من تلك الترهات الغثة حتى تمر تلك الفترة التى يمر بها كل شاب.. فترة ما بين الطفولة والرجولة.. على خير.. نقول هذا والخط البيانى لعدد الكتب إياها قد وصل إلى مليون نسخة فى مدينة القاهرة وحدها؟!.

بعد ذلك لنا أن نترك الشباب ونحن مطمئنين واثقين بأنه يجد السعى إلى الطريق السليم المستقيم.

ولله در «على بن أبى طالب» حيث وضع دستورًا حكيمًا للتربية فى كلمته الصائبة: «علم ابنك سبع، واضربه سبع، وصاحبه سبع، ثم اترك له بعد ذلك الحبل على الغارب!».

العلاج أيضًا.. فى أيدى الشباب..

فعليه أن يسبر غور نفسه، وأن يكتشف مواهبه الكامنة، ويعمل على

توجيهها الوجهة السليمة التى تزكيه وتفيد وطنه بنتاج من عقل وشعاع من روح، ويحاول مع هذا أن يعوض ما قد تكون الطبيعة سلبته إياه، فكل إنسان منا يوجد فيه حرف ناقص يستطيع أن يكمله بشيء من الصبر والمثابرة والتصميم.. وكان (هنزل) يقول:

«ليس يعنينى أن ينأى مسيرى، أو تعترضنى فى الطريق الصعاب، فأنا سيد قدرى ومصيرى، وفى الأفق الأمل المستطاب».

على الشباب أن يكون مسئولًا دائمًا أمام نفسه، وأن لا يلقى بالتبعة على غيره، لأن ذلك يصمه بالضعف والكلال.

على الشباب أن يثق بقدرته، وأن يتسلح دائمًا بالحماسة فهى روح الحياة، وترياقها. فالحماسة تولد الإرادة. والإرادة سلاح النجح فى دنياه فى بدايته وفى منتهاه.

على الشباب أن يؤمن بعمله، وأن يهبه قلبه، وهذا مثل نسوقه للشباب على أن الإنسان الذى يهب قلبه لعلمه قلَّما جانبه التوفيق..، فقد سألوا مرة الكاتب الإنجليزى الكبير «سومرست موم William Somerset Maugham» عن سبب تحوله من دراسة الطب إلى الكتابة فأجاب:

«لقد كنت طالب طب فاشلًا، لأننى لم أمنح الطب قلبى».

وهكذا يضرب الرجل بعبارته مثلًا رائعًا للشباب، فهو لم يلق تبعة فشله فى دراسته على غيره، بل ألقاها على عاتقه، وعزاها إلى شخصه.. وما أن منح لعمله الجديد قلبه حتى صار كاتبًا طبقت شهرته الآفاق.

على الشباب أن يعرف أن العمل وحده هو مقياس الرجولة، وألا يصعر خده للناس، فالإنسان إنسان بعمله وسعيه، فلا يصح أن يقول «أنا ابن من؟. بل عليه أن يقول: أنا من؟. قبل أن يكون بأصله ونسبه.

وما أصدق مفكرنا الكبير الأستاذ العقاد. إذ يقول:

«ليس هناك مخلوق على الأرض يستطيع أن يرفع أو يُنقص من شأني غير فني.. فالفن هو الذى يكرم النفس أو يمهُنْها فى كل زمان ومكان تحل فيه».

على الشباب أن يتخلص من آفة الغرور الباطل. وألا يستخف بخصمه المقاتل. وخصم الشباب المقاتل هنا هو الحياة. فالحياة خصم عنيد للإنسان ولاسيما الإنسان الضعيف الذى سرعان ما يستسلم للحوادث ويخضع للملمات ونوائب الدهر، فتدوسه الأقدام، وتلقى به فى دياجير النسيان. ولابد أن يعلم أن يومًا لك، ويومًا عليك، وخير الأيام ما بذله الإنسان فى سبيل الأنام.

فالناس بالناس ما دام الحياة بهم
والعسر واليسر أوقات وساعات
وأفضل الناس فى الورى رجل
قضى على يديه للناس حاجات
قد مات قوم ما ماتت مكارمهم
وعاش قومٌ وهم فى الناس أموات

وأخيرًا وهو مسك الختام، فعلى الشباب أن يقرأ ويقرأ، وألا يجعل بينه وبين القراءة هوة سحيقة فيلج فى الجهل، ويضحى بعقله كالحيوان الأعجم الذى يفكر بأنيابه وليس بعقله.

فالقراءة علم، ورابط يربط ما بين الفرد والمجتمع الإنسانى الذى يعيش فيه وبين ظهرانيه، فهى نور تضىء له الظلمات، وتعينه عليه النائبات. وتزيل من قلوبهم (الأكنة) فلا يمسون كما قال الله تعالى فى كتابه الكريم:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾. [سورة الكهف – الآية: ٥٧]

مما يبعدهم عن (الأمر المريج) فيصدعون دائمًا للحق ويبتعدون عن الباطل بالقراءة الرشيدة المتنوعة التى تغذى عقولهم. وتدفعهم إلى الانسلاخ عن الجهل مصداقًا لقول الله:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾. [سورة ق – الآية: ٥]

وكم من حق ضاع بسبب غياب القراءة وانغلاق العقل.

وقال مصعب بن الزبير لابنه «تعلم العلم فإن يكن لك مال كان لك جمالاً، وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً».

وكتب ابن المقفع يقول: «ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب الذى هو لقاح عقولنا».

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه:

«يابنى تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطا سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم».

ويقول «الزرنوجى» أحد أئمة المسلمين:

«كفى بلذة العلم والفقه والفهم داعيًا وباعثًا للعاقل على تحصيل العلم».

وأوصانا الله بالعلم وحث – جل شأنه – على ذلك فى كتابه الكريم.. فقال:

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر – الآية: ٩]

وقد قال الرسول – عليه الصلاة والسلام –:

«العلماء ورثة الأنبياء».

وإنما ذكرنا هذا للشباب للتدليل على قيمة القراءة وأثرها فى خلق الإنسان وتكوينه. فعلى الشباب أن يدرك ذلك، ويعمل على أن ينهل دائمًا من مناهل العلم والمعرفة.

على الشباب أن يطلب رياضة البدن، كما يطلب رياضة العقل فكلاهما يكمل الآخر ولا غنى للشباب عن أحدهما أو كليهما. وقد قال عمر – رضى الله عنه –:

«علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل».

وقال الحجاج لمربى ولده:

«علم ولدى السباحة قبل الكتابة فإنهم قد يصيبون من يكتب عنهم، ولكنهم لا يصيبون من يسبح عنهم».

على الشباب أن يؤمن دائمًا بربه. وأن يعرف أن قيمة الدين خالدة، وأن ضرورته فى حياته واجبة. وأن يعمل لدنياه كأن يعيش أبدا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا.

تلك هى مشكلة الشباب، وهذا هو علاجها الذى يكفل لنا شبابًا لهم شأنهم فى موازين الخلق، وفى موازين الرجال!.

وما أجمل هذه الأبيات التى قرأناها ويقول فيها الشاعر:

والمرء لا تشقيه إلا نفسه ... حاشى الحياة بأنها تشقيه

ما أجهل الإنسان يضنى بعضه ... بعضًا ويشكو كل ما يضنيه

ويظن أن عدوه فى غيره ... وعدوه يمسى ويضحى فيه

□□□

مشكلة أطفال الشوارع

فى إحصائية للمنظمة العالمية للأطفال «اليونيسيف»: ذكرت أن عدد أطفال الشوارع – فى مصر – قد بلغ المليون والثلث مليون طفل؟!.

قمين بنا – إذن – أن نبدأ بحثنا بالتعريف عن.. ما هو الطفل؟!

الطفل ورد فى: القانون المعنون باسمه وهو كما جاء فى المادة الأولى من القانون رقم (٤٩) لسنة (١٩٣٣م) (الخاص بالتسول): من وجد متسولاً فى: الطريق العام أو المحال العامة.

أما فى: القانون رقم (١٢) لسنة (١٩٦٦م) فهو: كل من لم يتجاوز سن الثانية عشر سنة ميلادية كاملة.

وقد حدد هذا القانون الجهة المنوط بها حماية الطفولة كما بينت المادة (٩٧) من عجز هذه المادة.. وهى اللجنة العامة لحماية الطفولة:

وقد أوجب المشرع على هذه اللجنة رصد جميع حالات تعرض الطفل للخطر والعمل على إزالة أسبابها كما أوضحت المادة (٩٩) من القانون المذكور: وأوصى القانون بوجوب أن تقضى: محكمة الطفل باتخاذ التدابير اللازمة والعاملة لوضع الطفل الذى سقط فى بئر الجريمة على انتشاله ووضعه فى إحدى مؤسسات الاستقبال.. وكذلك تسليم الطفل إلى أبويه: وقد قصد الشارع إلى اتخاذ هذا التدبير من محكمة الطفل قاصدًا حفظ الطفل ومراقبته وتقويمه:

وأردف القانون قائلًا لا تسرى: أحكام التشرد على الطفل الذى لم يبلغ ١٨ سنة إلا عند انقطاع سبل الاتصال بوالديه أو بالحياة العامة..

ولا يحكم على الطفل الذى لم يتجاوز سنه خمس عشرة سنة إذا ارتكب جريمة بأية عقوبة أو تدبير منصوص عليه فى قانون آخر.

والسؤال الذى يثور: من هم أطفال الشوارع؟!

وقصارى القول: إنهم هؤلاء الذين أناخ الدهر عليهم بكلكله.. فقذف بهم إلى التشرد والتسكع فى جنبات الشوارع وأروقتها.

وإذا كانت «الأنام فرائس الأيام».. فهم فرائس الدهر بأيامه ولياليه: يعيشون بين ظهرانيه ولا صوت لهم «voiceless» – بتعبير علم النفس – يعيشون على الكفاف من العيش بدون مأوى: ولا سكن يؤويهم يكون لهم – دارًا ومتاعًا، ومستقرًا ومُقامًا.. تصافح وجوههم فى كل مكان، ومن كان فى كل مكان فلا مكان له، تنهش أجسادهم الهزيلة الأمراض، ويتربص بهم الموت فى كل لحظة. وإذا كانت الأرحام تدفع والأرض تبلع؛ فإنك ترى الواحد منهم وظهره كظهر الدابة، وعنقه كعنق المغلول بعد أن تسلط عليه سيف الفقر المسلول، يبزغ قرص الشمس عليه ويأفل، وغاية ما يؤمله: قرصًا من الخبز، ويا بؤسًا له إن هو سأل؛ لعله يعثر على من يدغده بكسرة خبز أو إدام! ويا ليته الدرهم أو الدينار ليقتات به! صفعته الليالى حتى ذبل الجسم منه، اكفهر وجهه فقد أضناه الفقر وأشقاه، وبدا ذلك جليًا على محياه، فأهله قد غابوا وكأنهم قد ماتوا، فلم يعد ثمة ما ينير له حياته فى حلكة الليل البهيم.

لقد عاداهم الزمان؛ فأمسوا عرضة للاستهجان، وكأن هؤلاء المساكين قد اختاروا لأنفسهم هذا المصير المؤلم الحزين، ففى أحشاء كل منهم يتكون جنين جديد من الهم والغم الأليم:

عندما تراهم «تبصر خشبًا مسندة» ضربت عليهم «الذلة والمسكنة» وكان عميد الأدب العربى: الدكتور طه حسين – قد وصفهم فى كتابه

«المعذبون فـى الأرض». وكذلك هم كما دبجـت براعة الكاتب العالم: «فيكتور هوجو» فى رائعته «البؤسـاء» «les missrable»: لقد اتخذ من بطل روايته أو قصته (جان فالجان) سـبيلًا لتصوير بؤسـهم وتعاستهم وها هو ذا (فالجان) لم يكن يملك شـرو نقير: فتعزفت نفسه أن يتسول ويمد يده إلى الناس، فتطاول ومدها إلى رغيف أو بضعة أرغفة يسـد بها رمقه ورمق من يعوله بعد أن تضوروا جوعًا، فما كان من الشـرطة إلا أن تعقبته، وصار الحال مع الشـرطة على هذا المنـوال متعقبة إياه، جادة فـى البحث عنه إلى أن عثرت عليـه وقذفت به فى غيابة الجب، بعد أن تبدل حاله من الفقر المدقع إلى واسع الغنى، وأضحى محسنًا كبيرًا.. ولكـن هيهات هيهات! فإن الجريمة تتبع الإنسـان وتظل هكذا تتبعه كظلـه فى كل مكان وفى كل زمان، وها هو ذا رجل الشـرطة (جافين) وضـع القيد الحديد فى معصم (جان فالجان) الذى كان – وبعد اقترافه لجريمة سرقة أرغفة العيش – قد فر هاربًا وتدثر بعباءة رجل آخر حتى يختفى عن الأنظار، واسـتبدل اسم (فالجان) بـ (مادلين)، وتعرف على شـخصيته الحقيقية مع التنكر الذى كان يظهر به فيقبض عليه ويجره إلى ظلام السجن، وبعد عقود طويلة مرت على سقوطه فى بئر الجريمة.

لسان حال هؤلاء التعساء هو ما عبر به «ابن دانيال» فى شعره متحدثًا بما جادت به قريحته:

أمسيت أفقر من يروح ويغـتدى ما فـى يـدى مـن فاقتى إلا يـدى
فـى منزلـى لم يبـق غيـرى قاعدا فـإذا رقـدت رقدت غـيـر ممـدد
لم يبق فيه سـوى رسـوم حصيرة ومخـدة كانـت لأم المهـتدى

وها هوذا – الشاعر الفذ «معروف الرصافى» يرسم صورة ناطقة لإحدى فتيات الشوارع فيقول:

لـقيتهـا لـيتنـى مـا كـنت ألقـاها
تـمشى وقـد أثقل الإملاق ممشـاها
أثـوابـهـا رثّـةٌ والـرجـل حـافية
والـدمع تـذرفه فـى الخدّ عيناهـا
بـكت مـن الفقر فاحمرّت مدامعهـا
واصـفرّ كالورس من جوع محيّاهـا
مـات الذى كان يحميهـا ويسعدها
فـالدهـر مـن بـعده بالفقـر أشـقاها
تـمشـى بـأطمارهـا والـبـرد يلسعها
كـأنه عـقرب شـالت زبـاناهـا
مـا بـالها وهى طول الليـل باكيـة
والأم سـاهـرة تـبكـى لـمبكاهـا

وإن أنسـى، لا أنسى أننى بينما كنت قافلًا من عملى القضائى ذات يوم قريب، وقد بدأ الليل يرخى سـدوله على وجه مدينة القاهرة. وفى إحدى إشـارات المرور توقفـت وأبصرت عن كثب طفلًا صغيرًا أشـعثًا أغبرًا – من أطفال الشـوارع – «ورب أشـعث أغبر لو أقسـم على الله لأبره»، لما يزل فى بواكير عمره، يشـير بكلتا يديه إلى السيارات الواقفة طالبًا منهم الإحسان، لم يعره أحد اهتمامه، وبعد أن سمحت لنا إشارة المرور بالتحرك: أدرت محرك سيارتى، وإذا بالطفل وقد وصل إلى بابها

متشبثًا به، طالبًا منى ما طلبه من الآخرين، توقفت بالسيارة وترجلت احترامًا له، بينما كانت أرتال السيارات تلاحقنى بأصواتها الزاعقة، كى أجد الخطى بالتحرك، لم آبه لها وسألته: ماذا تريد؟ أجابنى: أريد أن آكل لحمًا، فلقد مات أبى وتزوجت أمى وتركتنى فى العراء، أجبته إلى طِلبته والدموع تترقرق فى عينى.

هكذا استبد الفقر بأطفال الشوارع.. فالفقر هو آفة الآفات والفقر – كما جاء فى (لسان العرب) – هو الذى نزعت فقرة من ظهره فانقطع صلبه من شدة فقره.

وإذا كان الفقر ظاهرة مركبة كما يذهب علماء النفس فهو يجمع بين أبعاده ما هو موضوعى (كالدخل والمهنة والوضع الطبقىّ)، وما هو ذا: (كأسلوب الحياة ونمط الإنفاق والاستهلاك ودرجة الوعى والثقافة).. كما أنه ليس هو الذى يعجز عن إشباع حاجة الفرد «البيولوجية»: كما يرى رجال الاقتصاد.. بل هو يعنى كذلك عجز البناء الاجتماعى للدولة عن توفير مستلزمات الفرد المادية والمعنوية، مما يدفع بالإنسان إلى الحضيض، وهكذا يندفع أطفال الشوارع.. إلى الشوارع؟!.

وقد ضرب الفقر – كما ألمعنا – بأطنابه عليهم من فقر مادى إلى فقر أدبى ناهيك عن الفقر فى الشعور والفقر فى الإحساس وكذلك الفقر فى الضمير.

ولو يممت الدولة نظرها إليهم ما بقى طفل واحد منهم فى الشارع الذى تلقفهم وفتح ذراعيه لهم، ولو انتشلتهم الدولة من وهدتهم ما فقدت هذه الشريحة الهامة من شرائح المجتمع المدنى.

وهاكم حديث الأرقام: أولاً: أشار تقرير الهيئة العامة لحماية الطفل أن أعداد أطفال الشوارع فى تزايد مستمر؛ الأمر الذى يشكل خطرًا داهمًا

علـى المجتمع المصرى؛ فقد وصل تعدادهم فى عام ١٩٩٩م إلى حوالى ٢ مليون طفل مما يهدد الأمن القومى.

تفيد إحصائية الإدارة العامة للدفاع الاجتماعى إلى زيادة حجم الجنح المتصلة بجناح أطفال الشوارع، ففى السرقات (٦٥ ٪) والتشرد (١٦.٥٪) والتسول ١٣٪ والعنف ٥.٣٪ والجنوح ٢.٩٪.

كمـا بين التقرير الصادر من (مركز الأرض) لحقوق الإنسـان تعرض أطفال الشـوارع للجرائم القسرية التلف نسبة ٣٠٦٩ جريمة، وتم هناك عـرض ٢٧٥ طفـلاً ذكرًا منهـم ١٢٥ أنثى واغتصبـت ٢٣٠ من فتيات الشوارع.. وتم استخدام الآخرين والأخريات فى عمليات إجرامية:

(راجـع الدكتور مدحت أبو النصر – مشـكلة أطفال الشـوارع فى القاهرة والإسكندرية – مشكلة أطفال بلا مأوى – عام ٢٠٠٨م).

وقـد أورى التقرير الذى ناقشـه مجلس الشـورى المصرى أن أطفال الشـوارع الذكور ٨٨٪ والإناث ١٣٪ وتتراوح أعمار الفئة الأولى بين ١٣ و١٩ عامًا والفئة الثانية بين ٣ سنوات وحتى ١٨ عامًا، وأن نحو ٥١٪ منهـم طالت فترة تواجده فى الشـوارع لأكثر مـن عامين، حتى أصيبوا بمختلـف الأمـراض، وأرجع رئيس لجنة القوى البشـرية هذه الظاهرة إلى ارتفاع نسـبة الأمية وزيادة الفقر ناهيك عن الجهل والتفكك الأسرى لانتشـار العشـوائيات والمخدرات والبطالة والتسرب من التعليم وغياب التكافل الاجتماعى والوازع الدينى:

وتحـت عنـوان الخلايا النائمة تبـدأ مخطط حريق القاهـرة الثانى «باستخدام أطفال الشوارع بعد تدريبهم فى أحد فنادق العاصمة» «ذكرت مجلة أكتوبر» بتاريخ ٢٨ /١٢ /٢٠١٢: إن طيور الظلام قد اجتمعت على

هـدف واحد: هو إسـقاط الدولة المصرية. التى تقـف حجر عثرة أمام طموحاتهـم الإقليمية والدولية ببث الفوضى وعدم الاسـتقرار فى قلوب المصريين الذين أبهروا العالم أجمع بثورتهم، بتجنيدهم لأطفال الشوارع لمناهضـة هذه الثورة، قد أضحى أطفال الشـوارع آنذاك كوقود لإشـعال الفتن: بتحويلهم «إلى أداة للتخريب وتصفية الحسابات» لأن من جندهم يعلـم علم اليقين أن القانون يحظر حبـس الأحداث، وقد كان جل من قبـض عليه فـى تلك الأحداث هم أطفال الشـوارع «جريدة أخبار اليوم المصرية» ٢٠١٢/٩/٢٣م العدد ٣٥٤٢.

وقد دلت إحصاءات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية إلى تصاعد الخط البيانى للجريمة بالنسـبة إلى أطفال الشـوارع فقد ارتفعت نسبة جنح الأحداث من ٧١,١٪ سنة ١٩٧٠م إلى ٩٠,٦٪ سنة ١٩٧٩م.

* * *

وكيفية الإفادة من طاقة هاتيك الملايين المهدرة.. نـرى:

أولا: إنعام النظر وإمعان الفكر فى حقوق الأسرة التى هى قوام المجتمع.

فحقوق الأسرة تتميز عن غيرها بأنها حقوق غيرية أو وظيفية لحمتها وسـداها تحقيق مصلحة الأسرة، وأى اهتمام لا يروم ذلك فتعتبر وصمة فـى جبين الأمـة؛ ومن ثم وجب الاهتمام بالأسـرة فهـى عماد الوطن مـن خلال مـا ألم بها من تفكك، واعتورها من تشـتت: إما بالطلاق.. أو الهجر.. أو وفاة أحد الوالدين.

ومن ثم وجب على الدولة أن تحارب مشـكلة الطلاق عمت وطمت: وأن تحذر الكافة من مغبتها. وسـوء المصير الذى ينتظر الأبناء: فيخيم عليهم ليل طويل بطىء الكواكب.

ولله در أمير الشعراء فى قولته:

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... هم الحياة وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذى تلقى له ... أمًا تخلت أو أبًا مشغولا

وذلك يكون عن طريق التلفاز.. أو منابر المساجد أو أنهار الصحف وغيرها من الوسائل الناجحة التى تراها الدولة.

* * *

ثانيًا: الاهتمام بالتعليم:

فالتعليم لا مندوحة عنه: فهو كالماء والهواء.. آبدة «طه حسين» التى وقرت فى الأذهان منذ زمن بعيد، فالفقر المدقع وقف حائلًا دون انتظام أولئك الأطفال إلى المدارس أو المعاهد العلمية، مع أن الدستور قد نص على «وجوب انخراط الأطفال وهم فى بواكير حياتهم فى سلك التعليم الإلزامى وبالمجان كما أفصحت المادة العاشرة منه بقولها: تكفل الدولة حماية الأمومة والطفولة وترعى النشء وتوفر لهم الأسباب لتنمية ملكاتهم فلا يخفى على كل ذى عينين ما يؤديه التعليم فى تشكيل عقلية الشباب، فهو كما يقول المفكر الإسلامى «محمد إقبال»: الحامض الذى يذيب شخصية الكائن الحى ثم يكونها كما يشاء.. وهذا الحامض هو أشد قوة وتأثيرًا من أية مادة كيمائية؛ فهو الذى يستطيع أن يحول جبلا شامخًا إلى كومة تراب، ويقول «أرازموس» - أحد خبراء التعليم فى الغرب -: «سلمنى إدارة التعليم ردحًا من الدهر أتعهد لك بأن أقلب وجه العالم بأسره»: فلقد بات من المؤكد أن التعليم أكثر عمقًا من تأثير البيت والأبوين؛ فهو بالنسبة لأية أمة قضية الوجود والعدم.

ومكانة العلم فى الإسلام مكانة سامقة غير مسبوقة، وهى بالنسبة لأطفال الشوارع الذين حرموا من نعمة التعليم قضية حياة أو موت.. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأنعام – الآية: ٣٥] وقوله: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[سورة البقرة – الآية: ٦٧] وقوله ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[سورة هود – الآية: ٤٦]، وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**».

وقد تعدى عدد أطفال الشوارع المليون ونصف مليون وكأنهم دولة داخل الدولة وهم بالفعل كذلك؟!

* * *

ثالثًا: بناء المساكن:

فطفل الشارع إما أن له مسكنًا متواضعًا يقبع بين جدرانه، اكتظ بمن فيه وما يحويه فيهرب منه نتيجة هذا العامل الاجتماعى مع غيره من العوامل، وإما أنه لا مأوى له فيتخذ من الشارع – فوق الأفاريز، وتحت جدران الكبارى – ملاذًا له، ومن ثم؛ فعلى كاهل الدولة يقع عبء توفير المسكن المناسب له وبالشكل الذى تراه، فمشكلة الإيواء هى أم المشكلات وأس المعضلات.

ومن الملاحظ أن أطفال الشوارع يتكبكبون فى المناطق العشوائية المنتشرة فى جميع أنحاء مصر، ولاسيما فى القاهرة والإسكندرية، وآن الأوان أن يعمل المسئولون على طمسها وإزالتها، ورفع هذه الوصمة من على وجه مصر، ويا حبذا لو أنهم جمعوا أطفال الشوارع من هاتيك المناطق العشوائية القميئة والعمل على تسكينهم فى مناطق جديدة تليق بوجه مصر الحضارى ويا ليت كان ذلك فى منطقة شبه جزيرة سيناء المفتقرة إلى التعمير يعمل فيها هؤلاء الأطفال على تنميتها وتعميرها.

ولقد فطن العالم المتحضر إلى أهمية الطفل. إلى الحد الذى حدا بالجمعية العامة للأمم المتحدة عندما أعلنت حقوق الطفل فى العشرين من ديسمبر ١٩٥٩م إلى النص على:

«إن البشرية مدينة للطفل بأفضل ما لديها».

عندما تم إعلان حقوق الطفل ١٩٦٤م، فقد ورد فيه: «حق الطفل فى الرعاية الكاملة، والرعاية بالطفل تبدأ قبل أن يولد».

وعندما قررت الأمم المتحدة أن تجعل من عام ١٩٧٩م عامًا دوليًا للطفل قال «هنرى لابواس» المدير التنفيذى لمنظمة الطفولة الدولية: «إن فكرة عام الطفل لو أنها أفلحت فى تحريك المشروعات والخطط التى رسمت لتحسين حال الجيل الجديد - إنها ستكون قد حققت أهدافها إذا انتشر الوعى بأن مشكلات الطفل ليست خطيرة وملحة فحسب، بل إنه من الضرورى أن نكرس خلاصة أفكارنا وكل جهدنا لنتوفر على حلها حلًا شاملًا، والدولة المحظوظة هى التى ستملك فعلًا: الإرادة الجادة، والعمل الجاد، لحل كل مشكلات الطفل فيها. ليتنا نشرح للكبار المبادئ العشر لإعلان العالم لحقوق الطفل؛ فإن رعاية الطفل تبدأ بالكبار وتنتهى بالكبار أيضًا؛ تبدأ بالكبار باتجاه الرعاية إلى أمه قبل أن يولد: الرعاية الصحية.. والرعاية الثقافية أيضًا، وتنتهى بالكبار أى بترشيد دور المربين من آباء ومدرسين وكتاب وإعلاميين. فليس كل شىء بصالح للتقديم للطفل.

* * *

رابعًا: دور التأهيل المهنى:

من اللازم الدفع بأطفال الشوارع نحو التأهيل المهنى؛ لتقويم

اتجاهاتهم وتصحيح مسار سلوكهم وعلاج المعوج منهم. وقد يكون من المأمول أن يكون من بينهم المبدعين، فلا عائق يعوق المرء من الانخراط فى الحياة السوية إلا غياب التعليم، وقد سار على هذا النهج بعض الدول الإسلامية مثل أندونسيا؛ إذ جمعت شعث أطفال الشوارع من أرجاء البلاد وألحقتهم بمدارس إسلامية داخلية معروفة محليًا باسم (بيسانترن).

* * *

خامسًا: رسالة القوات المسلحة:

أدت القوات المسلحة المصرية رسالتها على خير وجه فى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م وذلك بالحفاظ على سلامة الوطن وسلامة أراضيه. ويمكنها أن تؤدى دورها من خلال إمكاناتها المتنوعة، وهو دور جد هام فى إصلاح هؤلاء الأطفال، وذلك بجمعهم وتعليمهم مختلف أنواع الحرف حتى يشبوا وهم على بينة من إشراقات المستقبل الذى يود كل منهم أن يسير فيه، فمن ليس له حاضر فلن يكون له مستقبل: فعندما سأل سائل الفيلسوف «إيمرسون» لماذا تتحدث كثيرًا عن المستقبل؟ فأجابهم: «لأننى سوف أقضى بقية حياتى فيه»، ومن ثم فيجب إلحاق أطفال الشوارع بمعسكرات خاصة تقام لهم من قبل جيش بلادهم؛ يتعلمون فيها فنون العمل المختلفة التى تؤهلهم فى الانخراط فى سلك الحياة القويمة المستقيمة ليشبوا رجالًا نافعين بعد تخرجهم؛ فهذه المعسكرات هى التى يطلق عليها فى بعض البلاد مصانع الرجال.

* * *

سادسًا: العلاج النفسى (Psychotherapy):

وهو من أنجح الوسائل لتقويم أطفال الشوارع نفسيًا، وهو الطريقة المثلى التى يلجأ إليها الأطباء النفسانيون لعلاج الانحطاط العقلى والمرض النفسى الذى كثيرًا ما يعتور أطفال الشوارع، فلا ننسى أن طفل الشارع قد ترعرع فى بناء اجتماعى خاص به فخضع للمؤثرات الاجتماعية التى أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم، بعيدًا تمامًا عن الطرائق الخاصة بالسلوكيات البيئية السليمة.

فطفل الشوارع يعيش وهو يكظم غيظه ويصبر نفسه على مكروهها، ويصبر أهله على البأساء والضراء، وينظر العدل - كما عبر عميد الأدب العربى: «كما أنه يرى البؤس يصحبه إذا سعى فى الأرض وإذا راح إلى داره هو ومن يسكن معه فى تلك الدار، هذا إذا أتيح له ولأسرته دار يأوون إليها، ويصحب هذا البؤس العلل والذل والهوان والكد الذى يضنى ولا يفنى والذى يسوء وينوء».

* * *

سابعًا: إنشاء دور خاصة بهم لتلقى شكاواهم:

ينهض عليها أساتذة متخصصون - ولا بأس أن يكون من بينهم بعض رجال القانون - لتلقى هاتيك الشكاوى إذا ما ظلموا - وهم بالفعل كثيرًا ما يظلمون فيتعرض الواحد منهم للإيذاء من بعض رجال الضبط أو غيرهم من ذوى القلوب الفظة - وذلك لتلقى ما يعرض عليهم من شكاياتهم والعمل الجدّى على حلها، وكذلك من هؤلاء الذين يجندونهم للأعمال غير المشروعة، مثل اقتراف الجريمة وما يتفرع منها من أنشطة مجرمة

بقانون العقوبات، مثل السرقة أو تسهيل بيع المواد المخدرة وما شابه ذلك.. كما حدث إبان ثورة يناير ٢٠١١م من تكاتف هؤلاء الأطفال مع السوقة والدهماء الذين أوقدوا النيران فى المجمع العلمى المصرى وغيره من المنشآت الوطنية، فما كان من الشرطة إلا أن أطبقت على البعض منهم زرافات ووحدانا، وقد أكدت ذلك منظمة «هيومان رايتس ووتش» المعنية بالدفاع عن حقوق الإنسان فى العالم فى تقرير صدر منها منذ سنوات قلائل ذكرت فيه أن الحكومة المصرية تجرى حملات قبض جماعية على أطفال مازالوا فى بواكير حياتهم كل جريمتهم أنهم بحاجة إلى الرعاية والحماية؛ فيستشعر هؤلاء الأطفال الإهانة والازدراء من المجتمع.. مع أنهم فى حاجة إلى المساعدة وحسن الثواب وليس العقاب.. وقد أورد هذا التقرير فى صلبه أن حوالى ٢٠٠٠ طفل قد تعرضوا لمثل هذا.

* * *

ثامنًا: الرعاية الصحية:

وجوب إشراف زمرة من الأطباء المتخصصين للعناية بهم فى دورهم وأماكن تجمعهم، وقد دلت الإحصاءات الرسمية على إصابة الكثير منهم بالأمراض المختلفة، حيث أفاد تقرير صادر من مكتب الأمم المتحدة المعنى بالجريمة والمخدرات وكذلك برنامج الغذاء العالمى أن حوالى: ٦٦٪ ممن شملهم الاستطلاع من أولاد الشوارع يتناولون – وبصفة دائمة – عقاقير خطرة؛ الأمر الذى أصابه بمرض الرئة الانسدادى المزمن (chvonic pulmonary Disease» copo) والذى يحول دون تدفق الهواء إلى الرئتين، ناهيك عن الجرب والتيفود والملاريا والأنيميا جراء عدم توافر الغذاء الصحى لهم.

ولا تحسبن أن هذه مسألة عارضة، فكثيرًا ما فتكت الأمراض بالجيوش الجرارة.. وقد حدثنا التاريخ أن جيشًا عرمرمًا اضطر قائده أن يقفل عائدًا إلى بلاده كسير الرأس بعد أن سقط منه حوالى نصف مليون جندى نتيجة إصابتهم بالأمراض.

كما أن نقص التغذية كان سببًا - فى إصابة الجيوش الصليبية التى زحفت صوب الأراضى المقدسة وكانت تضم سبعة آلاف من الفرسان مات منهم خمسة آلاف بسبب إصابتهم بمرض «الأسقربوط» لنقص الغذاء؟!

وهاهى ذى جريدة «الوفد المصرية» تشير - العدد ٧٩٩٥ - تحت عنوان «فقراء وأجرهم على الله» «أن بعض الآباء يبيعون أولادهم.. وينتحرون بسبب الحرمان بسبب أن الصحة فى الإنعاش» كما أشار هذا التحقيق إلى أن مليونًا ونصف المليون من صغار السن الذين يتبعون قطاع الطفولة والأمومة بنسبة تجاوزت ٥٠٪ من التعداد السكانى يعملون فى السخرة نظرًا لغياب التعليم أو تسربهم منه؛ مما يعرضهم لأسوأ أشكال العمل. بالإضافة إلى تعرضهم للعنف البدنى والجنسى والنفسى داخل المدرسة والمنزل والشارع ولم يتعد أحدهم سن العاشرة، وبلغ عددهم مليون طفل ٢١٪ منهم إناث مقابل ٧٩٪ منهم ذكورًا؛ مما يستوجب مناهضة هذه الظاهرة - ظاهرة أطفال الشوارع - وقد طالب بذلك المجلس القومى للطفولة والأمومة.

ولقد نشرت جريدة «الأهرام المصرية» فى الصفحة الأولى منها أن «٤٢٪ من المصريين محرومون من الخدمات الأساسية» العدد ٤٥٩٥٩ بتاريخ ٥ /١٠/٢٠١٢م - فما بالك بأطفال الشوارع الذين حرموا من كل شىء.

كما نشـرت ذات الجريدة بتاريخ ٢٠ نوفمـبر ٢٠١٢م فى صفحتها الأولى عن بيان لجهاز الإحصاء أن ٤٣ ٪ من الأطفال يعملون فى ظروف قاسية وأردفت قائلة:

«بمناسبة اليوم العالمى لحقوق الطفل أكد فيه أن إجمالى عدد الأطفال المصريين أقل من ١٨ عاما يبلغ نحو ٢٩,٤ مليون طفل – منهم ١٥ مليونًا مـن الذكـور و ١٤,٤ مليون طفلة من الإنـاث، وأن إجمالى عدد الأطفال العاملين ١,٦ مليون طفل بنسبة ٩,٣٪ من إجمالى أطفال الجمهورية. كما أشار البيان إلى أن ٤٣٪ من الأطفال العاملين يتعرضون للأتربة والأدخنة حيث ظروف العمل السـيئة. وأوضح رئيس جهاز الإحصاء أن ٢١٪ من إجمـالى الأطفال العاملين يتعرضون لإصابات سـطحية وجروح مفتوحة، و٥٧٪ يتعرضون لإصابات عمل متنوعة أخرى، وأضاف أن نسبة الأطفال الفقراء أقل من ١٨ سنة فى مصر تبلغ ٢٦,٤٪ من إجمالى أطفال الجمهورية منهم ١١,٨٪ محرومون من الغذاء و ٤,٩٪ محرومون من التعليم. كما أكد أن معدل الالتحاق بالتعليم للأطفال العاملين يبلغ ٦٥,٦٪ مقابل ٨٨,٦٪ للأطفـال غـير العاملين، كما أكد أن ٦٤٪ من الأطفـال العاملين يعملون بالنشاط الزراعى ونسبة الأطفال العاملين فى النشاط الصناعى حوالى ١٨٪ وفى النشـاط الخدمى ١٨٪، ومن ناحية أخرى أكد بيان جهاز الإحصاء انخفاض معدل وفيات الأطفال بنسبة ١,٧٪»:

* * *

تاسعًا: العطف والاحتواء بالحنان:

صرح سـفير النوايا الحسنة لشـبكة الأخبار العالمية – فيما ارتآه من

حل لقضية أطفال الشـوارع – بأن هؤلاء الأطفال يفتقدون «الحب» الذى هو مفتاح علاجهم، سواء أكان ذلك فى البيت أم فى الشارع.

وهذا الذى ذهب إليه هو محجة الصواب. تقول القديسـة «تريزا»: «لو كان الشيطان يحب ما كان شريرًا».. وكان القديس «فنسان دى بول Vinecent de Paul» الذى ضربت شهرته الآفاق فى الإحسان – يعالج المرضى من الأطفال بالعطف عليهم وبذل الحنان لهم؛ حتى إنه قد قيل عنه: إنه من العبث أن نبحث عن مكان للبغض فى قلب هذا القديس. إذن، لـو قامـت الدولة بتأهيـل أطفال الشـوارع وعلمتهم معنى الحب لأحبوا جميع الناس. ولعرفوا عن طريقه معنى (الله). ولننظر إلى ما قاله الشاعر «إيليا أبو ماضى»:

خوفـونى مـن جهـنم ولظاهـا أى شـىء جهنـم ولظاهـا؟
أنا بالحب قد وصلت إلى نفسـى وبالحـب قـد عرفـت الله

عاشرًا: تخصيص يوم لأطفال الشوارع:

فأطفال الشـوارع هم مسـئولية الوطن. وهذا ما دفع جمعية التضامن معهم إلى تحديد يوم ٢٨ فبراير من كل عام للتضامن مع أطفال الشـوارع تحت عنوان «أطفال الشـوارع – مسئولية مجتمع» فليكن هذا اليوم يومًا قوميًا لتضامن الأمة عن بكرة أبيها للاحتفال بيوم هؤلاء الأطفال، وليقدم كل ما يسـتطيع أن يقدمه لهم، من عطـاءات الخير، حتى يعلمون أن وطنهم لا يغض الطرف عنهم، ولا يألو سبيلا لمد يد العون إليهم.

من وصايا السـيد المسيح عليه السلام: اسألوا تعطوا: اطلبوا تجدوا: واقرعوا يفتح لكم.. فمن منكم يسأله ابنه خبزًا فيعطيه حجرًا، ومن منكم يسأله سمكة فيعطيه حية. أو يسأله بيضة فيعطيه عقربًا؟!:

الحادى عشر: التربية الدينية:

فمن خلال «المنظور الدينى»: يتعلم أطفال الشوارع ديمومة المعلومة الدينية فى الذاكرة، يسترجعونها للاستفادة منها مستقبلاً. فالثقافة الدينية هى خير ثقافة ينهل منها أطفال الشوارع مناهل العلم. وصدق حجة الإسلام «الغزالى» حين قال: «إن الطفل جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما ينقش عليه»، والعلم هو وحده الذى يجب أن ينقش عليه فلا حياة بدون العلم. يقول أحد الحكماء فى هذا الخصوص: «تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم وإن كنتم وسطًا سدتم. وإن كنت سوقة عشتم»، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالقراءة. ولعل من المفيد أن نذكر فى هذا الصدد أن أحد الأدباء قد صور عملاق الفكر المصرى الأستاذ عباس محمود العقاد – بعد أن صعدت روحه إلى بارئها – وهو داخل الجنة: فطفق يبحث بين أرجائها عن كتاب يقرأه، حتى إذا لم يعثر على ضالته خرج من الجنة مغضبًا وهو يقول: ما فائدة الجنة إذا لم يكن فيها كتاب يُقرأ». ودور الإعلام هنا لا يقل عن دور المؤسسات التربوية. بل يقع عليه ما يسمى (بالتربية المستديمة أو المستمرة) التى وصفتها اللجنة الدولية لتعليم الكبار باليونسكو عام ١٩٦٥م بأنها: (تلك النظرة إلى عملية التربية ككل باعتبارها مستديمة طوال حياة الفرد – منذ نعومة أظفاره إلى أن يضحى فى عالم الرجال).

يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم [فى سورة الزمر: الآية٩]:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

فلا أفصح من الدين فى معناه.. ولا أبين من فحواه.

الثانى عشر: استخراج شهادات ميلاد لهم:

وأخيرًا – وليس آخرًا – يجب العمل حثيثًا على استخراج شهادات ميلاد لمن لا شهادة ميلاد له من أولاد الشوارع وإجراء تحليل الـ DNA لأن الكثير منهم لا شهادات تنطق بميلادهم لإنكار الأب أبوته لهم، أو لعدم قيام أحد من آبائهم أو أمهاتهم باستخراج شهادات ميلاد لهم مما يعرضهم للضياع؛ حيث إن البطاقة الشخصية هى المثبتة لهوية الإنسان مهما كان، ولا غنى عنها البتة.

والذى لا مراء فيه – أن التنشئة الاجتماعية تقوم بوظيفة إنتاج شعور بهوية الفرد وهوية الجماعة، ناهيك عن تخليق بنية دافعة داخل الفرد وظيفتها قبول الفرد داخل المجتمع الذى يجب أن ينصهر فيه.. فالذى لا شك فيه – أيضًا – أن هؤلاء الأطفال الذين غلبوا على أمرهم وشاء القدر أن يشبوا عن الطوق وهم فى منأى عن هويتهم سواء الخاصة أو العامة مما يعرضهم لمرض الاغتراب «Homesickness Alienation»: وهى مشكلة فجرها سنة ١٩٥٦م كتاب «كولن ويلسون Colin Wilson».. اللامنتمى «The outsider» فالأمى غريب فى وطنه.. والفقير المطحون غريب فى وطنه لأن الفقر فى المال فقر فى كل شىء كما عبر الأديب الكبير الأستاذ «إبراهيم عبد القادر المازنى».

وبهذا الاغتراب كأن حكمًا مرتبكًا ومتعجلاً Hasty Judgment قد صدر فى حق هؤلاء الأطفال – باغترابهم وشعورهم بالغربة عن وطنهم – مما دفعهم إلى الانحراف عن معيار «العلاقات الإنسانية الرفيعة» مما جعلهم يتأرجحون بين اللامبالاة Indifference – من خلال رفضهم لمجتمعهم –: إلى العداوة النشطة Active Hostility:

فقد أضحى طفل الشارع متوحدًا مع قرنائه من أطفال: فأصبح متوحدًا بالجماعة Group Identification ويقرر الدكتور معتز سيد عبد الله في كتابه القيم «الاتجاهات التعصبية» أن هذا التوحد إنما يعود إلى توفر مكونين أساسيين: الأول معرفي: ويقصد به الوعي Awareness والثاني تقويمي: ويقصد به ارتباط هذا الوعي ببعض التوجهات القيمية Value Connotation، والثالث يتكون من خلال التوظيف الانفعالي Emotional Investment لكل من الوعي «المكون الأول» والتقويم المكون الثاني.

من أين يأتي الوعي إذن «لهؤلاء الأطفال»؟ وكيف يتأتى أن تصلهم التوجهات القيمية وهم في حداثة سنهم وانعدام تعليمهم؟!

من ثم فقيام الدولة باستخراج البطاقات الشخصية لأطفال الشوارع ينقذهم تمامًا من تشتت الهوية «Identity diffusion».

* * *

وأخيرًا – وليس آخرًا – فالذي لا مشاحة فيه – أن ظاهرة أولاد الشوارع ظاهرة عالمية نبتت وأينعت في جل دول العالم: منها إنجلترا وأمريكا اللاتينية وإيرلندا والسودان واليمن وزمبابوي وموريتانيا، بل في أكبر دول العالم.. الولايات المتحدة الأمريكية. فهي تعبر قارات أفريقيا وآسيا وأوربا والأمريكتين: كما ذكر «اتحاد جمعيات أطفال الشوارع Consortium for street children» – في إحصائيته عن أطفال الشوارع، Street Children Statistic.. بيد أنها في مصر قد نما شرها وذكا عودها فأصبحت ظاهرتهم – بشرًا سويًا.

ومن العجب العجاب أنه – ولذراية المجتمعات المختلفة بهم – فقد أطلقت عليهم المسميات المتدنية؛ حتى تفصلهم هاتيك المجتمعات عن

الانتماء إليهم: فهم فى اليمن «الأخدام» وهم فى موريتانيا «الألودات» وهم فى السودان «الشماسة» وهم فى مصر «المعذبون فى الأرض.. البؤساء».

يسجل لنا التاريخ من خلال هذه «الظاهرة العالمية» – كما أسلفنا القول – أن فرنسا قد عانت منها بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، فقد أضحى يعيش على أديمها الملايين الذين ولدوا سفاحًا وأثقلوا كاهل الدولة التى أطلقت عليهم اسم (جندرما) تمييزًا لهم عن بقية مواطنيها.. أما فنزويلا فكانت الدولة – هناك – تطلق الرصاص عليهم.

فهل نريد – نحن كذلك – أن نطلق الرصاص على أولاد الشوارع فى مصر؟!

لقد أخنى الزمن على أطفال شوارع مصر بعد أن لاقوا من صنوف العذاب ألوانًا وعركوا الأيام وعركتهم وخاضوا غمارها فغمرتهم فأصبح كل لسان منهم يجأر حزينًا: هل رأيت الدمع من عينى جرى؟ هل رأيت القلب موصول الأنين؟.. يتضرعون إلى مولاهم بعد أن غرقوا إلى الأذقان فى بحر من الأحزان فتضرمت قلوبهم كلها نارًا تتلظى..

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾[سورة النساء – الآية: ٧٥]

صدق الله العظيم.

❑❑❑

مشكلة العشوائيات.. واقع الملايين المر..؟!

قد مات ناس.. وهم فى القوم أحياء!.

مقولة فاه بها حكيم تمثل تمامًا أصحاب العشوائيات. فقد أمسوا جميعًا وهم الأحياء الميتون!

وهذه العشوائيات لم تكن مصر تعرفها فى غابر الزمان.. أو بالأحرى فى عقودها قبل الأخيرة فلم تكن إلا مدينة من أجمل وأنظف بلاد الدنيا كان عدد سكانها لا يزيد عن عشرة ملايين نسمة.. ومع الزيادة المضطردة فى عدد سكانها.. مع قلة المساكن أو ندرتها وارتفاع ثمنها سواء أكان بالتأجير أو بالتمليك انتشرت العشوائيات وانتثرت فى ربوع الوطن المصرى برمته.

والذى لا شك فيه أن المجتمع المصرى قد قسا على قاطنى العشوائيات قسوة جد بالغة.. والقسوة بنت الجفوة. ومن ثم انعزل قاطنى العشوائيات وقد تقوقعوا داخل مجتمع خاص بهم أمسى فى بشاعته وترديه إلى أسفل سافلين أشبه بما أسماه الكاتب الأمريكى «باكارد» فى كتابه «The naked pelican».. المجتمع العارى، واعتنق أهل العشوائيات مقولة الكاتب «أندريه مالرو»:

«بدأت أفقد إيمانى فى أنه يوجد ما يسمى بالنهضة».

والذى لا لجاج فيه أن العشوائيات أضحت كالزلزال الذى هو وليد الاختلال فالخلل الذى ضرب المناطق العشوائية يمثل ذلك الزلزال الذى يضرب بقسوة قشرة الكرة الأرضية جارفًا كل شىء أمامه؛ مما يشكل

خطـرًا ماحقًا وآثارًا مدمـرة؛ فهاهى ذى البؤر الإجرامية تولد وتنمو فى هذه العشـوائيات بما تحمله فى طياتها من فسـاد وإفساد عم وطم على مصر المحروسـة نفسها وأمسـت تتهدد الأمن العام بخطر داهم وواضح وقائم «Clear and present danger».

* * *

فلقد ضاق سـكان العشـوائيات بحياتهم ذرعًا عيونهم دموع وقلوبهم ولوع، وبدا شبابها للعيان كشباب عذاب.. رهينة اغتراب مما ألقى على كواهل الدولة أن تجلو شـجون هؤلاء المطحونين فى مناطق ما أنزل الله بها من سلطان.

فـى الصورة التى صـدَّرت مجلة أكتوبـر الغراء بهـا غلافها حول العشـوائيات بتاريخ ٢٠١٢/١٠/١٤م ما يكفى الباحث مؤنة البحث فى هذا الموضوع؛ ففى هذه الصورة الناطقة تظهر سيدة بلغت من العمر أرذله تقبع بين عشش متهالكة شرب عليها الدهر وأكل وهى رافعة كفيها إلى السماء وكأنها تستمطر اللعنات على من أوصلها إلى هذا الحال، ولسانها يكاد ينطق قائلًا: «أنقذنى يارب البلاد.. ويا خالق العباد.. مما أنا فيه، ومما أعانيه»!

* * *

وفى الصفحة الخامسـة والخمسـين من مجلتنا الغـراء نقتطف هذه الإحصاءات التى ذكرها محرروها - بجهد يحسب لهم - «تمثل المناطق العشـوائية خطرا كبيرا على مسـتقبل مصر؛ إذ إنهـا تعد بيئة خصبة للإجرام والانحراف بكافة أشـكاله.. وقد عانى سـكان هذه المناطق من

إهمال الحكومات المتعاقبة مما أدى إلى وصول عدد المناطق العشوائية فى مصر إلى ١٢٢١ منطقة فى ٢٤ محافظة، ويقطن بهذه العشـوائيات نحو ١٥ مليون نسـمة، وتمثل نسبة ١٨٪ من سكان مصر، و ٤٠٪ من سكان المناطق الحضرية، وتفاقمت المشـكلة على نحو غير مسبوق فبلغت نحو ٧٧٪ فـى بنى مزار بالمنيا، و ٢٥٪ فى محافظة أسـيوط، و ٣٦٢ منطقة بالدلتا».

* * *

وإذا كانت هذه العشوائيات – طبقًا لما قال به المؤرخون – قد نجمت مـع بداية قيام الثورة الصناعية فى أوربـا فقد نمت فى مصر منذ عقود طويلة فشاه بها وجه مصر.. شوهها قبح هذه العشوائيات التى تراكمت عليها كما تتراكم الثلوج على الأرض فى فصل الشتاء القارس البرودة.

فقد تقاعست الحكومات المختلفة عن إزالتها بعد أن فشلت فى تدبير المساكن لقاطنيها؛ مما دفع بالعديد من البشر للسكنى فيها بعد أن شدوا الرحـال إليها، إذ عجزت تلك الحكومات عن تدبير المسـاكن الصالحة لإيوائهم فأضحت بيوتهم تبنى بدون ترخيص، وأمسـت أراضيها تغرى الكافـة بالهجـرة إليها والقبـوع فيها؛ فنمت بها البـؤر الإجرامية مما جعلها تضحى زلزالاً يتهدد الوطن برمته.

وإذا كان الزلزال ينشـأ من الاختلال، فقد تحولت هذه العشوائيات إلى مراكـز اجتماعية قلقة وبراكـين مدمرة تقذف بحممها على المجتمع المصرى برمته بين الحين والحين.

الأدهـى والأمر أن قاطنى هذه العشـوائيات اسـتوطنوا هذه المناطق الخربة، وتحولت بالتالى (إلى مفرخ خطير) لكل أنواع الموبقات.

بلغ تعداد هذه العشـوائيات فى القاهرة وحدها إحدى عشـر ومائة منطقة عشـوائية من بينها ٢٤ منطقة غير آمنة تمثل خطورة على حياة القاطنـين بهـا، وذات العدد يوجد بالإسـكندرية – وهلـم جرا – فى القليوبية.. بل وفى جميع أرجاء محافظات مصر المحروسة.

إذ بلغ عدد سكانها – وعلى الوجه المبين بتحقيق مجلة "أكتوبر" الغراء – ١٥ مليون نسمة بنسبة تمثل ١٨٪، و ٤٠ ٪ من سكان المناطق الحضرية، وتفاقمت المشـكلة على نحو غير مسـبوق فى العالم كله، فبلغت نحو ٧٧٪ فى بنى مزار بالمنيا. و ٢٥٪ فى محافظة أسيوط، ٣٦٢ بمنطقة الدلتا.

* * *

ونجم ذلك بسـبب زيادة معدلات الهجرة من المدينة ومن ريف مصر إلى تلـك المناطق العشـوائية، فقد كانت هذه الهجـرة الداخلية من مدن مصـر وقراها إلى هاتيك المناطق سـببًا فى تراكم هذه العشـوائيات التى أمسى مستوى الإسكان فيها دون المستوى الآدمى وهو الخطر الحقيقى.

* * *

وتكمن مشـكلة هذه المناطق العشوائية فى تلك التى غاب عنها الأمن وتغيـب الأمان مثل الدويقة وعزبـة الهجانة فى القاهرة التى يحيط بها حزام من المناطق العشـوائية يبلغ عددها ٨٠ منطقة يسـكن فيها – كما ذكرت مجلة أكتوبر – حوالى ٣,١٢ مليون نسمة مما يربو على خمس عدد سكان عشـوائيات مصر، فالقاهرة الكبرى وحدها تستحوذ على ٥٣,٢٪ من سـكان العشوائيات ويمثلون ٣,٨٨٪ من عدد السكان. هذا إلى غيرها من العشـوائيات المنتشـرة فى شمال القاهرة الكبرى مثل شـبرا الخيمة

وعين شمس ودار السلام والبساتين وحلوان ومنشأة ناصر والفسطاط واسطبل عنتر وحكر أبو دومة.

* * *

وقد تضاعفت مساحة العشوائيات بالقاهرة الكبرى ١٨ مرة منذ عام ١٩٥٠م من ٦.٦ كم إلى ١٩.٥ كم عام ٢٠٠٦م.

* * *

وتجيء مدينة الثغر – الإسكندرية – التى تحولت إلى حال مزر من الفوضى، بتراكم العشوائيات.. هذه المدينة التى كانت الأنظار تنظر إليها بعين الرضا والإعجاب.. وهاهوذا «إدوارد لين» الرحالة الإنجليزى الذى أبحر إليها. منذ ما يزيد على قرن من الزمان، يتحدث عنها فيما دونه من مذكرات، ذاكرًا إياها «بأنها المدينة التى تجمع بين الجمال، والإجلال» فهى – ولاشك – كانت ذات زمن بعيد قريب «عروس البحر الأبيض المتوسط»، وكذلك ذكر غيره من الرحالة الذين شدوا رحالهم إلى هذه المدينة التاريخية ذات الجمال الرائق الفائق.

* * *

فتنطق الإحصاءات الرسمية أنها تضم ٣٤ منطقة عشوائية. والواقع يقول إنها تزيد على الخمسين منطقة، تنتشر فى طول المدينة وعرضها، من شرق الإسكندرية وحتى غربها وأشهر عشوائياتها (الطوبجية وشارع الرحمة وكوم الملح ونجع العرب وعزب خورشيد والمساكن الصينية، وعزبة العرب، وعزبة محسن والدخيلة... الجبلية وغيرها. والإسكندرية نموذج صارخ للمدن التى تنقسم إلى شمال وجنوب، شمال غنى وراقٍ ومتطور،

وجنـوب فقير ومتدهور فى كل شـىء، ينطق بالفقر والجهل والمرض. هذا الثالوث المدمر الذى كان سببًا رئيسًا فى تخلف مصر بأكملها. وأضيف إلى هذا الثلاثى الشـهير احتراف البلطجة والعنف واقتراف الجريمة فى هذه المناطق العشـوائية التى لا تمت بأدنى صلـة إلى الآدمية. ناهيك عن أنها تحولت بموضعها الحالى إلى بؤر تفريخ، كل ما لا يمت إلى الإنسانية بصلة.

* * *

ولقـد جال محررو أكتوبر وصالوا، بين أرجاء العشـوائيات الضاربة الأطناب على هذه المدينة التاريخية.

أين جالوا؟.. وأين صالوا؟.. بين الثعابين السـامة.. والفئران الناقلة لمرض الطاعون ذلك المرض الذى كاد أن يفتك بشـعب مصر ذات يوم.. ناهيك عن الحيوانات الضالة والحشـرات التى تنهش فى أجساد سكان هذه العشوائيات التى يقيم فيها أهالى الغلبونى وكوم الملح، وذلك بالرغم مـن أثرية هذه المنطقة التى تحوى بـين جنباتها (الجبانة الجماعية).. الأقـدم من نوعها فى العالم إذ يمتد عمرها إلى ما قبل الجبانة الجماعية فـى إيطاليا.. فلا مياه صالحة للشـرب.. ولا وجود للصرف الصحى.. ولا شـوارع مرصوفـة ومع ذلك يلهـو فيها الأطفـال؟!.. أين يلهون؟! بـين تلال القمامة. وبماذا يتلهـون؟! يتلهون باللعب بعظام الحيوانات النافقة؟! وأضف إلى هاتين المنطقتين منطقة حى غرب الإسكندرية التى تنحصر بين خط السكة الحديد فى الشمال وبحيرة مريوط فى الجنوب، بيوتها خليط بين البيوت والعشـش. المدرسة الوحيدة الموجودة بها هى غارقة طوال الوقت فى مياه الصرف الصحى والمياه الجوفية.

* * *

أما منطقة طلمبات المكس والتى يطلق عليها فينيسيا المكس.. فيغشى عليها من الغرق مما يشكل خطرًا على أهلها، وحدا ذلك بسكانها إلى أن يلتمسوا نقلهم إلى منطقة أخرى.

أما الدخيلة الجبلية فتحولت إلى محاجر، ثم بدأ الزحف السكانى إليها - بشكل عشوائى - من المهاجرين من المحافظات الريفية. ومن المألوف أن ترى العين الطابق الأرضى بها يوازى الطابق الثالث فى منزل مقابل لهم.. وكذلك الأمر فى منطقة المحاجر والمساكن الصينية التى تمتد من منطقة الهانوفيل بالعجمى إلى الكيلو ٢٦ بالساحل الشمالى ويطلق عليها الأهلون دويقة الإسكندرية وخاصة منطقة المساكن الصينية، والتى بنيت أعلى الهضبة الموجودة بها مما يهدد بانهيارها، وينسحب هذا على مناطق فرعية هى خورشيد البحرية، وعزبة النخل، وزغلول، وعزبة الرحمة، وعزبة الخليفة، والزوايدة.

* * *

ولقد شهد شاهد من أهلها - أهل الثغر - أن بعض هذه المناطق تحتوى على حالات مأساوية بكل المقاييس فقد رأى - بأم عينه - أسرة من ثمانية أفراد تعيش فى حجرة واحدة وبدون دورة مياه، كما رأى - فى إحدى العزب الملاصقة لمنطقة سموحة الراقية - الناس تقف فى طابور للدخول إلى دورة مياه عمومية، وعشوائيات ليس بها حتى صنبور مياه عمومى للشرب، كما أبصر أشخاصًا ينامون فوق بلاعات الصرف الصحى.

* * *

وتأتى القليوبية - ثالثة الأثافى؛ إذ يوجد بها ٦٣ منطقة عشوائية

موزعة علـى جميع مدن المحافظة، وحاولت الحكومة تحسـين بعض المناطق منذ عام ١٩٩٤م إلا إنها لم تتحسن؟!

* * *

إن المناطق العشوائية قنبلة موقوتة؛ فقاطنى هذه المناطق يشعرون بالغبن والظلم سـواء من الناحية الاجتماعية أو الثقافية أو الاقتصادية، لذا يجب أن تكون مشـكلة العشـوائيات هـى الأولويـة الأولى؛ لأن وجود مواطنين يعيشون فى مناطق المقابر هو وصمة عار لكل مصرى يغار على وطنه، ومن ثم يجب أن يتم التنسـيق بين الدولة والمجتمع المدنى لحل المشكلة؛ لأننا نعيش على سدس مساحة مصر ولا نستغل المساحات الشاسعة لحل مشكلة العشـوائيات وبناء مجتمعات عمرانية جديدة تكون بمثابة نقطة تحول فى هذه الأزمة السرطانية التى استفحلت حتى بلغت الذرا.

* * *

وقد أكدت دراسـة المركـز المصرى لحقوق السـكن أن هناك حاجة لتوفير ٥ ملايين وحدة سـكنية لاسـتيعاب الزيادة السكانية المتوقعة فى مصر حتى عام ٢٠٢٠م، وتقدر التكلفة الإجمالية لهذه الوحدات بحوالى ١٧ مليار جنيه، وأشـارت الدراسة إلى أن الدولة غير قادرة على تحقيق هذا؛ مما يؤدى إلى زيادة انتشار سكن العشوائيات، وهى السبيل الوحيد أمام محدودى الدخل.

* * *

ونرى – مع من يرى – أن هذه المشـكلة (مشـكلة العشوائيات) التى تفاقم خطرها حتى أمسى خطرًا داهمًا لا حل لها إلا بما هو آت:

- وجـوب تضافر الجهود للقضاء على مشـاكل العشـوائيات من خلال مشـاركة مؤسسات المجتمع المدنى، وخاصة الشباب لتحديد جداول زمنية للمخطط الشامل لتطوير القاهرة على المدى البعيد.

ويرى الثقات أنه يجب التعامل مع هذه المشكلة عبر محاور أربعة:

- **المحـور الأول:** هو التعامل مـع مناطق الخطورة الداهمة التى تهدد حياة المواطنين من خلال التنسـيق مع وزارة الإسـكان لتوفير مساكن جديدة، وتقوم المحافظة بإعادة تسكين المواطنين فى وحدات سكنية كاملة المرافق والخدمات.
- **والمحـور الثانى:** فهو التعامل مع العشـوائيات شـبه الآمنة التى تنقصهـا المرافـق والخدمات، حيـث تعمل المحافظة علـى تطوير شبكات المرافق.
- **والمحور الثالث:** إعادة تأهيل المواطنين بالمناطق العشوائية، وإيجاد فرص عمل مناسبة لهم.
- **أمـا المحور الرابع:** هو محاولة إغلاق باب الهجرة من المحافظات الأخرى إلى القاهرة، نظرا لأن غالبية المواطنين القاطنين فى العشوائيات قد وفدوا من محافظات أخرى.

وقد برزت على سـطح فرنسـا مشـكلة الهجرة كما هـو الحال فى العشـوائيات السـابقة فى منطقتى الألزاس واللورين ونجحت فرنسا فى وصد الباب فى وجوه النازحين منهما أو إليهما بضمهما إلى فرنسـا بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها.

ويـرى البعض وجوب إنشـاء مراكز عمرانيـة إنتاجية فى مجالات الزراعـة الحديثة والصناعات الصغيرة والمتوسـطة والحرف اليدوية فى

مواقع أخرى خارج الوادى والدلتا لاستقطاب الأجيال الشابة. وتنفيذ برامج تدريب وتأهيل القاعدة البشرية فى المناطق المهمشة والمحرومة للعمل فى مشروعات التنمية فى المجتمع الجديد، وإحداث الهجرة العكسية فى اتجاه مواقع التنمية المستهدفة، وإطلاق مبادرة لمجابهة عشوائيات العمران من خلال التطرق إلى أعماق المشكلة. فلا يجب الاكتفاء بتوفير السكن والمرافق للمواطنين.. بل العمل على تجفيف منابع المشكلة.

* * *

ومن نافلة القول أن نتساءل: أين دور رجال الأعمال والأغنياء فى المساهمة فى تطوير العشوائيات؟.. أولئك الذين أثروا بسبب أو بدون سبب؟!

إن الله سبحانه وتعالى قد حرم الظلم على نفسه. فالإنسان المظلوم حين يخلد إلى فراشه ويخلو إلى نفسه يشعر بجرح غائر فى صدره ينزف أسى ولوعة يئن من وطأة الظلم وأفول شمس الحق. فالحق قديم قدم البشرية ذاتها، ألم يقل سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): «إن الحق قديم والحق هو العدل» ومن ثم يجب تطبيق مبدأ العدل على جميع مواطنى الدولة بلا استثناء.. ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ كما قال الله تعالى.

* * *

وإقرار العدل ينبغى أن يسود فى كل شىء وفى جميع مناحى الحياة. ومن العدل أن يشارك هؤلاء الأثرياء المصريين الذين تكومت ثرواتهم بالبلايين وليس الملايين.. التى كدسوها فى الداخل والخارج، ورقدوا عليها حتى تبيض لهم ملايين أخرى؟!.. أليس من العدل أن يشارك هؤلاء فى إزالة هذه العشوائيات وبناء مساكن أخرى عليها؟!

إننـــى أدعوهم إلى أن يســـتفتوا قلوبهم وأن يخاطبـــوا ضمائرهم. هل يرضون بمثل هاتيك العشوائيات على ثرى بلادهم؟!

قال عليه الصلاة والسلام: [استفت قلبك. البر ما اطمأنت إليه النفس واطمـــأن إليه القلب، والإثم ما حاك فـــى النفس وتردد فى الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك].

لقـــد هام هؤلاء القوم بالمـــال حبًا جما وعضوا عليـــه بنواجذهم، مع حرص بالغ وشَرَه فى جمعه دون أن يساعدوا وطنهم وأبناء جلدتهم فى حل مشـــكلاتهم، ومن ثم نرى أن تفـــرض عليهم الدولة ضريبة تجبرهم على مد يد العون لخمســـة عشـــر مليونًا من البشـــر الذين يعيشون عيشة ضنكًا متقوقعين داخل هاتيك العشـــوائيات، الموت فيها أحب إليهم من الحيـــاة، فالذى لا يأتى بالقرآن يأتى بالســـلطان. فالمال مال الله، ومن ثم؛ فيجب أن ينفقوا مما آتاهم الله. ألم يقل الله تعالى فى كتابه الكريم: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [سورة النور: الآية ٣٣].

* * *

ومن العجـــب العجاب أن قاطنى هذه العشـــوائيات يرفضون النزوح منها مع ما يتربص بهم من موت زؤام. فقد اتخذوا هاتيك العشـــوائيات أوكارًا ينطلقـــون منهـــا لاقتراف أنواع الجرائم المتباينـــة بعيدًا عن عيون رجال الأمن، ومن المأمول أن تعمل الدولة جاهدة على ترحيلهم من هذه الأماكـــن المأبونة حتى ولو بالقوة الجبرية – عند الاقتضاء – حفاظًا على حياتهم وأرواحهم. وترحيلهم إلى أماكن أخرى تقيمها الدولة لهم.

* * *

وفى هذا الصدد يقول «جول سيمون» العضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى كتابه القيم «الواجب» – الذى ترجم من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية وكأنه يتكلم عن قاطنى العشوائيات:

«لو أن رجلًا تخطى إفريز الجسر، وألقى بنفسه فى الماء، وفى الوقت نفسه أقبل رجل آخر لإنقاذه لكان من النادر جدًا أن يرفض الحياة التى يأتيه بها منقذه، فمجاورته للموت ترده أشد حبًا للحياة، فيتغير أمامه كل شىء حين يعتقد أنه فقد كل شىء»، وهكذا يفعل أصحاب العشوائيات الذين ينتظر الكثير منهم ما عنون به القاضى التنوخى «فى كتابه الموسوم باسم» الفرج بعد الشدة.. فالليل يدبر والنهار يسفر وهم على حالهم المكفهر المربد الوجه لهم دائمًا.

* * *

يقول «لويس ممفورد» فى كتابه الرائع: «المدينة على مر العصور أو المدينة فى التاريخ» city in history: إن مثل ما يحدث فى العشوائيات فى مصر وغيرها من مدن العالم لهو دليل على انهيار المدينة ومواتها.

ومن هنا أصبح من الحتمى على الدولة إحساسها بالعدل، والإحساس بالعدل – كما اعتقد فيلسوف القرن السابع عشر «توماس هوبز» – هو الذى يميز البشر أن تزيل هذه العشوائيات، وكسر طوق العزلة التى يعيشها أبناء هذه المناطق التى أمست خرابًا يبابًا، وأن تفتح الأبواب المغلقة أمامهم ليكون فى مكنتهم أن يتنفسوا الصعداء.

فلقد ظهرت أجيال جديدة من قاطنى العشوائيات منبتة الصلة علميًا وثقافيًا وحضاريًا.. بل ووطنية – عن الوطن الأم الذى لم يرنو إليهم بنظرة حدب أو عطف أو حنان.. حتى وصل الأمر بهم إلى السقوط فى بئر الحرمان.

فلا يجب أن يقسم أبناء مصر كما عبر فيلسوف المعرة «أبو العلاء المعرى» إلى صاهل «الحصان».. وشاحج «الحمار» يحيون جميعًا فى كنف أمهم مصر.

* * *

مما يذكر بمداد الفخر أن الخديوى إسماعيل قرر أن يجعل من مدينة القاهرة قطعة من أوربا ولم تفتر همته طوال فترة حكمه (١٨٦٣م – ١٨٧٩م) عن تنفيذ ما حلم به واشرأبت عنقه إليه، فاجتهد حثيثًا على إنشاء دار الأوبرا وشق الشوارع الفسيحة وحلت الأحياء الجديدة محل الخرابات والمستنقعات وعمل على إضاءة مدينة القاهرة التى سبقت العالم العربى فى هذا الخصوص. وعلى توصيل مياه الشرب النظيفة إلى المنازل. وتشييد الأبنية العلمية والثقافية، ومد الجسور التى عبرت النيل. وجنبًا إلى جنب تحديث التعليم ناهيك عن تحديث المدينة؛ مما جعل القاهرة مجلى من مجالى العمارة والتخطيط الباريسى الأخاذ.

فكانت مدرسة السنية هى المدرسة الأولى لتعليم البنات، وكان التعليم آنذاك يسير جنب إلى جنب تحديث المدينة والنهوض بها.

وعمل «على مبارك» – فى ذات الفترة – على تخطيط المدينة على أجمل وجه بتوجيه من الخديوى إسماعيل ودون ذلك فى كتابه «الخطط التوفيقية».

ألا نستطيع أن نسير على منهج هذا الخديوى الأريب اللبيب وزميله العلامة «على مبارك» وأن نمحو هذه العشوائيات التى أضحت – كما أسلفنا القول – مراكز قلقة للزلازل الاجتماعية والبراكين التى تقذف بحممها بين الحين والحين.. وكأنها «بركان فيزوف»، إنقاذًا لشعب العشوائيات الذى فاق تعداده الخمسة عشر مليونا من البشر يسكنون القبور.. فى ظلام يبعدهم تماما عن مراكز النور.

وإذا كان صحيحًا – كما كان الأستاذ «العقاد» يرى – أن الحشرات هى مسودة الإنسان فهاهوذا مجتمع النمل يمثل مسودة سكان العشوائيات. فعلماء الحشرات قد أثبتوا أن النملة إذا ما أقدمت على نقل قطعة تراب إلى قبة العش – بالمصادفة – فلا تلبث زميلاتها أن يفعلن فعلها. ومثل هذا يحدث فى العشوائيات. فكل فرد فيها يفعل ما يفعله الآخرون فى طريقة معيشته ونمط تفكيره وتشبثه بالأرض التى نما عليها.. حتى ولو بعد أن أتى عليها الحدثان وجار عليها الزمان.

* * *

الذى لا محيص منه ولا معدى عنه – أن الدولة لابد وأن تعمل حثيثًا على إزالة وصمة العشوائيات من على جبين الوطن. هذه الوصمة التى توصم مصر بوصمة التخلف الحضارى. والتى نحيناها جانبًا من تفكيرنا. فأصابت مصر بضجيجها و عجيجها وروعت الوطن بأكمله بقبوحها بعد أن أصبحت ذات حول وطول، فضاقت الصدور بها سواء القابعين فيها أم النائين عنها؛ حتى نرأب صدع الوطن.. هذا الصدع الذى أصاب الوطن فى مكمنه. ولن تذهب الجهود المرجوة فى هذا الصدد أدراج الرياح فهذه العشوائيات التى ضلت الطريق إلى وطنها. وأمست تمسك بخناقه – تهدد مصر بأكملها بالقذف بها فى أتون الجريمة. وهذا هو الخسران المبين.

إن مصر وقد أضحت بعد ثورتها المجيدة – تشعر بالتحنان لماضيها التليد ومستقبلها – إن شاء الله المجيد – حتى تعود إلى سابق مكانتها بحسنها وبهائها.. يوم أن كانت زينة الأوطان ومفخرة العصر والأوان.

قال الله تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٥].

* * *

مشكلة العولمة

مـن نافلة القول أن نقـول مع القائلين: إن رجل القانون هو مهندس المدنية «The law is a social engineering».

ويذهب العلماء إلى أنه إذا كانت أمريكا قد تقدمت وبلغت هذه المرحلة من القـوة فإن ذلك يعود بالضـرورة إلى الاهتمام بالجوانـب القانونية. ويكفـى للدلالة على ذلك أن مجلس الشـيوخ الأمريكـى يتكون من ٩٩ عضوا منهم ٩٦ من تخصصات قانونية وخريجى أعرق الجامعات.. وهم ذاتهم الذين يهندسون الحياة فيها.

فمـن هنا نبـدأ؛ إذ إن هناك تحد جد كبير يقابلنـا هذه الأيام وهو النظـام العالمى الجديد والنزعة نحو التحرر أطلق عليه اصطلاح (العولمة) التى عرفها Reberston عام ١٩٩٢م بأنها نوع من دمج العالم وتكثيف الوعى بالعالم ككل.

ولـا تزل العولمة ومازالت تشـق طريقها بسـرعة فائقة نحو أهدافها المحددة وقمين بدارس القانون أن يرصد هذه الظاهرة ويتناولها بالتحليل.

والعولمة ليسـت ظاهرة اقتصادية فقط ولكنها ظاهرة قانونية وسياسية فهـى ترتكز على هذه المراكز مجتمعة والمهيمنة عليها والتى من شـأنها السيطرة على واقع المجتمع ومستقبله.

فظاهرة العولمة الزاحفة تخطط لغزو كل المجالات، وتسـعى لبسـط نفوذهـا على كل المداخـل والمخارج فى العالم العربـى، وأضحت هذه الظاهرة باسطة ذراعيها ومهيمنة على كل قضايانا ومستقبلنا الاقتصادى

الـذى أصبح يتحـدد ويتقيد بموجب اتفاقات وأبحـاث وحصار منظمة التجـارة العالمية وحيث مصير الأمة السياسـى يصاغ تحت تهديد هذه الظاهـرة وضغوطها وقوانينها التى تخاطب المجتمعات وترضخها فكريًا لمفاهيم العولمة، ولما تفرضه عليها من التزامات.

ومما لاشـك فيه أن ظاهرة العولمة ولما تزل تثير سلاسـل متصلة من الأسئلة التى تبدو الإجابة عليها غير مأمونة العواقب لأنها تنهض على أسـاس من التحليل الاسـتباقى لنتائج ظاهرة لم تكتمل ملامحها بعد.. فما هى العولمة؟!

هى جعل الشىء على مستوى عالمى.

والعولمة هى مصدر لفعل (عولم) المشتق من كلمة (عالم).

يرى البعض أن مصطلح العولمة متداخل مع بعض المفاهيم الأخرى من بينها (الكوكبية) (والكونية).

وفى رأى هذا الفريق أن الترجمة الصحيحة للاسم الإنجليزى للظاهرة وهو «Globalization» والمشـتق من «Globe» بمعنى الكرة ويقصد بها هذه الكرة الأرضية الكوكب الذى نعيش على سـطحه مقابل العالم وهو «world»، والكون «Universe»، وكلمة العالم تعنى البشـرية والنسبة إليها توحى بمشاركة الناس جميعًا فى انتظار الظاهرة محل الدراسة.

ويذهـب آخرون إلى أن العولمة علـى وزن (الفوعلة) ترجمة للمصطلح الإنجليزى السـابق ذكـره أوالمصطلح الفرنسـى «mondialisation»، أوهـى كما يـرى آخرون على وزن (قولبة)، وثم مـن ترجم هذه الكلمة (العولمة) (Global village).

والعولمة كما نراها هى اخـتراق ثقافات الأمم الواهنة، ومحو هويتها

وإحداث خلل فى دينها وحضاراتها، وهى نظام يقوم على العقل الإلكترونى والثروة المعلوماتية والإبداع التقنى دون أى اعتبار للدين أو الحضارة أو الحدود الجغرافية والسياسية القائمة فى العالم.

وفى كلمة فاهت بها وزيرة خارجية الولايات المتحدة الأمريكية السابقة قالت: «إن أمر قيادة العالم بلا منازع هو من نصيب أمريكا وعلى جميع دول العالم أن تدرك أننا لو أردنا إحداث أى تغيير فإننا لا بد وأن نفعله».

ويتجه فريق ثالث إلى اعتناق الرأى بأن «العولمة» هى واحدة من ثلاث كلمات عربية جرى طرحها للمصطلح الإنجليزى والكلمتان الأخريان هما «الكوكبة» و «الكونية».

أما العولمة فى اللسان العربى «فهى من العالم» تتناول فئة أخرى فى مجال تعريف العولمة وهى من محاولة النظرية التى قام بها «جميس روزنا» أبرز علماء السياسة الأمريكية وهو كذلك من المبكرين الذين وضعوا تعريفًا كاملًا وجاهزًا يلائم التنوع الضخم لهذه الظاهرة المتعددة الجوانب.

وفى الحقيقة فإن حدود وسائل الاتصال فى العولمة ترتد إلى الماضى على الرغم من أن الأقمار الصناعية والتكنولوجيا الرقمية والطائرات قد قربت المسافات وأدت إلى جعل العالم قرية صغيرة في الأربعة عقود الأخيرة الذى كان قد تقلص بالفعل منذ وقت مضى وأضحى عالما صغيرًا بعد أن ضاقت رقعته.

ففى القرن التاسع عشر بدأت الرحلات التجارية والتلغراف والغواصات فى تحطيم المسافات، كما استطاعت بعض المخترعات الأخرى فى القرن الخامس عشر مثل البوصلة أن تحيل بعض الرحلات الاستكشافية أمرًا ممكنًا، لذا ليس ثمة مبرر لاستئصال العولمة المعاصرة عن تاريخها بتعريفها على أنها عملية حديثة.

والعولمة بالمعنى العام تشـير إلى العمليات المتباينة للتداخلات المعقدة بين المجتمعات، والثقافات والمؤسسات والأفراد على مستوى العالم.

ويقول «روبرتسـون Robertson»: إن العولمة تشير إلى النظام العالمى الكلى، والحالة البشرية العالمية.

وتؤكد فئة أخرى من العلماء أن العولمة بمفهوم مبسط تعنى اعتماد كل دولة على الدول الأخرى واستحالة انفصالها عنها، وعجزها عن تطبيق سياسـة الانغلاق على نفسـها أو بعبارة أخرى: اختصار نزعة توفيقية تسعى إلى توحيد كل أقطار كوكب الأرض فى منطقة واحدة على أساس مثلث أضلاعه هى:

«الاقتصاد والتقدم العلمى، والتقدم التكنولوجى».

وبمعنى آخر: فإن هذه العولمة تؤدى إلى ربط العالم كله بشبكة تحقيق مصالح الكبار تحت سـتار مفاهيم إنسـانية لامعة خاصة. فهى اختراع غربـى و أمريكى يظهر فى صورة براقـة ويبطن فى داخله حقيقة مرة، فهو النموذج الجديد للهيمنة والسيطرة.

وحيـث يفرض الإطار المعرفى والثقافى الغربـى على العالم النامى، محاولة افتراس الخصوصية الحضارية للشعوب المختلفة، فهى – وحيث تـرى أمريـكا – يجب أن تفرض على جميع الدول من حيث إن أمريكا هـذه تـرى أنها الدولة التى تحمل راية الحضـارة وأن مصير العالم كله مرهون بها، ويؤول إلى حضارة واحدة هى الحضارة الأمريكية.

تنقسـم العولمة إلى العولمة الاقتصادية، والعولمة السياسـية، والعولمة الثقافية، والعولمة التكنولوجية، والعولمة المالية.

كمـا أنهـا من حيث إنها عولمـة فإنها تتفرع – أيضًـا – إلى العولمة البيئية والعولمة الجغرافية والعولمة السيسولوجية.

وأخـيرًا وليس آخـرًا ارتأى فريق آخر أن العولـمة هى عولمة أدوات الإنتـاج والاقتصاد الحر الـذى تجاوز حدود المكان مع براعة متيقنة فى إيجاد فنون التسـويق وتغليب قيم ثقافة الاسـتهلاك على حسـاب قيم أخرى.

ومن ثم فإنه – وكما نرى – وبهذه المثابة – فإن الرأسماليين أصحاب الثراء الفاحش سيزدادون عددًا على حساب الفقراء الذين سيزدادون فقرًا.

ويمكـن تحديد ثقافة الاسـتهلاك على أنها جماع أسـاليب الحياة ومعانيها ورموزها، وثقافة الاستهلاك «Consumer Culture» هى تلك الجوانـب المصاحبة للعملية الاسـتهلاكية التى تدفع الأفـراد دفعًا إلى الاسـتهلاك والركض خلفه بصرف النظر عما ينتج عن ذلك من أضرار، فهـى تحول المواطنين تدريجيًـا إلى أفراد ذوى مصلحـة ومن أفراد إلى مستهلكين ثم تحول إلى أطفال وتحول الأطفال إلى مستهلكين.

ولما يزل الفكر العربى بعيدًا عن المفهوم والمضمون الصحيح للعولمة فهو يعيش فى حالة من التشويش الفكرى والبعد عن جوهر هذه الظاهرة غير واضحة المعالم.

ويحـاول بعض كتـاب العرب التأكيد علـى أن العولمة ظاهرة قديمة عرفهـا القدماء المصريون والإغريق والرومان كما أنها كانت موجودة منذ زمن الفتوحات الإسلامية.

والحقيقة – التى لا مشـاحة فيها – أن هذا تسـطيح للأمور وتبسيط مخل لها.

وها هـو ذا «هنجتون» صاحب كتاب صـراع الحضارات – يرى وهو من أشـد الناس المنتمين إلى العولـمة – أن الصراع القائم هو بين الغرب والإسلام.

وهذا الأمر أكده الرئيس السابق «جورج بوش» الذى رآه الكثيرون أسوأ رئيس شهدته الولايات المتحدة الأمريكية فقد عقب على أحداث يوم الثلاثاء الأسود ١١ سبتمر ٢٠٠١م واصفًا الاعتداء على برجى مركز التجارة العالمى بأنه حرب صليبية جديدة. ويؤيده فى ذلك الإسرائيلى «شيمون بيريز».

انظروا معى كيف أساء من يدعى «توماس فريد مان» إلى العرب والإسلام فى مقال له معنونًا باسم: الدفع بالعولمة فى أرض المصاعد والصلوات، وقد نشر هذا المقال فى نيويورك تايمز «New York Times» بتاريخ ٢٠٠٠/١/٢٩م قال فيه:

«كنت فى زيارة لوزير الاقتصاد المصرى الدكتور يوسف بطرس غالى خريج (معهد ماساتشوستس للتقنية Massachusetts Institute of Technology) الذى يدفع بالعولمة ويعزز لارتباط مصر بها - فعندما دخلت إلى مبنى الوزارة بالقاهرة وجدت عامل المصعد وهو فلاح مصرى فى انتظارى؛ حيث قام بفتح باب المصعد بالمفتاح الذى بيده فإنه قبل أن يستعمل هذا المفتاح ليصحبنى إلى مكتب الوزير بالطابق العلوى راح يتلو آية من القرآن الكريم.. فتعجبت كيف لهذا الفلاح المصرى أن يتلو فى مبنى عصرى آية من آيات القرآن وهو ينقل ضيف الوزير إلى الطابق العلوى؟!».

ويردف "فريد مان" قائلاً: «هذا هو التناقض بين وزير الاقتصاد المصرى الذى يمثل مستوى علمى رفيع وبين عامل المصعد الذى ينطق بصلاة قبل أن يقودنى إلى حيث كنت ذاهب».

هذا هو أحد فلاسفة العولمة.. وهذا هو قوله بلسانه الذى يدمغه بالتعصب ضد الأديان.

وقد طالبت توصيات مؤتمرات السكان بحق المرأة والفتاة فى التمتع بحرية جنسية آمنة وكاملة مع من تشاء، وفى أى وقت أو فى أى سن تشاء، وليس بالضرورة فى إطار الزواج الشرعى بل فى مستنقع الإباحية الجنسية، مع إلزام جميع دول العالم بالموافقة على ذلك مع وجوب سن القوانين التى تعاقب كل من يقترب أو يقف فى وجه هذه الحرية.. حتى لو كان المعترض هما الوالدان.

كما تطالب الوثيقة الحكومات بالاهتمام لتربية الحاجات التثقيفية والخدمية للمراهقين ليتمكنوا من معالجة الجانب الجنسى فى حياتهم دون إدانة لما قد ينتج عن هذا الحمل السفاح. فالوثيقة تدعو إلى سن قوانين للتعامل مع هذا الحمل حتى تكون - طبقًا لهذه الوثيقة - بعيدًا عن المساءلة حول حملها بغير زوج، ثم تخير الفتاة بين رغبتها فى الإجهاض أو إن هى شاءت فتبقى عليه، مع إلزام السلطات برعايتها الاجتماعية كاملة. وإن هى تنكبت ذلك تدفع به لدور الرعاية وينسب الولد إلى أمه.

ولا تتحدث التوصيات عن الزواج من حيث إنه رباط شرعى يجمع بين الرجل والمرأة فى إطار دينى، ورباط اجتماعى سليم، فهى ترى أن الزواج المبكر يعوق المرأة، ومن ثم يتحتم رفع سن الزواج مع تحريم الزواج المبكر.

وأما كلمة الزوج فقد أنكرتها الوثيقة تمامًا وداست عليها بقدميها - إن كان لها من قدم - وأسمت هذه العملية الجنسية القميئة التى تنكرها الأديان السماوية، بل وغير السماوية. (الاغتصاب الزوجى).

وقد جاء فى هذه الوثيقة كلمة (Partner) أى الزميل أو الشريك فى هذه العلاقة المحرمة من حيث إنها إحدى حقوق الطرفين.

كذلك خلت الوثيقة من كلمة الوالدين فعبرت عنهما بالعبارة الآتية: «كل من تقع عليه مسئولية قانونية» فى إشارة منها إلى مختلف الأسر المثلية (ذكر وذكر) (أنثى وأنثى) (أو حتى الشواذ) لأن الوثيقة تعترف بهذه الأسر المثلية.

وتستخدم الوثيقة كلمة (المساواة) للتعبير عن إزالة الاختلافات بين الرجل والمرأة حتى ولو كانت اختلافات بيولوجية.

وهذا الذى سبق ذكره وبيانه هو أحد روافد العولمة.

ومن العجب أن هذه الوثيقة قد طالبت بفرض سياسة تحديد النسل (وليس تنظيمه) فى ثلاث عشرة دولة من دول العالم الثالث، تشكل الدول الإسلامية نسبة منها تبلغ ٩٠٪ من هاتيك الدول.

ومن عجب أشد أن وزير خارجية أمريكا السابق اعتبر أن الذى يدعو إلى التنمية الاقتصادية حالاً للمشكلة السكانية هو أحد أعداء أمريكا ويهدد الأمن القومى الأمريكى.

وجاءت أوربا بحال يتكافأ فى السيئات بينها وبين أمريكا، فقد ورد فى نشرة للأمم المتحدة – صدرت فى عام ١٩٨٩م – تحت عنوان «سكان العالم فى بداية القرن» حوت فى طياتها تقريرًا عن موقع أوربا على الخريطة السكانية العالمية جاء فيه:

«إن أوربا تذوب الآن كالجليد تحت الشمس، حيث إن سكان القارة كانوا يمثلون ١٥,٦ ٪ فقط من سكان العالم عام ١٩٥٠م فتراجعت هذه النسبة عام ١٩٨٥م إلى ١٠,٢٪ فقط من سكان العالم سوف تصل عام ٢٠٢٥م إلى ٦,٤٪ لا غير».

وأن هذا النقص السكانى فى أوربا يقابله زيادة سكانية فى القارة الإفريقية لاسيما البلاد الإسلامية مثل الجزائر والمغرب والسودان ومصر.

ومن ثم فقد رأت هذه النشـــرة أن أوربا تواجه فى المســتقبل القريب خطر الأســلمة (أو الأفرقة) جــراء هذا الزحف القــادم من الجنوب إلى الشمال.

وانظــروا كيف تفعل العولمة فيمن يعتنقهــا؟، وكيف أثبت القائمون عليها أنهم قد انســلخوا عن حظيرة دينهم وتردوا فى هوة ســحيقة إلى الكفر والإلحاد؟!

ففى الدراسات العديدة التى صدرت عن أشهر ثلاثة باحثين أمريكيين وهم: (كنزى، وجونسون، وماستر) قد قرروا فى أبحاثهم هذه أن ٥٠٪ من الذكور الذين تمت دراسة حالتهم قد مارسوا الجنسية المثلية.

كمــا أكدت دراســات أخــرى أن مليون ونصف المليــون امرأة وفتاة يمارسن السحاق.

وهكــذا وقعت أوربا فيما هوت فيه أمريكا من الانزلاق إلى التســيب والفجور بمخالفتهم لدينهم ولكل التشريعات والرسالات السماوية.

وهــاك ثانية الأســافى فقد تضمن المشــروع الذى قدمتــه هيئة الأمم المتحدة لمؤتمر السكان والتنمية الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٩٤م أنه:

«يلــزم بذل جهود خاصة فى مجال التعليم والإعلام للتشــجيع على معاملــة البنات والأولاد على قدم المســاواة فيما يتعلق بالتغذية والرعاية الصحية، وحقوق الميراث، والتعليم، والنشاط الاجتماعى، والاقتصادى، والسياسى».

كما دعت الاتفاقية إلى تغيير شــكل الأسرة خلافًا لما دعا إليه الإسلام والرســالات الإســلامية الأخرى، فألزمت وضع سياسات وقوانين تأخذ فى الاعتبار تعددية أشــكال الأســرة... وعلى تشجيع الاعتراف بالأسر

التى تتكون خارج الإطار الشرعى سواء أكانت بين رجل وامرأة بدون زواج، أو بين رجلين كما هو موجود فى بلاد الغرب.. أو حتى بين امرأتين.

وتجىء ثالثة الأسافى، فقد دعت الاتفاقية إلى رفع ولاية الآباء عن أبنائهم إذ طالبت بدعم وتوجيه الوالدين لأولادهما فيما يتعلق باستعمالهم للخدمات السابق ذكرها.

أما الرابعة، فقد أقرت الزنا، ودعت إلى الدعوة إلى إلغاء القوانين التى تحد من ممارسة النشاط الجنسى، فقد جاء فى الفقرتين السابعة والثامنة منها - مؤتمر السكان والتنمية - أنه ينبغى على الحكومات أن تسهل على الأزواج تحمل المسئولية.. وإزالة ما لا لزوم له من عوائق قانونية أو تنظيمية تقف فى وجه هذا.

أما الخامسة.. فقد أباحت الإجهاض، فقد نصت على:

«إنه ينبغى أن تكون برامج الرعاية الصحية التناسلية والجنسية مصممة لتلبية احتياجات المرأة والفتاة والمراهقة».

ويطول الحديث عن هذا الأمر حول هذه الدعوة السوداء.

ولا جَرَمَ أن نقول إن العولمة تهدف إلى تسويق النموذج المدنى الغربى فى امتداده المادى والرأسمالى الذى يرتكز على النمو الاقتصادى، والتقنى، والعلمى، فهى بجبروتها، وغطرستها، وشهوة سيطرتها قادرة تمامًا على العمل خارج حدودها من خلال العولمة الاقتصادية، والسياسية، والثقافية، وعولمة اللغة التى هى مفتاح الثقة، والتربية، والتعليم، والحضارة، وإذاعة مصطلحاتها، ووعاء إنتاجها الثقافى.

وهى - وإن كانت محرضًا حضاريًا ومنبهًا ثقافيًا إلا إنها تحمل فى ثناياها الشر الوبيل.

وقد دعا العلماء والباحثون إلى وجوب تكاتف الدول العربية والإسلامية والعمل على إنشاء السوق العربية، وكذلك السوق الإسلامى لمواجهة زحف العولمة إلينا، التى تريد أن تشل إرادتنا وأن تضيع هويتنا. وأن تهين كرامتنا فى أعز ما نمتلكه وهو ديننا الحنيف.

قال الشاعر:

ولا يقيم على خيم يراد به إلا الأذلان عير الحى والوتد

كما قال الشاعر:

لا تسقنى ماء الحياة بذلة بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

إن أمريكا تريد أن تشق بطن العالم كما فعل «حى بن يقظان» الذى ترعرع وأربى على سبع سنوات ولم يفارق أمه حتى أسنت وضعفت وماتت، ولما رأى الدم توقف فى عروقها شق بطنها لكى يعرف سبب الوفاة.

أمريكا تريد أن تفعل ذلك مع العالم العربى والإسلامى بل مع الدول النامية برمتها، تريد أن تشق بطنها لا لكى تعرف سبب وفاتها، ولكن لتفرض سيطرتها وجبروتها عليها.

فهل بمكنتنا كما دعا «قداسة البابا شنودة الثالث» فى كلمته التى ألقاها فى المؤتمر الذى كان بخصوص «مشكلات العالم الإسلامى وعلاجها فى العولمة».. أن يستخدم المال العربى المخزون فى بعض البنوك العالمية لتحويله إلى مشروعات صناعية، وتجارية لتحريك هذا المال واستخدامه لمصلحتنا؟

معًا نحن نستطيع أن نفعل هذا وأكثر من هذا إذا صدقت النيات فإننا رضينا أو كرهنا أصبحنا فى قلب العولمة أو فى داخلها كما عبر

الأمير «فيصل عبد الله» وزير أوقاف قطر، قد أصبحت العولمة تحيط بنا بكل جانب بعد أن شكلت لنفسها فلسفة شاملة ومتكاملة وممتدة لجميع جوانب الحياة فى محاولة منها لإعادة تشكيلها وفق الفلسفة الرأسمالية.

فهذا الذى يراد بنا من خلال فلسفة العولمة، وإذا كان الأب شنودة قد دعانا فى مقاله السابق ذكره إلى أن الحكمة تقضى أن أكسب الآخر، لا أن أخسره. ولا أدخل معه فى صدام، ولا أقطع علاقتى به، وهذا يلزمنا ثقافة الحوار بدلًا من ثقافة العنف سواء على مستوى الأفراد، أو الجماعات، أو الدول، فإننا وإن كنا نعتقد فى هذا القول الجميل إلا أننا نردد ما جاء فى الذكر الحكيم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٦]

وأيضًا، ما ورد فى الإنجيل: «ما فائدة الإنسان إذا ربح العالم كله وخسر نفسه».

لقد شاهدنا فى التلفاز الأستاذ الدكتور «محمد عمارة» وهو يتحدث عن العولمة حديثًا علميًا جليًا قال فيه: «إن العولمة تنقسم إلى قسمين عولمة كلية، وعولمة جزئية ونحن نرفض كليهما».

وكذلك – يا أيها الأستاذ الجليل – نحن نرفضها شكلًا ومضمونًا.. ولن نتسربل بسربالها الأسود العقيم الذى كذلك هو ذميم!

❑❑❑

المشكلة الثقافية

الثقافة فى مصر – فى نظرنا – ينطبق عليها ما قاله الشاعر الفذ الأستاذ «على الجارم» هى ثقافة تبدو وكأنها ماتت بأفقها فطلت عليها أعين السحب تدمع ولعل الله ينفخ فيها من روحه حتى تفىء على المصريين بالخير والبركات.

يقول الشاعر الطغرائى:

قد يعطف الدهر الأبى عنانه فيشفى عليل أو يبل غليل

فالذى لا مشاحة فيه أن السبيل الوحيد أمام المصريين، العرب والمسلمين – إلى نهضتهم وتقدمهم – هو العلم الذى يحمل فى ثناياه كل روافد الثقافة.

يقول الشاعر:

بنى العروبة مدوا للعلوم يدًا فلن تقام بغير العلم أركان
وحببوا لغة العرب الفصاح لهم فإن خذلانها للشرق خذلان
وكملوهم بأخلاق ومرحمة فإنما المرء أخلاق ووجدان

وقد سبق لعميد الأدب العربى الدكتور «طه حسين» وقد ناقش مستقبل الثقافة فى مصر فإنه قد دعا الشعب الذى يسعى للحصول على حريته واستقلاله أن يعض كذلك بنواجذه على الثقافة والعلم والقوة التى تنشأ عنهما.

اضمحلت الثقافة فى مصر فذبل عودها واصفر ورقها وغيض ماؤها فبدت وكأنها تشكو الجدب الذى أصابها والعلة التى ألمت بها.

وذلك بسبب عدم النهوض باللغة العربية ومحاسبة من يخرج عن نطاقها أو يعن له أن يخلع عباءتها.

ولو نحن يممنا وجوهنا إلى الدولة الفرنسية لوجدنا أنها قد سنت فى ١٩٩٤م قانونًا يدافع عن «اللغة الفرنسية» ويعاقب من يخترق قواعد لغتها سواء أكان ذلك عن استخفاف أو عن عمد، وهذه العقوبات تصل إلى حد السجن والغرامة الباهظة.

وقد حكمت إحدى المحاكم هناك على سلسلة مطاعم فرنسية معروفة بغرامة تنوء منها الكواهل لاستعاضة هذه المطاعم عن المصطلح الفرنسى بمصطلح إنجليزى.

ويرجع هذا – فيما نرى – إلى نظام التعليم المهتر الذى تحرص عليه وزارة التربية والتعليم منذ حقبة طويلة من الزمان من خلال نظام الحشو الذى يتبعونه مع الدارسين.

ويرى العلماء أن جناية التعليم على الثقافة تتحصل فى ذلك الفصل الحاد فى شجرة المعرفة بين تخصص علمى وأدبى.

ويرى البعض أن فى لبنان: كل طائفة تقدم تعليمًا أساسيًا غير الأخرى، ويتساءل: هل نحن فى الطريق إلى لبننة التعليم؟!، فالمواطنة الثقافية والرؤية العلمية يجب أن تكون هى الأهداف الكبرى للتعليم، وعلينا أن نواجه كل من يعترض على هاتيك الأهداف.

كما يرى آخرون أن التعليم فى مصر أداة للقهر، كما أنه قد أصبح فى خطر؛ فإن نظام التعليم المصرى يصادر حرية الفكر والتفكير والنقد والإبداع وأمسى أداة للتسلط.

فلا أحد من المتعلمين يقرأ العربية، أو يقرأ بها إلا قلة قليلة ليس لها من وزن فليس لها من شأن، ومن ثم باتت الثقافة فى مخدعها لا تفارقه آناء الليل أو أطراف النهار.

يقول «إبراهيم بن العباس»:

«من أراد أن يكون عالمًا فذًا فليطلب فنًا واحدا، ومن أن أراد أن يكون أديبًا فليتسع فى العلوم».

وقال أبو الدرداء (رضى الله عنه):

«علامات الجهل ثلاث: العجب، وكثرة المنطق فيما لا يعنيه، وأن ينهى عن شىء ويأتيه».

ومن أسف، بات الإنسان المصرى وكأنه يؤمن بمذهب الجبرية مع «جهم بن صفوان» الذى كان يرى أن الإنسان مجبور فى أفعاله وأنه لا اختيار له، فهو كالريشة المعلقة فى الهواء إذا تحرك تحركت وإذا سكن سكنت، وأن الله قدر عليه أعمالاً لا فكاك منها، وشاركهم فى ذلك «الجعد بن درهم» فرأى أنه لا حيلة للإنسان أمام الجبرية، مع أننا نرى أن هذا الذى ذهب إليه يتعارض مع قول الله تعالى؛ فالحوار الذى أجراه الله يوم القيامة بين الإنسان والشيطان متهم الأول الثانى بأنه وراء الذنوب التى أتاها والمحرمات التى اقترفها.

فجاءت الآية الكريمة تقول: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾. [سورة سبأ: الآية ٣٢]

فوردت آية أخرى تقول على لسان الشيطان للإنسان:

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٢٢]

بدأت الكتب تنأى عن الناس بعد أن نأواهم عنها، ولو دروا لتيقنوا أنهم هم الذين فى مسيس الحاجة إليها.

إنك إن سألت شابًا أو مجموعة من الشباب. ماذا تقرأون؟، أبدوا عجبهم من السائل وكأنهم يسألهم: ما هى العنقاء؟!

وأصبح التمايز الطبقى بين الناس يعود إلى قدرة كلٍ المالية، فالذى يحوز أكثر فهو الأفضل، فالمال وحده هو رمزهم وديدنهم فى الحياة.

أصبح الشباب جاهلًا لا يقرأ، ولا يعن له أن يقرأ، ولا تجدى معهم نصيحة، فهدم الجهل من الشباب كيانه، وأذاب وجوده، وترك عقله وقد أصبح قاعًا صفصفًا خاويًا.

فالثقافة أصبحت كلمة غريبة فى بلادنا، وصوتًا نشازًا فى وطننا، ونسى الجميع أن الثقافة ليست ترفًا لكنها مثل الخبز، بل هى تزيد أحيانًا عن الخبز الذى يمد جسم الإنسان بالحياة، فهى – أى الثقافة – التى تغذى عقل الإنسان، ولا جسم بدون عقل.

فقد ضاع الخيال من الشباب وعلى حد تعبير «مارك توين» وكما ورد فى كتاب «فيزياء المستحيل» Physics of the Impossible لمؤلفه «Michio Kaku»:

«لايمكن الاعتماد على عينيك عندما يفتقد خيالك إلى التركيز».

كما غاب عنه (فقه) العبارة الوجيزة التى خلدها الشاعر «أبو الطيب المتنبى» فى قولته:

أعزُّ مكانٍ فى الدُّنى سرجُ سابحٍ وخير جليسٍ فى الزمانِ كتابُ

.. وقال الشاعر:

يـا ذكيـًا والذكـا جلبابـه وتقيـًا حسنـت آدابـه
قـم وصاحـب من هـم أصحابـهُ لا تـقـل قـد ذهبـت أربابـه

وقد سئل «الحسن البصرى»: «أكان أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يمزحون.

قـال: نعـم ويتقارضـون.. كانوا يتناشـدون الأشـعار ويذكرون أمر جاهليتهم».

وكانت عائشـة أم المؤمنين تحث على طلب الشعر وتعلم روايته وفى هذا الصدد كانت تقول:

«رَوُّوا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم».

وكان «معاوية بن أبى سفيان» يحب الشعر أيضًا. ويتمثل به ويستنشد مـن حوله، التفت يومًا فى أحد مجالسـه إلى عبـد الله بن الزبير وقال متمثلًا، كما جاء فى كتاب الأغانى للأصفهانى:

ورام بعـوران الكـلام كأنهـا نوافـر صبـح نفرتهـا المرائـع
وقـد يدحض المرء المؤارب بالخنا وقـد تَدرك المـرء الكريم المصانع

ثم قال لابن الزبير: من يقول هذا؟ فقال: ذو الأصبع، فقال: أترويه؟ قـال: لا. فقال: مـن ها هنا يروى هذه الأبيات؟، فقال: فقام رجل من قيس، فقال: أرويها يا أمير المؤمنين. فقال: أنشدنى. فأنشده حتى أتى عليها.. فزاد معاوية فى عطائه.

وكان «عبد الملك بن مروان» يقول لمؤدب ولده «روِّهم الشعر. يمجدوا وينجدوا».

وكانت المساجد فيما ذكره المؤرخون ملتمس فيها العلم يتحلق المتحلقون حول العلماء للنهل من علمهم والتأدب من أدبهم.

ويذكر الدكتور الفاضل «أحمد جمال العمرى» فى سفره «شروح الشعر الجاهلى» كان الجمهور الأدبى، يتسابق إلى الذهاب إلى «سوق المربد» الذى تميزت به بادية البصرة حيث كان جمهور الشباب، يغدون عليه ويروحون للقاء الفصحاء من الأعراب، والتحدث إليهم، تمرينًا لألسنتهم، وتربية لأذواقهم ومحاولة لاكتساب الفصاحة، والسليقة العربية المصفاة من شوائب العجمة واللحن، يكتبون ما يسمعونه من طرائف الشعر وروائع الأدب. ولم يكن الجمهور الأدبى وحده الذى يذهب إلى المربد، بل كان شباب الشعراء أيضًا يفدون إليه، على نحو ما تذكر المصادر عن أبى نواس، وأنه كان يذهب إلى المربد بألواحه للقاء الأعراب، كما رحل بشار إلى البادية ليأخذ اللغة والشعر من ينابيعهما الأصلية، وغيرهما كثيرون.

وكان يفد إليه العلماء أنفسهم ليزودوا، ويستعينوا على أداء مهامهم التعليمية والعلمية، يأخذون عن أهله، ويدونون ما يسمعون. روى القالى عن الأصمعى قال: «جئت إلى أبى عمرو بن العلاء فقال: من أين أقبلت يا أصمعى؟ قلت: جئت من المربد، قال: هات ما معك، فقرأت عليه ما كتبت فى ألواحى، فمرت به ستة أحرف لم يعرفها، فخرج يعدو فى الدرج، وقال: «شمرت فى الغريب يا أصمعى» أى غلبتنى فيه.

وذكر ياقوت: أن الجاحظ أخذ النحو عن الأخفش، وأخذ الكلام عن النظام، وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد.

ومن نافلة القول أن نقول إن هذا السوق.. سوق المِرْبد لم يكن هو المعهد الوحيد لتلقى العلم، بل لقد كانت البادية أكبر جامعة عربية، تضم بين أنحائها أساطين اللغة والشعر، لذلك أوفد إليها الخلفاء الأمراء ليتعلموا اللغة الفصيحة النقية، وليتذوقوا فنون الشعر والأدب. فقد أرسل معاوية إليها ابنه وولى عهده يزيد، وأرسل هارون الرشيد إليها ابنه المعتصم للغرض نفسه.

بيد أن البادية لم تكن مدرسة للأمراء فحسب، وإنما قصدها عدد كبير من طلاب العلم والأدب، قبل أن يصبحوا أمراء العلم والأدب. قصدها الخليل بن أحمد والكسائى، والشافعى (٢٠٤هـ)، والرياشى وغيرهم.

وكان الذين يفدون إلى البادية يتعلمون من جمهرة البدو.. إذ إن اللغة البدوية الفصيحة كانت وحدها اللغة المستعملة فى هذه البقاع، كم انضموا إلى الحلقات العلمية التى كان يعقدها كثير من أفذاذ البدو وفصحائهم ليرووا فيها أجود الشعر، ويذكروا أمجاد العرب وأيامهم. وكان من هؤلاء أبو مالك عمرو بن كركرة، وأبو ثروان العكلى، أو هندام كلاب بن حمرة.

وانتهز البدو هذه الفرصة فوفدوا على القرى والمدن، وجلسوا يعلمون الناس اللغة ورواية الشعر القديم.

يذكر صاحب كتاب «الفهرست» أن البدو الذين وفدوا إلى الحواضر، واتخذوا التعليم مهنة لهم كان منهم ابن يزيد أستاذ عبد الله بن المقفع.

وكان الأعرابى قبلها مرمدًا «أى فقيرًا فى علمه».

أرأيتم كيف كان العلماء.. وكيف كان العلم عند قدماء العرب والمسلمين؟!

هل هناك من يقرأ الشعر من الشباب؟، وهل هناك من يتذوق الأدب؟ سواء الأدب العربى أو الأدب الغربى؟

وهـل هناك – إلا أقل القليـل – من يعرف الجاحظ. أو الدميرى.. أو المبرد؟

ثم هل يوجد من يعرف شـيئًا عن إميل زولا.. أو برونتى.. أو جوته Goethe؟

أذكر – دون مُزاح – أن صديقًا يشغل منصبًا حساسًا، كان ذات يوم يزورنـى فأبصر مكتبتى تموج بالكتب فطلـب إلىَّ أن أعيره بعضها بعد أن أشـار إلى كتـاب بعينه كان يود اقتنـاءه، كان الكتاب للعلامة «ابن خلدون»، فسألته.. لماذا تريد أن تقرأ هذا الكتاب؟.. فأجابنى: إن هذا الكتاب قد سمع عنه من قبل فهو «شاعر كبير»!.. فقلت له: إن صاحبه هو مؤسس علم الاجتماع «ابن خلدون»؟!

إن مشـكلة الثقافة فى مصر تتمثل فى الأمية الضاربة الأطناب التى تفشت فى عقول شباب مصر، فأنستهم ماضيهم، وألهتهم عن حاضرهم، وأضحوا لا يفرقون بين معنى الدجى أو الإفلاق، ولا يبصرون حتى دلوك الشمس؟

والحل الناجع لمحو أمية هؤلاء المتعلمين الجهلاء يقع على عاتق وزارة الثقافة التى يجب أن تؤدى رسالتها فى سبيل نشر الكتب وسهولة عثور الشباب عليها عبر الروافد الثقافية المختلفة، وعلى رأسها التلفاز.

إن كتابًا عالج هذه المسألة للأديب الدكتور «طارق حجى» فى كتاب له أسماه: «الثقافة أولًا وأخيرًا».

ونحن معه نقول: إن الثقافة يجب أن تكون أولًا وأخيرًا.

وقد قسم الفيلسوف الإيطالى جرامشى الثقافة إلى نوعين أولهما الثقافة المهنيـــة والثانى الثقافة الموضوعية وهـــى أعم من الأولى وهى التى تعنينا عندما نتكلم عن الثقافة.

والثقافة فى اللغة العربية مشتقة من تثقيف الرمح أى صقله.

ولا جَرَم أن نذكر أن أستاذنا «العقاد» قال ذات يوم: «لقد كنت أقرأ كل شىء عن شىء، فأصبحت اليوم أقرأ كل شىء، عن كل شىء»!.

❑❑❑

المشكلة الطائفية
هكذا كانت مصر.. وهكذا ستكون؟!

أرسان ثقال رانت على قلب مصر ليلة أحداث الأحد الدامى، وكأنها الرواسى من الجبال؟!

إراقة دماء الأبرياء، لن يغفرها الله لهذه الطغمة الحاقدة الآثمة التى كادت أن تحرق بإثمها، الوطن كله، وأرادوا أن يضربوا على عود الفتنة الطائفية، والفتنة الطائفية من جريمتهم، وجريرتهم براء.. فلم تكن مصر هكذا فى يوم من الأيام!

يحدثنا التاريخ - القريب - أنه عندما قررت وزارة عدلى يكن رفت (صادق بك حنين) لأنه نقد ما جاء بإحدى خطب رئيس الوزراء فتألفت لجنة - عقب ذلك - من القضاء ووكلاء النيابة ورجال التعليم من المسلمين والأقباط لتكريمه على موقفه الوطنى، ونشرت الصحف وفى مقدمتها «جريدة النظام» الخطب التى ألقاها سعد زغلول ووليم مكرم عبيد وسلامة ميخائيل فى حفل التكريم يوم ١٩ يونيو ١٩٢١م وكانت كلها تشيد بالوحدة الوطنية. وقضت الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف العليا بحق الموظف فى إبداء آرائه السياسية - وبحرية - ولو كانت مخالفة لرأى رؤسائه.

فقد كانت الوحدة الوطنية - كما اتفق المؤرخون - أبرز العناصر التى تألفت منها شعارات ثورة ١٩١٩م، وكان علم الثورة يتألف من الهلال والصليب وثلاثة نجوم. وعند مناقشة علم مصر بعد إعلان استقلال مصر

فـي١٥ مارس ١٩٢٢م أراد البعض أن يضيفوا الصليب إلى جانب الهلال رمزًا للاتحاد والوئام اللذين سادا بين عنصرى الأمة فىخضم الثورة، بيد أن الجميع عارض ذلك لأنه دليل على وجود العناصر المختلفة أو المتعددة وليس ثمة عناصر فى مصر إلا الشعب المصرى فقط.

وكان الكاتب الكبير «سـلامة موسى» قد دعا إلى تعميم إطلاق أسماء الأشـخاص على المسـلمين والمسيحيين على السـواء مما يؤكد الاندماج الاجتماعـى قائلًا: إن التمييز فـى الأسماء لم يحدث إلا فى بلادنا فإن (زينب، وهند، وحسـن، وحسـين) مـن أسماء النصارى فى سـوريا، وكان فىجزيرة العرب أسـقف اسمه محمد. وإن الأتراك يتسمون بأسماء نصرانية مثل إسكندر ولا يجدون حرجًا فىذلك!

وما قاله الأسـتاذ «موسـى» طالعـه كاتب هذه السـطور فى كتيب للمرحوم الأسـتاذ «عزيز خانكى» بعنـوان «نزعة الأسماء» دون فيه مثل ما ذكر الأستاذ «موسى».

وقد أينعت الدعوى إلى توحيد عنصرى الأمة فيما نشـر – آنذاك – مـن أن القبطى«صالح ميخائيل» كان قد أقام دعوى ضد الشـيخ المسـلم «عبد المعطـى على» وغداة وقوفه أمام قاضىالمحكمة قال للقاضى: إننى أتنازل عن قضيتى تأكيدًا للأخوة المتبادلة بينى وبين الشيخ «عبد المعطى»! فإنما نحن أبناء وطن واحد.

ونشـرت جريدة النظـام ١٢ مايـو ١٩٢٢م أن رزق كامل عثمان من أعيان المسلمين فى أبى قرقاص رزق بمولود ذكر أسماه «وليم مكرم عبيد» تيمنًا باسم المجاهد الوطنى الكبير الذى نفى مع سعد، وكان يطلق عليه اسم «ابن سعد زغلول».

وعند استقالة وزارة محمد سعيد باشا نتيجة المعارضة الوطنية التى واجهتها من تعمد «اللورد اللنبى» إلى اختيار «يوسف وهبة» الوزير القبطى فى الوزارة المستقلة رئيسًا للوزارة الجديدة، ردت لجنة الوفد على ذلك بانتخاب «مرقص حنا» نائبًا لرئيسها الذى اعتقلته السلطات العسكرية البريطانية؛ سدًا لمحاولات إثارة الفرقة بين جناحى الأمة.

وقبيل إعلان تأليف الوزارة فى٢١ نوفمبر ١٩١٩م حضر لفيف من الأقباط إلى الكنيسة المرقسية الكبرى واحتجوا جميعًا على تعيين يوسف وهبة رئيسًا للوزراء وأظهروا امتعاضهم لذلك لا لشىء سوى أن اللنبى هو الذى عين «وهبة» فى منصبه ذاك.

وفى١٥ ديسمبر ١٩١٩م ألقى «عريان يوسف سعد» الطالب بكلية الطب قنبلتين على سيارة رئيس الوزراء وهو يهتف «ليحيا الوطن» وحكم عليه فى ١٩ يناير ١٩٢٠م بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات.

وعندما نص الإنجليز فى تصريح فبراير ١٩٢٢م على حماية بريطانيا لصالح الأجانب «والأقليات المسيحيين» احتج المسيحيون على ذلك لأنه لا توجد فى مصر (أكثرية أو أقلية) فتلك فى اعتقادهم فرية «مجنونة» مجتها الآذان، ونبذتها الأذهان.

وعلقت صحيفة «الليبرتيه» الفرنسية.. كما أثبت الدكتور «رمزى ميخائيل» ذلك بين دفتى كتابه الرائع عن ثورة ١٩١٩م، قائلةً: «إن المسلمين نالوا الاستقلال بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م أما الأقباط فقد حرموا منه لوضعهم تحت الحماية البريطانية».

كتب الدكتور «وسيم السيسى» فى مقال له فى «المصرى اليوم» فى١٥/١٠/٢٠١١م أن عالمة الجينات «مارجريت كندل» قد أثبتت أن

الضفائر الجينية بين المسلمين والأقباط واحدة فى حوالى ٩٧٪ منهم.. وهذه الضفائر الجينية هى جينات الفراعنة.

يذكر الزميل العالم المستشار «طارق البشرى» فىكتابه «الدولة والكنيسة»:

«إن الشريعة الإسلامية ومبادئها ليست غريبة ولا بعيدة عن أقباط مصر، وقد طبقت على المصريين جميعًا منذ دخل الإسلام مصر فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى، وعرفت مدارس الفقه الإسلامى فى مصر، من الليث بن سعد المصرى إلى عبد الرحمن بن القاسم مشيع المذهب المالكى إلى محمد بن إدريس الشافعى مؤسس المذهب الشافعى، وعرف بها الأزهر – وما كان يجذب إليه من علماء المسلمين، وهذا الإشعاع الثقافى لم يكن الأقباط بمعزل عنه، وأن كتاب القوانين المعروف باسم المجموع الصفوى للمثقف القبطى المعروف صفى الدين أبى الفضائل ابن العسال هو من أدلة هذا الشيوع، ذلك أنه كتاب ألف فى القرن الثالث عشر الميلادى من جزءين. يحوى أولهما فى اثنين وعشرين بابا أحكام العبادات فىالمذهب الأرثوذكسى المصرى وعلى الرغم من كونه كتابًا مسيحيًا قبطيًا أرثوذكسيًا تنضبط أحكامه مع أحوال هذه العقيدة، فإنه يلحظ شيوع استخدامه للمصطلحات الفقهية الإسلامية فى التعبير عن أحكامه الكنسية مثل الإجماع والفروض وغير ذلك».

وقد ذكر الجبرتى – الذى قتل ولده فذهب نور عينيه حزنًا عليه ولم يمنعه ذلك من المضى فى كتابة جزء مهم من تاريخ مصر، ولاسيما آثار الحملة الفرنسية عليها. وله كتابان فىهذا الخصوص هما «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار»، «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس» –

«أن نابليون بونابرت عرض للمناقشة فى أول جمعية تأسيسية أنشأها موضوع نظام الملكية، ونظام التوريث، وعرض وجهة نظر القانون الفرنسى فيهما فرفض أعضاء الديوان بالإجماع، بمن فيهم الأقباط ونصارى الشوام الذين قالوا: (المسلمون يقسمون لنا).

وظل أقباط مصر على موقفهم القديم، إذ إن محكمة استئناف مصر الأهلية – الدائرة المدنية – وقد كانت مُشَكلة من ثلاثة مسيحيين ومسلمين، انتهت فى حكمها إلى أن نظر مواد المواريث يستمر كما كان بحسب الشريعة المحلية لأن الملة (التابع لها المتوفى) هى الملة المصرية.

وعندما وضع دستور مصر المستقلة عام ١٩٢٣م ورد فى عجز المادة ١٤٩ أن الإسلام دين الدولة، واللغة العربية لغتها الرسمية.. وكانت من بين اللجنة التى وضعته خمسة من المسيحيين هم: «يوسف سابا باشا، وقلينى فهمى باشا، وإلياس عوض باشا، وتوفيق دوس بك، والأنبا يؤانس نائب بطريرك الأقباط الأرثوذكس وقتها»، والذى تولى البطريركية بعد ذلك لسنوات أربع عام ١٩٢٧م، كما كان فيها عضو يهودى هو «موسى قتاوى باشا».

ويا أيها الذين تسعون فى الأرض فسادا، وتبغون قطع وشائج القربى بين المسلمين والأقباط، اذكروا دائمًا قول «عثمان بن عفان» – الخليفة العادل رضى الله عنه – وهو يوصى الولاة، قائلًا لهم: «إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة وليسوا جباة، وإلا انقطع الحياء، والأمانة، والوفاء.. انظروا أمور المسلمين وأمور المسيحيين فأعطوهم مالهم وخذوا ما عليهم».

فالمسلمون والمسيحيون وحدة تقف كالجبل الأشم فى وجه من يريد أن يقتحمه أو يتطاول عليه.

وصدق أمير الشعراء حين قال:

الديـن للديـان جـل جلالــه لـو شـاء ربـك وحـد الأقوامـا

ونختـم هذا بقول «للجاحظ» جاء فى مقـال للدكتور «طه الحجرى» نشره فى مجلة الزهور عام ١٩٤٥م جاء فيه:

«اللهم إنى أعوذ بك من باطن عزمه، كما أعوذ بك من ظاهر عمله».

ونحن نوجه هذا الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى متضرعين له:

«اللهـم إنا نعوذ بك من باطن عزم المتعصبـين، ونعوذ بك من ظاهر عملهم المشين»!

□□□

مشكلة الأمية

يقول «شارل فوريه» الاقتصادى والفيلسوف الفرنسى الشهير: «نريد أن نبنى عالمًا يسعد الناس فيه جميعًا، حتى الأغنياء».

ولقد مرت على الأمية فى مصر ليالٍ من الفكر - بالنسبة للأمية الضاربة الأطناب ذات الملايين من الأبواب، ما انجابت ظلمتها، ولا فارقت مصر آثامها أو كدرها.

فالأميون يشكلون نسبة جد عالية فى جميع ربوع مصر، فهم لا يقرأون، وهم لا يفقهون إلا ما أفاء الله على البعض منهم من الفهم الصحيح.

وفى كتاب الدكتور «موريس بوكاى»: دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة، أشار صاحب كتاب «كيف بدأ الخلق» إلى مقالته «إن من جوانب إعجاز القرآن البالغ أنه هو الكتاب السماوى الوحيد الذى لا يوجد به خطأ علمى واحد».

وقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم:

- ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾. [سورة آل عمران: الآية ١٨]

- ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾. [سورة المجادلة: الآية ١١]

- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾. [سورة فاطر: الآية ٢٨]

- وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾. [سورة الرعد: الآية ٤٣]

- وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾. [سورة النمل: الآية ٤٠]

- وقال عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾. [سورة القصص: الآية ٨٠]

- وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾. [سورة العنكبوت: الآية ٤٣]

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾. [سورة النساء: الآية ٨٣]

- وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾. [سورة الأعراف: الآية ٢٦]

- وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾. [سورة الأعراف: الآية ٥٢]

- وقال تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾. [سورة الأعراف: الآية ٧]

- وقال عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾. [سورة العنكبوت: الآية ٤٩]

- وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. [سورة الرحمن: الآية ٣-٤]

والتعريف الشائع للأمية يقول: «إن الأمي هو ذلك الذى لا يعرف القراءة والكتابة» وهذا خطأ شائع والصحيح أن الأمية تتفرع إلى الكثير من الفروع، فهناك الأمية العلمية، والأمية الثقافية، والأمية السياسية، والأمية المهنية، وهكذا دواليك.

ونعتقد أن ذلك يرجع إلى اضمحلال اللغة العربية الفصحى التى تعرضت إلى حرب ضروس عبر تراكم السنين، ومرور الأيام حاول أعداء الإسلام أن يمحوها محوًا من الوجود حتى يبعدوا المسلمين عن دينهم.

فقد آلمهم انتشار الإسلام، وعض المسلمين بنواجذهم على دينهم لا يبغون عنه حولًا من خلال عشقهم للغتهم وانتدابهم على تعاليم دينهم السمحة السمحاء، والغرة البيضاء، فهى كما عبر «روفائيل»:

«اللغة العربية تحرك مشاعر من يسمعها، وقد لا يكون من بين البشر قاطبة من يستثيره التعبير، وتحركه الكلمة منطوقة كانت أو مكتوبة مثل العرب. إن من العسير أن تجد لغة من لغات العالم تحظى بهذا التأثير الذى لا يقاوم على عقول أصحابها.إن الجمهور العربى المعاصر سواء فى بغداد، أم فى دمشق، أم فى القاهرة يحرك وجدانه إلى أقصى درجة ممكنة، إنشاد قصيدة ما، وإن تعذر عليه فهمها كاملة، ويستثير مشاعره إلقاء خطبة بالعربية الفصحى. وإن غاب عنه فهم بعضها. إن للإيقاع الشعرى والموسيقى، والتناغم بين أجزاء الكلام ما للسحر على نفوس هذا الجمهور العربى، بل هو ما يسمى بالسحر الحلال».

ويقول المستشرق «رتر» أستاذ اللغات الشرقية:

«إن الكتابة اللاتينية لا اختزال فيها.. أما الكتابة العربية فهى أسهل كتابات العالم وأوضحها، ومن العبث إجهاد النفس فى إبتكار طريقة جديدة لتسهيل السهل، وتوضيح الواضح».

ويقول «إرفنج IRVING»:

«إن اللغة العربية – بحق – إحدى اللغات العظمى».

وإن كان البعض قد إزْوَرَّ عن القرآن الكريم.. فما كان ذلك إلا بسبب محمد وكتابه.. هكذا عبر «وليام بنجراف».

وفى كتاب «أباطيل وأسمار» عبر العالم الجليل الشيخ «محمود شاكر» قائلًا:

«لقد برح الخفاء، وبدت جوانب المؤامرة لبث روح الكراهية والازدراء بالنسبة للسان العربى، وبقدر صلة الإنسان بهذا اللسان يكون نصيبه من زراية العصابة الاستعمارية، وأذنابها، والمتعلمون فى المدارس الوطنية الحكومية ينالون قدرًا من زملائهم الذين تعلموا فى المدارس الأجنبية حيث خلوات التبشير؛ لأن لهم صلة ما باللسان العربى، وبالتالى من تعلموا فى الأزهر حيث الحصن الحصين للغة والدين يكون نصيبهم من مقت القوم أعظم وأكبر».

قلنا فى كتابنا «خواطر قاضٍ» الذى صدر عن دار المعارف منذ شهور قلائل:

«إن إنجلترا ارتقت بكلمات دكنز، وكارليل، ومؤلفات شكسبير، وارتفعت فرنسا بتواليف راسين، وفولتير، وموليير، وسمقت ألمانيا بليبنتس، وجيته، وشيللر، وسمت روسيا بتولستوى، وجوجول، ومكسيم.

وعزت مصر، والأمة العربية بالقرآن الكريم. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة طه: الآية ١١٣] «صدق الله العظيم».

واللغة العربية هى لغة الضاد. اللغة الشاعرة، كما أطلق عليها أستاذنا العقاد، وأفرد لها كتابًا، إذا تقرأه تراه إنسانا، وهى اللغة الضاربة فى القدم، الموغلة فى العراقة طوال خمسة عشر قرنا. خُلقت لغات سادت، ثم بادت. والعربية هى العربية لم تمح، ولم تتغير، أو تتبدل. فقد حوت على أدب لا تحويه لغة أخرى، كما عبر رجل الفكر والسياسة

الدكتـــور عبد الوهاب عزام، أدبًا، موطنًا ما بين الصين وبحر الظلمات، ولم يعرف فى آداب العالم قديمها، وحديثها، أدبًا اتسعت به المواطن، هذا الاتساع، وامتدت به الأمصار هذا الامتداد، ثم هل عرف العالم أدبًا أعظم من أدب العرب ســعة رقعة، وطول مــدة وجمالًا وجلالًا؟؟، وفى الأدب العربى سِيَرٌ رجف بها الزمان، وأقر بها الحدثان.

لا جرم – إذن – أن سادت اللغة العربية، وتحدث بشأنها الثقلان، الإنــس والجــان، ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾. [سورة الجن: الآية ١–٢]

واللغة – أية لغة – هى وعاء الفكر، وإن شــئت قل هى الفكر وهى الذكر، وهى ذاكرة الأمة. وشــاحذة الهمة، وهى الوشــيجة بين الماضى والحاضر، وهى قوام الشــخصية، وتراث الإنسانية.. ثم هى – كما عبر الناقد الفرنسى «بوفون» – المرء ذاته».

وهذا الذى قلناه وذكرناه، ومن هنا كانت الدعوة منذ حقبة قصيرة إلى إماتة اللغة العربية، وإحياء اللهجة العامية فى مصر.

فها هو ذا كما ذكر المرحوم الدكتور «الســيد الطويل» يثبت فى كتابه المعنون «اللسان العربى والإسلام.. معًا فى معركة المواجهة» يقول:

«ذلكم هو «ولهلم ســبيتا» خشــى أن تســتعيد اللغة العربية قوتها، فألف كتابًا سمــاه.. «قواعد اللغة العامية فى مصر». كانت محاولة منه لتقعيد العامية، لكن مقدمته كشــفت ســوء نيته، وخبث طويته، يقول فى مقدمته: وأخيرًا ســأجازف بالتصريــح عن الأمل الذى راودنى على الــدوام طول مدة جمع الكتاب، وهذا أمل يتعلق بمصر نفســها. وحس أمرًا هو بالنســبة لها وإلى شعبها يكاد يكون مسألة حياة أو موت، فكل

من عاش فترة طويلة فى بلاد تتكلم العربية يعرف إلى أى حد كبير تتأثر كل نواحى النشـاط فيها بسـبب الاختلاف الواسع بين لغة الحديث، ولغة الكتاب.

ثـم يواصل حديثه فيقول: وطريقـة الكتابة العقيمة بحروف الهجاء المعقدة يقع عليها بالطبع أكبر قسط من اللوم فى كل هذا، ومع هذا فلن يكـون الأمر سـهلًا لو أتيح للطالب أن يكتب بلغـة إن لم تكن هى لغة الحديث الشائعة فهى على كل حال ليست العربية الكلاسيكية القديمة بـدلًا من أن يجبر على الكتابة بلغة هى من الغرابة بالنسـبة إلى الجيل الحـالى من المصريين مثل غرابة اللاتينية بالنسـبة للإيطاليين. وبالتزام الكتابة الكلاسيكية القديمة لايمكن أن ينمو أدب حقيقى، ويتطور».

وقفـى على ذلك المقتطـف عام ١٩٨١م، إذ كان صاحبه عربى المثال أعجمى العقل فهو كما قال المتنبى:

عربـى لسانـه، أعجمـى رأيـه فارسيـة أعيـاده

وتجىء ثالثة الأسـافى فيما ألفـه «كارل فولرس» الذى سـوَّد عقله المتعصـب وكراهته لمصـر وغله مـن العربية إلى أن يؤلـف كتابًا أسماه «اللهجـة العامية الحديثة فى مصر»، وكذلك «وليم ويلكوكس» المهندس الإنجليـزى المتعصب ينفث سمومـه فى اللغة العربيـة مضمنًا إياها ما بثـه الأول فيها وقس على ذلك «يعقوب صنوع»، والمستشـرق الإيطالى، والأمريكى «ريتشارد لونهيل».

ومن أسـف أن نقرأ أن أسـتاذ الجيل «أحمد لطفى السيد» الذى قاد فى رثائه عملاق الفكر الأستاذ «العقاد» فى قصيدة له مازلنا نحفظ البيت الأول منها يقول مخاطبًا إيَّاه:

معلم هذا الجيل علمته الأسى فعلمـوا ألا يستكيـن وييأسـا

فهـو – رحمـه الله – وقد كتـب فى الجريدة «بتاريخ ٢١ أغسـطس ١٩٠٩م» يدافـع عن اللغة العربية متسـائلاً: متـى نحب وطننا، لغتنا، وآدابنا؟.

وإذا بـه يعود «القهقرى» مـرددًا عام ١٩١٣م ما كتبه المستشـرقون الضالون الكارهون للغة العربية والناطقون بها فيذكر:

«على الكتاب أن يتسامحوا فى قبول المسميات الأجنبية، ويدخلوها فـى كتابهم، كما أدخلها الجمهور فى المخاطبة، ثم اعترف بأن هذا قد يخلق الفوضى، لكنه اسـتدرك قائلاً: إنها فوضى نافعة، ولا خطر على اللغـة منها مادامت سـتخرجها من جمهورها إلى التطـور الراقى الذى يوافق أطماع الأمة».

وكأنه بدعوته تلك يسبق وزيرة خارجية أمريكا التى دعت ذات يوم قريب الدول العربية والإسلامية إلى الفوضى الخلاقة؟!

يقول حافظ إبراهيم:

أرى كـل يـوم فـى الجرائد مزلقًا مـن القبـر يدنينـى بغيـر أنـاة
وأسمـع للكتاب فى مصر ضجـة فـأعلـم أن الصائحيـن نعاتـى

أرأيتم كيف كانت هذه الحرب الضروس على اللغة العربية من خلال الداعين إلى استبدال اللهجة العامية بها؟!

ولاجَرَم – أن نعود إلى ذكر كلمة الأمية التى أرتآها البعض أنها تعنى الجهل بالقراءة والكتابة، وليس إلا ذلك.

فالأمية فى معناها ومغزاها كما ورد فى القرآن الكريم تعنى (الأممية).

وسـبق للأسـتاذ العقاد أن فسر هذه الكلمة تفسـيرها الصحيح فذكر

فى مقال له «بجريدة الأخبار المصرية» أن الآية الكريمة التى وردت فى الذكر الحكيم:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾. [سورة آل عمران: الآية ٢٠]

فإن ذكر كلمة الكتاب قبل الأميين جعلت الأذهان تتلقفها على أن كلمة الأمية تعنى الجهل بالقراءة والكتابة.

وفسر الأستاذ العقاد هذه الآية تفسيرها الصحيح فردد بين ما ردد أن تفسير تلك الآية التفسير الذى يتفق مع المنطق والعقل السليم يعنى أن الله يخاطب رسوله داعيًا إياه – عليه الصلاة والسلام – أن يبلغ رسالة من السماء إلى من ادعوا أن الله لم ينزل كتابًا إلا عليه دون المسيحيين والمسلمين وهم اليهود أو الجوييم.. وكذلك يبلغها إلى جميع العالم.

يقول العالم اللغوى «أبو إسحاق الزجاج»: إن الأمى هو الذى يظل كما ولدته أمه، أى: لم يتعلم الكتابة فهو أمى لأن الكتابة صنعة مكتسبة، وهو فى هذه الحالة ظل كما ولدته أمه، وبالترتيب على ذلك فإن كلمة «أمى» جاءت من كلمة «أم» ونحن هنا أمام أصلين لهذه الصفة «أمى».

الأصل الأول: أمى مصدرها من أمة.

الأصل الثانى: أمى مصدرها من الأم.

وكلا الأصلين للكلمة يمكن أن يقبل من الناحية النحوية وليس هناك مشكلة فى هذا الصدد، ولكن من ناحية المعنى هناك اختلاف كبير ينشأ عن استخدامنا للأصل الأول أو الأصل الثانى؛ لأن الأصل الثانى للكلمة «أمى مشتقة من الأم» يسمح لنا أن نقصد بكلمة أمى من لا يقرأ ولا يكتب. أما الأصل الأول للكلمة «أمى مشتقة من أمة» فلا يسمح لنا أن نقصد بهذه الكلمة من لا يقرأ ولايكتب».

ولذلك فإن الذين يظنون أن معنى كلمة أمى التى يوصف بها النبى – صلى الله عليه وسلم – إنه ينتمى بها إلى الأمة العربية يخدعون أنفسهم لأنــه من الزيف أن نقــول: إن الكتابة كانت نادرة أو غير موجودة عند العرب، ومن ناحية أخرى فإن كثيرًا من الأمم كانت على نفس شــاكلة الأمة العربية فى هذه الحالة.

ولقــد دون الدكتور «عبد الرحمن بدوى» فى كتابه «دفاع عن القرآن» مؤكدًا ما ذهب إليه أستاذنا العقاد فى هذا الخصوص.

وإذا كان البعــض يــرى أن ثمة فرقًا بين المخ والعقل وهو: «أن الفرق بينهمــا هــو مثل نطق الكلمــة ومعنى الكلمة، وأن العقــل «Mind» هو المسئول عن الوعى، وهو نتاج مباشر للمخ المادى «Bain».

وكمــا أثبت صاحب كتاب «كيف بدأ الخلــق» إذا كان ذلك كذلك. وهو كذلك، فإن العقل يقول إن محاربة الأمية بمعناها الدارج هو معناها الصحيح لابد وأن يكون بشــحذ الأمة إرادتهــا لمحاربة هذه الآفة التى عمت شــعب مصر، بل وطمت وآن الآوان لمحوها من حيث إنها وصمة على جبــين مصر رانت عليها وأبت ألا تفارقهــا فكانت هى الجرثومة الأولى فــى غياب الوعى عن العديد من المصريين، وفى خلق هؤلاء الذين اندفعوا من خلال السلطة التى وسدها لهم هؤلاء الأميون بأميتهم لمعناها الخاطئ، ومعناها الصحيح.

كيف ذلك؟! ذلك يكون بالنهوض على تعليم أولئك وتثقيفهم والأخذ بيدهم نحو آفاق المعرفة الصحيحة التى تنشــئ شعبًا جديدًا مثقفًا واعيًا له شــأن فى هذا العالم الذى لم ينهــض الناهضون منه والذين بلغوا ذرا المجد إلا بالعلم والعلم فقط.

وقد صدق الله تعالى فى قولته الكريمة:

﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. [سورة الزمر: الآية ٩]

صدق الله العظيم

□□□

مشكلة البطالة

تعريف قاموس اللغة العربية بأن «البطالة» هى عدم توافر العمل للراغبين فيه القادرين عليه.

وتعريف «العاطل» هو: بقاء الشخص بلا عمل مع قدرته عليه.

«والبطالة قد استشرى داؤها وضربت بشرها جنبات العالم شماله وجنوبه وشرقه وغربه، وأمست مشكلة تؤرق القائمين على شئون الدول المختلفة».

والمقصود بالبطالة عدم وجود فرص عمل مشروعة لمن توافرت له القدرة على العمل والرغبة فيه. ويمكن أن تكون البطالة كاملة أو جزئية، هذا بالنسبة للقادرين الأصحاء.

أما بالنسبة لمن بلغوا من العمر عتيا فهم لا ينطبق عليهم وصف البطالة، فالدولة أحرى بها أن تؤويهم، وأن تضعهم نصب عينيها وهذا هو حقهم على الدولة.

فالبطالة إما أن تكون سافرة، وإما أن تكون مقنعة.

فالسافرة فيقصد بها: حالة التعطل الظاهر التى يعانى منها جزء من قوة العمل والتى يمكن أن تكون دورية أو احتكاكية أو هيكلية، وتزداد حدة البطالة السافرة فى الدول النامية حيث تكون أكثر قسوة وإيلامًا؛ نتيجة عدم وجود نظم لإغاثة البطالة وغياب أو ضآلة برامج المساعدات الاجتماعية الحكومية، وتقاعس الدولة، وازورارها عن مد يد العون إليهم فهم قد درسوا وجدوا وبحثوا وما ألفى واحد منهم عملًا ينهض عليه أو يسترزق منه.

أما البطالة المقنعة: فهى تلك الحالة التى يتكدس فيها عدد كبير من العمال بشكل يفوق الحاجة الفعلية للعمل، ويوجد هذا الشكل فى القطاع الزراعى فى البلدان النامية، وكذلك فى قطاعات الخدمات الخاصة الخدمات الحكومية نتيجة لالتزام الحكومات فى مرحلة سابقة بتعيين خريجى الجامعات والمعاهد المختلفة.

وفى تقرير منظمة العمل الدولية قد ورد فى مدوناته أن متوسط نسبة البطالة فى العالم قد وصل إلى ٦,٢٪ بينما بلغت فى العالم العربى نسبة تقترب من ١٢,٢٪.

وقد وصلت نسبة العاطلين فى البلاد العربية منذ ثلاث سنوات خلت إلى ٢٥ مليون عاطل.. واعتبرت هذه المنظمة أن سكان البلاد العربية دون سن الخامسة والعشرين هم الأسوأ عالميًا.

كما رأت منظمة العمل العربية فى تقريرٍ لها أن البطالة فى الدول العربية هى الأخطر، والأسوأ بين جميع مناطق العالم دون منازع وهو فى سبيله إلى الانفجار، وليس ثمة بلاد عربية محصنة ضد البطالة حتى أصبح الكل فى هم الحياة سواء، فقد ألقت البطالة بظلالها السوداء عليهم بعد أن شبت نيرانها واشتد أوارها ووصل السيل الزبى دون صد أو رد أو محاولة جادة لإيقاف هذا السيل العرم.

ويوجد فى مصر وحدها ملايين عدة من العاطلين الذين خيم البؤس على حياتهم وران اليأس على عقولهم من خلال جمود وجه الدولة أمامهم وسوط البطالة الذى يلهب ظهورهم.

وقد رأيت بعينى شابًا يقوم بمسح الحذاء لى ولما جاذبته أطراف الحديث أفجأنى بأنه خريج إحدى كليات الزراعة بجامعة مصرية

أنزلت قدمى وأبديت له أسفى ولما رفض سارعت بالبعد عنه احترامًا له ولشأنى.

وذاك آخر يعمل حارسًا فى إحدى بوابات مدينة العريش إثر زيارتنا لها أنا وابنى منذ شهور خلت إذ أنبأنى بأنه يحمل شهادة البكالوريوس من كلية العلوم جامعة القاهرة ولم يجد مصدرًا للرزق إلا العمل فى هذا الذى يقوم عليه؟!

وثالث طالب طب بجامعة الإسكندرية يعمل «نادلًا» فى منتزه المعمورة؟! وحدث فى هذا ولا حرج.

ويتساءل سائل عن الحل لهذا الأمر الذى حاق بالدولة والعاطلين فيها؟

وتأتى الإجابة ولا إجابة غيرها: أن تعمل الدولة جاهدة على محاربة هذه الظاهرة التى أصبحت تهدد مصر بأكملها من خلال التنمية الاقتصادية وإيجاد فرص العمل اللازمة لأبنائها الذين أصبحت الجامعات بالنسبة لهم كمعامل تفريغ للعاطلين.

وما أصدق من قال:

وأكثر الناس آلات تحركها أصابع الدهر يومًا، ثم تنكسر

❑❑❑

مشكلة البيئة

القرآن الكريم أورد كلمة البيئة من جهة الاشتقاق فقال تعالى:

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾. [سورة الأعراف: الآية ٧٤]

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾. [سورة يوسف: الآية ٥٦]

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾. [سورة الحشر: الآية ٩]

﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. [سورة يونس: الآية ٨٧]

وقد اتخذ الباحثون فى شئون البيئة التعريف الذى ورد فى مؤتمر الأمم المتحدة عام ١٩٧٢م بأن البيئة هى:

«رصيد من النظم، والمواد الاجتماعية والثقافية المحيطة بالإنسان التى يستمد منها ويؤيد فيها نشاطه».

فالأرض هى العرض، والبيئة «Environment» هى المنزل والمكان الذى ينزل فيه الإنسان أو الكائنات الأخرى من خلق الله تعالى.

ولقد وضع العالم الألمانى «إرنست هيجل فى عام ١٨٦٦م كلمة أيكولوجى «Ecology» خلال دمج كلمتين يونانيتين هما «Oikes» بمعنى مسكن، «Logos» بمعنى علم البيئة وهو العلم الذى يدرس علاقات الكائنات الحية بالوسط الذى تعيش فيه.

خلق الله الأرض للإنسان من قديم الزمان، ذات اتزان وأنشأ منها كونًا عظيم الأركان فأفسده البشر وكادوا أن يحولونه إلى حجر؟!

تقلص من الأرض – كما ذكر صاحب كتاب الأرض – شفاها الله – الغابات وانكمش منها المساحات بمعدل ينيف على عشرة مليون من الهكتارات وأصيبت الأرض بالتصحر ناهيك عن فقر النصف الشمالى من الكرة الأرضية لآلاف البحيرات بعد أن أصابها الموات من الناحية البيولوجية.

فضلاً عن تعرض مخزون المياه العذبة لأجزاء من القارة الإفريقية، والصين، والهند، وأمريكا الشمالية إلى خطر النضوب.

كما تعرضت الأرض للخلل البيئى جراء ارتفاع حرارة جو الأرض بمعدل شبه ثابت. ومستوى سطح البحر نتيجة الذوبان القطبى تأثر بارتفاع درجة حرارة الجو.

وقد طمت على الأرض بسبب سكانها الأوزار دون فهم منهم أو اعتبار أو استعبار.

ويذكر كاتب هذه السطور مقالاً كتبه المرحوم العلامة الدكتور «أحمد زكى» فى مجلة علمية كان عنوانه «لو ذابت ثلوج القطبين، لغرق العالم أجمع».

وها هى ثلوج القطبين فى سبيلها إلى الذوبان.

وقد انقرض من على سطح الأرض العديد من الكائنات الحية بسبب الإغفال أو الإهمال.

فهل تتحول الأرض كما ورد فى الكتاب المقدس إلى أن:

«تَتَحَوَّلُ أَنْهَارُهَا زِفْتًا، وَتُرَابُهَا كِبْرِيتًا، وَتَصِيرُ أَرْضُهَا زِفْتًا مُشْتَعِلًا. لَيْلًا وَنَهَارًا لاَ تَنْطَفِئُ. إِلَى الأَبَدِ يَصْعَدُ دُخَانُهَا. مِنْ دَوْرٍ إِلَى دَوْرٍ تُخْرَبُ. إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ لاَ يَكُونُ مَنْ يَجْتَازُ فِيهَا وَيَرِثُهَا الْقُوقُ وَالْقُنْفُذُ، وَالْكَرْكِيُّ

وَالْغُرَابُ يَسْكُنَانِ فِيهَا، وَيُمَدُّ عَلَيْهَا خَيْطُ الْخَرَابِ وَمِطْمَارُ الْخَلاَءِ. أَشْرَافُهَا لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يَدْعُونَهُ لِلْمُلْكِ، وَكُلُّ رُؤَسَائِهَا يَكُونُونَ عَدَمًا. وَيَطْلَعُ فِي قُصُورِهَا الشَّوْكُ. الْقَرِيصُ وَالْعَوْسَجُ فِي حُصُونِهَا. فَتَكُونُ مَسْكِنًا لِلذِّئَابِ وَدَارًا لِبَنَاتِ النَّعَامِ. وَتُلاَقِي وُحُوشُ الْقَفْرِ بَنَاتِ آوَى، وَمَعْزُ الْوَحْشِ يَدْعُو صَاحِبَهُ. هُنَاكَ يَسْتَقِرُّ اللَّيْلُ وَيَجِدُ لِنَفْسِهِ مَحَلًّا. (أش ٣٤: ٩ - ١٤).

أو هى ستكون - عما قريب - كما ورد فى سورة الرعد الآية (٤١):

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.

وكما جاء فى سورة الأنبياء: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الآية ٤٤]

يقول الدكتور «نقولا فياض» وهو من كبار الأدباء فى الشرق العربى وله قصيدة عصماء عن (الأرض) دبجت يراعته فيها:

لقد شبت وما شبت تقول الأرض للناس
فمن شرق إلى غرب ومن قطب إلى قطب
ومن رأسى لأطرافى يمر الدهر كالحلم
على جسمى
فلا يوهن من عزمى ولا يرهق أعطافى
وكيف أصاب بالهرم ومن ذهب الضياء دمى
وأمى الشمس فى الفجر بقبلتها على ثغرى
تجدد حر أنفاسى
لقد شبت وما شبت تقول الأرض للناس!

ويردف هذا الأديب اللبيب قائلًا:

لقد شبت...

ألا في ذمة الله خيال لاح للسلم
أطل بنظرة الساهي وطار بخفة الحلم
فما كحلت أجفاني
فرشت له على جنبي وثير مطارف الحب
فأسرع دوته المدفع وخرب ذلك المضجع
وغطاه بأكفان
ألا فارجع إلى داري وإن شطت بك الدار
ولا تهزأ بأسراري ففيها النور والنار
لمن يؤمن أو يسعى
أكلما فاض رزقي بدلت باليسر عسرا
فما تمليت حبًا ولا تذوقت عصرا
لقد شبت وما شبت تقول الأرض للناس

وما قاله هذا المفكر الأديب يمثل - تمامًا - مشكلة الأرض التى نرقد عليها ونعيش بين ظهرانيها.

فها هو ذا الإنسان فى كل زمان وفى كل مكان يعمل جاهدًا على وأد الأرض وعلى قتل البيئة، وأدًا وئيدا - مَرةً - وقَتلًا سريعًا - مرات ومرات - حتى أصاب الأرض بالويلات؟!.. من خلال تلوث الماء، وكذلك الهواء، حتى أصبحت البيئة ملوثة فأمست هوة حاصلة بين ما يسمى «بالتكنوسفير Technosphere» وهو معيشة الإنسان وأنماط

الحياة الحضارية ومستحدثاتها من العلم والتكنولوجيا، وبين «البيوسفير Biosphere» وعناصر مقاومات المحيط الحيوى.

فالثـورة الصناعية وما صاحبها من تطور تكنولوجى اقترنت بكميات هائلـة من الملوثات مما أدى إلى تلـوث الهواء والماء والتربة، الأمر الذى أصاب الحيـاة فى مكمنها وفى أرجاء المعمورة برمتها، الأمر الذى دفع الإنسان إلى سن القوانين لحماية الحياة والموارد الطبيعية، بيد أن هذا لم يحل المشكلة التى عمت وطمت واستفحلت وأصابت بالموات العديد من الكائنات الحية فى الأنهار والبحار، بل إن مياه الأمطار التى أنزلها الله على الأرض من السماء قد أصابها هى الأخرى من الإنسان العداء؛ ففى المناطـق الصناعية تحمل فى طياتهـا كل الملوثات الموجودة بالهواء التى من أشـهرها أكاسـيد النيتروجين، وأكاسيد الكبريت، وذرات التراب، فقـد ضربت المياه باليباب، ولكـن يبقى فضل الله – أرحم الراحمين – فمن خلال نقاء ماء المطر الذى يتساقط من السماء يبقى خلوًا من الشوائب ويظل فى غاية النقاء والصفاء مصداقًا لقول الله تعالى فى سـورة الفرقان «الآية ٤٨»:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.

كما تلوثت البيئة البحرية بسـبب النفط الناتج عن حوادث السـفن أو الناقلات التى تعبر والتى تمخر عباب المحيطات المائية، كما حدث فى شـواطئ كاليفورنيا فى سـتينيات القرن المنصـرم مما أدى إلى موت أعـداد لا تحصى من الطيور البحرية والأسماك والكائنات الأخرى جراء تلوث المياه.

كما أن البقع الزيتية الطافية على سطح الماء تعيق نفاذ الأكسجين الضرورى لحياة الكائنات وكذلك أشعة الشمس التى تعتبر ضرورية لعمليات البناء الضوئى لحياة النبات المائية.

كما نجم عن التلوث البحرى هجرة الطيور النافعة، ناهيك عما حاق بالشعاب المرجانية من أضرار مما أثر على الثروة السمكية؛ حيث تتخذ العديد من الأسماك من تلك الشعاب المرجانية سكنًا وبيئة لها.

وإذا كان البشر قد آمنوا بأن المياه الجوفية هى محمية طبيعية بعيدة عن التلوث بواسطة طبقات الصخور، ناهيك عن التربة التى تعمل كمرشحات لها بيد أن جموح البشر فى التوسع العمرانى، وغضهم البصر عن الاهتمام فى التعامل مع البيئة أفضيا إلى إلحاق الأذى بهذه المياه الجوفية كما تم إلحاق الأذى من قبل بالهواء والأرض والمياه السطحية.

هذه كله ناهيك عن ما أصاب البيئة من أشعة «الهاتف الجوال» وعوادم المركبات، والسحب السوداء، وظاهرة الاحتراز العالمى، أو الاحتباس الحرارى، وبما يعانيه ويبغيه من ارتفاع درجة حرارة سطح الأرض مما يؤثر على العالم بأسره.

وقد أجرى علماء البيئة وتوصلوا من تجربتهم أن ثمة علاقة بين التلوث وارتفاع درجة حرارة الأرض وإصابة أهلها «بالسكتة الدماغية» خاصة فى أيام الحرارة، وما يحدث من جرائها من تخثر يمنع تدفق الدم إلى المخ.

وهلم بنا، نعرج على المفاعلات الذرية التى هى الخطر المحيق القادم علينا من الطريق، ويتمثل نتيجة التسرب الإشعاعى أو التفجيرات الذرية ناهيك عن اليود المشع، وزميله الكربون المشع، والذى يتولد فى الهواء

نتيجة لتعرض النيتروجين للنيوترونات والبروتونات الناتجة عن هاتيك التفجيرات فضلًا عن العناصر الأخرى.

ويهمنا هنا أن نشير إلى المخاطر الناجمة من مفاعل «ديمونة الإسرائيلي»، ولا ننسى أن نشير أن هناك مفاعلات نووية أخرى لدى إسرائيل، منها مفاعل ريشون لزيون، ومفاعل ناحك سوريك، ومفاعل «روبين»، وجميعها يشكل خطرًا داهمًا على المنطقة المحيطة بإسرائيل – ومنها بداهة مصر – فقد أصاب هذه المفاعلات الشيخوخة. حيث إن العلماء قد قدروا أن العمر الافتراضي للمفاعل النووى يتراوح بين الثلاثين إلى الأربعين عامًا.. مما دفع إسرائيل إلى أن تنشئ المفاعل الأخير السابق ذكره.

ولعلنا جميعًا نذكر ما أصاب البشرية من رعب جراء ما نتج عن انفجار مفاعل تشيرنوبل وإليك أيها القارئ العزيز ما سجل عن هذا الحدث:

«أكد المسافرون من مطار مدينة (كييف) ثالث أكبر مدن الاتحاد السوفييتى أن إعصارًا غريبًا قد هبط عليهم واجتاح المدينة وتسربلت أرضهم بالظلام المفاجئ.. كما لو كان الليل قد هبط، فعلى بعد مسافة ١٥٠كم من المدينة محل وقوع الكارثة النووية التى قرعت ناقوس الخطر أمام البشرية كلها وأنذرتهم بالخطر.. هُرع الناس إلى الفرار فى غلس الليل البهيم ولسان حالهم يقول كما قال عنترة بن شداد فى معلقته:

إن كنت أزمعت الفراق فإنما زمت ركابكم بليل مظلم

أو هم كما قال الشاعر «أبو أدهم كحيلة»:

نفى النوم عن عين المريب مدامعه وحارت به فى النازلات مضاجعه

مضى سواد الليل يطرق سلوةً ودون التأسى للمريب براقعه
تقاذفه الأفكار فى كل لجة فتبعت منه ما تكن أضالعه
يقلب عينيه بصفحة عيشه فيلقى بها سود الليالى تطالعه

قد أعلنت الأحزاب الخضراء أو جماعات السلام الأخضر والمدافعون عن البيئة فى جميع أنحاء الأرض فى ألمانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا وسويسرا وبلجيكا وغيرها، أن ما كانوا يحذرون منه قد وقع.

وقد خلف هذا الانفجار سحابة من الغبار الذرى يزيد طولها عن مائة ميل وعرضها ثلاثين ميلًا وخيمت بمخاطرها على الأجزاء الشمالية من أوكرانيا وهولندا، وفى اليوم الثلاثاء الموافق ٢٩ إبريل عام ١٩٨٦م الذى كان يومًا أسودًا فى تاريخ البشر.. وحمدًا لله أن منطقة الشرق الأوسط كانت بعيدة عن هذا الخطر الذى تولد من رحم حادث مفاعل تشيرنوبيل فلو أن حركة الرياح كانت مختلفة – كما يقول العلماء – وفى اتجاه الجنوب بدلًا من أن تكون باتجاه الشمال الغربى لكان من الحتمى أن تضرب هذه الإشعاعات بسوءاتها مناطق عديدة من الشرق الأوسط وبخاصة المناطق المحازية للاتحاد السوفييتى السابق، مثل أفغانستان وإيران وتركيا ناهيك عن بعض الدول العربية.

فهل نضرب صفحًا عن هذه اللامبالاة التى نعتنقها من خلال نظرتنا السلبية إلى البيئة.. فكيف يمكننا كما عبر «فريدريخ نيتشه» متسائلًا:

«أتريدون أن تعيشوا وفقًا للطبيعة يا أيها الرواقيون النبلاء.. تصوروا كيانًا كالطبيعة مصرف إلى أبعد حد لا مبالية إلى أقصى مدى، بلا هدف ولا علة، بلا شفقة ولا عدل، خصبة هى ومقفرة ومتقلبة فى نفس الوقت.. (كيف يمكن أن تعيش وفقًا لهذه اللامبالاة؟!)».

والـذى لا مشـاحة فيه، وكما يعبر «فرانسـيس فوكوياما» فى كتابه الهام: «نهاية الإنسان عواقب الثورة البيوتكنولوجية» والذى ترجمه إلى العربية العالم الكبير «أحمد مسـتجير».. والذى تنبأ فيه بنهاية الإنسان فى كل مكان جراء هذه الثورة.

قال هذا الكاتب فى كتابه هذا:

«إن مفهوم الكرامة البشـرية يعنى إنكار فكرة أن هناك شيئًا متفردًا فى الجنس البشرى يؤهل كل فرد منا إلى مكانة أخلاقية أعلى من بقية العـالم الطبيعى، ويقودنا هذا الإنكار إلى سـبيل خطر للغاية قد نضطر فـى نهاية الأمـر إلى ركوبه، وهنا لابد أن تكـون أعيننا مفتوحة حتى لا نمـوت كما مات الطفل الذى تحدث عنه «نيتشـه» فى مقولة له عن العلم البهيج فقال:

قسـوة مقدسـة – اقترب رجل يحمـل بين يديه طفـلاً رضيعًا، من رجل قدسـى سـأله ماذا أفعل بهذا الطفل؟ إنه مهزول مشوه، وليس به من الحيـاة ما يكفى للموت. اقتله، صاح الرجل المقدس، واحتضنه بين سـاعديك ثلاثة أيام وثلاث ليال لتخلق لنفسـك ذكرى، أبدًا لن أنجب هكذا طفلاً، إذا لم يحن الوقت. – عندما سمع الرجل هذا مضى محبطًا، ثـم عنف الكثيرون الرجل المقدس لأنه نصح بالقسـوة. لقد نصح الرجل بقتل الطفل. فسأل الرجل المقدس: لكن أليس الأقسى أن نتركه يعيش؟».

والسؤال الذى يثور: وما بالك لا تتحدث عن البيئة فى مصر؟

وتأتـى الإجابة: إن البيئة المصرية ما هى إلا جزء من البيئة العالمية ويندرج عليها ماسبق وأن ذكرناه عن التلوث البيئى فى العالم، فهذه البيئة قد تلوث منها نهر النيل، والبحيرات، وقناة السـويس، والبحر الأبيض

المتوسط، وكذلك الأحمر، فضلًا عن التربة ناهيك عن التلوث الكيميائى الزراعى. كما أثبت هذا الدكتور «ممدوح عطية»، وأستاذ البيئة العالمى الدكتور «محمد عبد الفتاح القصاص» فى كتابهما «علوم الأرض والبيئة»، وشاركهما فى ذلك العديد من علماء البيئة ومنهم الدكتور «سيد أحمد» فى كتابه «إنهم يقتلون البيئة»، وكذلك الدكتور «محمد عبد القادر الفقى»، والدكتور «على السكرى» فى كتابه عن «التربية البيئية».

ولقد أضحى التلوث البيئى فى مصر تلوثًا عامًا انقرض بسببه الكثير من الحيوانات ومنها «نمر سيناء»، و«فهد الصحراء».

ولقد أصدر المشرع المصرى القوانين المختلفة التى سنت للحفاظ على مكونات البيئة منها القانون رقم (٤٨) لسنة ١٩٨٢م بخصوص حماية نهر النيل، والقانون رقم (١) لسنة ١٩٩٧م بخصوص المنشآت الفندقية، وكذلك القوانين المختلفة بشأن حماية الآثار، المناجم والمحاجر إلى غيرها.

ولم تفلح حتى الآن من معالجة آثار تلوث البيئة فى مصر حيث إنها لم يُكْتَفَ منها إلا بالإصدار فقط دون تفعيلها؟!

ولقد سبق للمؤتمر العالمى للأمم المتحدة الذى انعقد باستوكهولم عام ١٩٧٢م أن ناشد جميع الدول العمل على محافظة البيئة، ومن الدول من استجاب.. ومنها الذى لم يستجب، ومن بينها مصر.

ولعل من المفيد أن الدين الإسلامى كان له شأن وشأو فى الدعوة إلى الحفاظ على البيئة محذرًا من إهمالها أو العبث بها كما جاء فى ذكر آيات الله البينات.

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. [سورة الروم: الآية ٤١].

كما قال: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾. [سورة الشورى: الآية ٢٧]

وقال ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾. [سورة الشعراء: الآية ١٥١-١٥٢]

وقد كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو أول من قام بإنشاء محميات للحفاظ على البيئة، لا يجوز قطع شجرها، ولا قتل حيوانها، وحمى كل ما فيها من المدينة المنورة مريدًا مربدًا.

وقال: «إنى أحرم بين مابين لابتى وبين المدينة» (ولابتى، هى الأرض ذات الحجارة السوداء) وبين المدينة أن يقطع عضاهها (وهو كل شجر له شوك)، أو يقتل صيدها).

وكان الرسول - عليه الصلاة والسلام - من الذين يسعون لإقامة توزان بين البيئة والإنسان، ويكن احترامًا عميقًا لعالم النباتات والأزهار، وعلى صلة ذات عمق مع عناصر الأرض الأربعة التراب والماء، والنار، والهواء.

ألم يكن هو القائل: «الناس شركاء فى ثلاث: فى الماء والكلأ والنار».

ومن خلال ما دعا الرسول الناس إليه للحفاظ على البيئة ذكرت «فرنسيسكا دو شاتل» وهى الكاتبة الهولندية والمتخصصة فى أنثروبولوجيا الثقافة الإسلامية - فى حديثها عن الرسول - وترجم حديثها هذا الدكتور«إبراهيم عوض» - إلى أن تقول تحت عنوان «Muhammad: A Pioneer of Environmentalism» «محمد من رواد الحفاظ على البيئة»:

«الواقع أن القول بإن محمدًا رائد من رواد الحفاظ على البيئة سوف يقع فى آذان الكثيرين موقعًا غريبًا، فكان نصرته للبيئة سابقة لعصره

من أشد ما جاء فى الحديث النبوى: «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة».

إذ لا شك أن مصطلح «الحفاظ على البيئة» وما يرتبط به من مفاهيم مثل «البيئة» و«الوعى البيئى» و«ترشيد الاستهلاك» هى ألفاظ من اختراع العصر الحديث. أىّ مصطلحات صيغت لتواجه الاهتمامات المتزايدة بالوضع الراهن لعالم الطبيعة من حولنا.

ومع ذلك، فإن قراءة الأحاديث النبوية عن قرب، أى تلك الروايات المتعلقة بالأحداث الهامة فى حياة محمد، لَتُرِينا أنه كان واحدا من أشد المنادين بحماية البيئة. بل إن بمستطاعنا القول إنه كان فى نصرته للبيئة سابقا لعصره، أى رائدا فى مجال المحافظة على البيئة والتطور الرشيد والإدارة الحكيمة للموارد الطبيعية.

لقد كان محمد من الدعاة الأقوياء للاستخدام الرشيد للأرض والماء واستثمارهما، وكذلك المعاملة الكريمة للحيوانات والنباتات والطيور، والحقوق المتساوية لمن يتعاملون معها من البشر. وفى هذا السياق فإن حداثة رؤيته للبيئة وحداثة المفاهيم التى جاء بها فى هذا المجال لما يَشْدَه العقل شَدْهًا، حتى لتبدو بعض أحاديثه وكأنها مناقشات عصرية حول قضايا البيئة.

المبادئ الثلاثة:

إن فلسفة محمد البيئية هى – أولا وقبل كل شىء – فلسفة شاملة مترابطة، إذ تقوم على أن هناك صلة أساسية وارتباطا متبادلا بين عناصر الطبيعة، كما أن نقطة انطلاقها هى الإيمان بأنه إذا أساء الإنسان استخدام عنصر من عناصر الطبيعة أو استنزفه استنزافا فإن

العالم الطبيعى برُمّته سوف يضارّ أضرارا مباشرة. على أن هذا الاعتقاد لا يُنَصّ عليه فى حديث واحد نصا مباشرا، بل يمثل بالأحرى المبدأ الذى تنهض عليه جميع أقوال محمد وأفعاله. إنه فلسفة حياته التى على ضوئها نستطيع أن نبصر ملامح شخصيته.

إن أهم ثلاثة مبادئ فى الفلسفة المحمدية المتعلقة بالطبيعة تقوم على تعاليم القرآن ومفاهيم الوحدانية وخلافة البشر والثقة فى الإنسان. ويمثل التوحيد حجر الزاوية فى دعوة الإسلام، وهذا التوحيد يراعى الحقيقة التى تقول بوجود خالق واحد للكون وأن الإنسان مسئول أمامه عن أعماله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. [سورة المائدة: الآية ١٢٠]

ويقر محمد بأن علم الله وقدرته يشملان كل شىء، ومن ثم كانت الإساءة إلى أى مخلوق من مخلوقاته، سواء كان كائنا حيا أو مصدرا من مصادر الطبيعة، ذَنْبًا من الذنوب يجازَى الإنسان عليه. وفى اعتقاده أن جميع مخلوقات الله متساوية أمامه سبحانه، وأن الحيوانات، وكذلك الأرض والغابات وينابيع المياه، ينبغى أن يكون لها حقوق تُحْتَرَم.

ويوضح القرآن أن الإنسان يتمتع بوضع متميز بين مخلوقات الله على الأرض، إذ اصطفاه ليكون خليفة فيها وينهض بمسئولية العناية بغيره من مخلوقات هذا الكوكب. وهذا واجب كل فرد فينا ووجه تميُّزه، ومجلى الثقة به. وبرغم هذا نرى القرآن مرارا وتكرارا ينهى الإنسان عن الكِبْر منبها إياه إلى أنه ليس أفضل من سائر المخلوقات: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾. [سورة الأنعام: الآية ٣٨]

وكان (محمد) يؤمن بأن الكون بما فيه من مخلوقات: حيواناتٍ كانت هذه المخلوقات أو نباتاتٍ أو مياهًا أو أرضين. لم تُخْلَق لتكون للبشر. صحيح أن لهم الحق فى استخدام موارد الطبيعة. إلا أنهم لا يمكنهم أن يتملكوها تملُّكًا. ومن هنا. ففى الوقت الذى يسمح الإسلام للإنسان بحيازة الأرض نراه يضع حدودا لذلك. فعلى سبيل المثال يمكنه أن يحوز الأرض فقط طالما كان يستعملها. لكنه ما إن يكفّ عن هذا الاستعمال حتى يصبح واجبا عليه التخلى عن هذه الحيازة.

ويعترف (محمد) بمسؤلية الإنسان أمام ربه، بيد أنه كان دائما وأبدا يدعو إلى إعمار الأرض، ومن ثَمّ نراه يقول: «إن قامت على أحدكم القيامة وفى يده فسيلة فليغرسها»، فهو هنا يبين أنه. حتى عند انتفاء كل أمل لدى للبشر، على الفرد أن يحافظ على نمو الطبيعة. لقد كان مؤمنا بأن الحفاظ على الطبيعة حسنة فى ذاتها حتى لو لم يستفد البشر منها.

وبالمثل نراه يحض أتباعه على التشارك فى موارد الطبيعة. إذ يخاطبهم قائلا: «المسلمون شركاء فى ثلاث: الماء والكلأ والنار». كما يعد حرمان العطشان من الماء إثما يعاقَب عليه: «من منع فضل مائه، أو فضل كلئه، منعه الله فضله يوم القيامة».

ومن المؤكد أن موقف محمد تجاه الاستعمال الرشيد للأرض والمحافظة على الماء والطريقة التى كان يعامل بها الحيوانات هو دليل آخر على التواضع الذى يصبغ فلسفته حول البيئة.

وأمعنوا نظركم، وأنعموا فكركم فى دعوته للاستخدام الرشيد للأرض بقولته:

«جُعِلت لى الأرض مسجدا وطهورا».

فـى هذا الحديث يؤكد محمد الطبيعة المقدسـة لـلأرض أو التربة. لا بوصفها ذاتا طاهرة فحسـب، بل بوصفها مادة مُطَهِّرة كذلك. ويَظْهَر أيضا هذا الاحترامُ للأرض فى شـعيرة التيمم التى تجيز للمسلم استعمال التراب فى الطهارة الواجبة عند الصلاة فى حالة فقدان الماء.

وينظر (محمد) إلى الأرض على أنها مُسخَّرة للإنسان، لكن لا ينبغى لـه مـع ذلك أن يفرط فى اسـتخدامها أو يسـىء اسـتعمالها، كما أن لها ذات الحقوق التى للأشـجار والحيوانات البرية التى تعيش فوقها. ومـن أجل المحافظة على الأرض والغابـات والحيوانات البرية؛ جعل (محمـد) عددا مـن المحميات، أى الأماكن التى يحرم فيها اسـتعمال المـوارد الطبيعيـة، وهو ما لا يـزال معروفا إلى اليـوم، إذ هناك مناطق ممنوعـة حول بعض الآبار وعيون المـاء غايتها حماية المياه الجوفية من الاسـتهلاك المفرط والنفاد والتلوث. ومنهـا المناطق الخاصة بالحيوانات البريـة والغابـات حيث يُمْنَع الرعى وقطع الأشـجار أو يحرم التعرض لأنواع معينة من الحيوانات بالصيد.

ولم يشـجع (محمد) فقط الاستعمال الرشيد للأرض، بل لفت أنظار أتباعه – أيضا – إلى المكاسـب التى يجنيها الإنسـان من إحياء الأرض البور، إذ جعل زرع شجرة أو غرس بذرة أو سَقْى أرض عطشى من أعمال البر والإحسان:

«و من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر».

وعلى هذا فأيما شخص ساق الماء إلى قطعة أرض قاحلة فهى له.

المحافظة على الماء:

فى البيئة الصحراوية الخشـنة التى كان يعيش فيها (محمد) يُعَدّ الماء مرادفـا للحياة، فهو نعمة من الله. بل هو أصل الحياة كما يشـهد بذلك

القرآن: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. [سورة الأنبياء: الآية ٣٠]. ويذكر (القرآن) المسلم على الدوام بأنه خليفة الله فى الأرض، لكن لا ينبغى له مع ذلك أن يأخذ الأشياء المخلوقة على أنها أمرٌ مسلَّمٌ به: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾. [سورة الأنعام: الآية ٣٨]

كذلك كان الاقتصاد فى الماء والمحافظة على طهارته قضيتين مهمتين عند (محمد). ولقد رأينا كيف أدى اهتمامه بالاستخدام الرشيد للماء إلى إقامة المحميات بالقرب من ينابيعه. وحتى عندما يكون الماء متوفرا نراه ينصح بالاقتصاد فى استعماله. ومن ذلك نهيه عن غسل أعضاء الوضوء أكثر من ثلاث مرات حتى لو كان المتوضئ على نهرٍ جارٍ. ويضيف (البخارى) قائلا: «وكره أهل العلم الإسراف فيه وأن يجاوزوا فعل النبى صلى الله عليه وسلم». وبالمثل نهى محمد عن تلويث المياه، وذلك بمنع التبول فى الماء.

معاملة الحيوانات:

يقول (محمد): «من قتل عصفورا فما فوقها بغير حقها سأله الله عز وجل عنها يوم القيامة». وهو حديث يعكس إجلال محمد واحترامه وحبه للحيوانات. ذلك أنه كان يعتقد أنها، بوصفها خلقا من خلق الله، ينبغى أن تحظى بمعاملة كريمة، ففى الأحاديث النبوية عدد ضخم من الروايات والتوجيهات الخلقية والقصص التى ترسم لنا صورة عن علاقته بالحيوانات. وبعض هذه القصص ترينا أنه كان يهتم اهتماما خاصا بالإبل والخيول: فهما فى رأيه نعم الرفيق فى الأسفار والحروب، كما كان يجد كثيرا من الراحة والحكمة فى صحبتهما حسبما يقول لنا الحديث التالى: «الخيل معقودٌ بنواصيها الخير إلى يوم القيامة».

وحتى فى ذبح الحيوان نجده يبدى قدرا عظيما من الرقة والمرحمة. وعلى الرغم من أنه لم يكن نباتيا فإن الأحاديث تبين لنا بوضوح أنه كان حساسا للغاية تجاه معاناة الحيوانات حتى لكأنه كان يشاركها ألمها مشاركة وجدانية. ومن هنا نجده يأمر باستعمال سكين حاد فى الذبح واتباع طريقة مسئولة من شأنها أن تزهق روح الحيوان سريعا بحيث يخف ألم الذبيحة إلى أقصى درجة ممكنة. كما نهى عن ذبح أى حيوان أمام غيره من الحيوانات أو إحداد الشفرة بحضرته. وإلا فكأنه قد ذبحه مرتين حسبما جاء فى حديثه لمن كان يُحِدّ شفرته فى حضور ذبيحته. إذ قال له مستنكرا: «أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها؟». لقد كان يكره ذلك كراهية شديدة.

وختاما:

نقول إنه من المستحيل إيفاء المدى الذى بلغته فلسفة (محمد) البيئية. وكذلك الأهمية التى تستأهلها، حقهما فى هذه المقالة القصيرة، فرؤيته الشاملة للطبيعة وفهمه لمكان الإنسان داخل العالم الطبيعى هما رؤية وفهم رائدان فى مجال الوعى البيئى لدى المسلمين.

ومن أسف فإن الانسجام الذى دعا إليه (محمد) بين الإنسان وبيئته قد تم تجاهله فى أيامنا هذه إلى حد بعيد. وفى الوقت الذى نواجه فيه آثار التلوث والإسراف فى استخدام موارد الطبيعة والتصحير وشح الماء فى بعض الأماكن فى العالم مع المعاناة من الفيضانات والعواصف فى غيرها من الأماكن ربما يكون من الملائم بالنسبة لنا جميعا: مسلمين، ونصارى، ويهودًا، وهندوسًا، وبوذيين، وملاحدةً أن نأخذ ورقة من كتاب محمد ونواجه الأزمة البيئية الحاليّة بجِدٍّ وحكمة.

وقد بين الله تعالى فى كتابه الكريم أن (الإفساد) هو السبب الأول فى تلوث البيئة فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٥]

وكذلك ذكر الله فى آياته ما يؤكد أن ثمة علاقة وطيدة بين حصول الفساد ومعصية العباد.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۚ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٤ – ١٧]

يقول غوته «GOETHE» الذى أدرك ما جاء فى الإسلام وفى كتاب الله الكريم: «إذا كان الإسلام معناه، أن نسلم أمرنا لله، فنحن على الإسلام نعيش ونموت كلنا».

وإذ عقد علماء البيئة فى فرنسا مؤتمر باريس فبراير ٢٠٠٧م، فقد انعقد رأى ما يزيد عن خمسمائة عالم من مختلف دول العالم على أن نسبة التلوث بدأت تتجاوز حدودًا لم يسبق لها مثيل من قبل فى تاريخ البشر مما يؤدى إلى إفساد البيئة فى البر والبحر.

ففى البر فسدت التربة ومعها المياه الجوفية والنبات حيث اختل التوازن النباتى على اليابسة.

ففى البر بدأت الكتل الجليدية بالذوبان بسبب ارتفاع حرارة الجو وكما ذكرنا سالفا.

كما ذهبوا إلى أن الإنسان فى كل مكان هو المسئول عن فساد البيئة بسبب تزايد نسبة الكربون فى الجو. حيث تضاعفت نسبته إلى أكثر من عشرة أضعاف منذ بداية الثورة الصناعية.

هذا هو ما دعانا إليه الدين الإسلامى.. وما حثنا عليه رسوله الكريم. فهل نحن فاعلون؟!.

❑❑❑

مشكلة السكان فى مصر

كرَّم الله مصر بذكرها فى كتبه السماوية التوراة والإنجيل والقرآن.

إذ جاء فى القرآن ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. [سورة يوسف: الآية ٢١]

كما ورد فيه: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾. [سورة يوسف: الآية ٩٩]

وذكر فى الإنجيل: «مبارك شعبى مصر» (إش ١٩: ٢٥)، «إذ يعرف الرب فى مصر ويعرف المصريون الرب فى ذلك اليوم ويقدمون ذبيحة وتقدمة وينذرون للرب نذرا ويوفون به». (إش ١٩: ٢١)

وكذلك فى التوارة: «للشعب تقول تقدسوا للغد فتأكلوا لحما لأنكم قد بكيتم فى أذنى الرب قائلين من يطعمنا لحما أنه كان لنا خير فى مصر فيعطيكم الرب لحما فتأكلون». (عد ١١: ١٨)

واسم مصر بالعربية هو «مصر» أما بالقبطية فهو «كيمى Kemy»، وباللغة المصرية القديمة فهو «كيمت Kemet» وتعنى الأرض السوداء، وهى فى قديم الأزل «مصرايم» نسبة إلى ابن نبى الله نوح عليه السلام وهى باللغة الإنجليزية Egypt مشتقة من Egyptor أى قبطى.

ويذكر الدكتور «محمد رياض» فى سفره عن «مصر.. نسيج الناس والمكان والزمان» أن ما بين كيميت وتشريت شرقها وغربها صورة متناهية

الصغـر حالة ما بين النجوم والثقوب السـوداء فى عوالم مجرات الفضاء Stars and Black holes.

ومـن المعروف أن «النجم» حين يبلغ مـن العمر أرذله، تتركز معظم مادتـه فى حجم بادى الصغر، بيد أنه شـديد الثقـل ذو جاذبية تبتلع كل أشـكال المادة التى تدنو منها فتضحـى هى الأخرى غير مرئية بعد سقوطها، ومواتها فى دائرة الجذب فى الثقب الأسود.

وهكذا حـال مصر.. «كيمت» الأرض السـوداء تبتلع كل من يأتيها ويقترب منها عبر «دشربت» **الأرض الحمراء**. بعبارة أخرى كل من أتى مصر من مجموعات وشـعوب شمال إفريقيا والشـرق الأوسـط والجنوب وغرب آسـيا ووسطها، كل هؤلاء سرعان ماتمتصه الحضارة المصرية فلا يبقى منه سوى بقايا خاصة طوال فترة سيطرة الأغراب عليها إذ تتلاشى وتتوه وسـط خضم الحضـارة التى ابتلعتـه، وإن بقيت بعض ملامحها فى النسـيج المصرى الثقافى كونها إضافة من الإضافات العديدة يتقبلها الناس بسماحة ودون تعصب أوعنصرية!.

وبعبارة وجيزة: فإن مصر كانت الحد الفاصل الجاذب الهاضم العاصر بين شـعوب ودول الشرق والغرب والشـمال والجنوب حولها فيتحولون إلى مصريين بنكَهات مختلفة بعض الوقت. البربر والساميون، واليونان، والرومـان، والعرب، والأتراك، والزنوج، والزنجانيون (شـعوب خليط بين سـلالات شماليـة وزنوج) كلهم خليط دخلوا مصـر وذابوا فيها ولا تعرف لهم سحن معاصرة سوى ما تركوه من فنون وتصاوير على جدران القبور أو هياكل أجسادهم «إذا لم يعتريها العدم»، أو بعض سواد البشرة وخشـونة الشعر، أو بياض البشرة ودرجات شـقرة الشعر والعين.. كل ذلك على خلفية اللون «القمحى» السائد بين المصريين.

ومصـــر كما يذكر «ديودور الصقلى» فى القرن الأول قبل الميلاد كانت تبز ســائر أرجاء المعمورة فى كثافة الســكان وكان يوجد بها فى العصر القديم حوالى ثمان عشــرة ألف مدينة وقرية ذات شــأن وشأو، كما ثبت فى الوثائق المقدســة. أما فى عصر «بطليموس بن لاجوس» فقد عُد منها أكثر من ثلاثين ألفًا من هذه المدن وتلك القرى لما تزل موجودة حتى الآن.

روى المؤرخــون «أن رومــا كانــت تطلق على الصحراء الغربية اســم «مخــزن الغــلال»، إذ كانت مصر تمــد روما بــكل ماتحتاجه من غذاء أوكساء وأنه كان يقطن فى هذه المنطقة حوالى ثمانية ملايين نسمة».

ويقدر بعض المؤرخين عدد الســكان فــى العهد الفرعونى بما يتراوح بين ٧ و ١٢ مليون نسمة.

ويذكر «الصقلى» أن عدد سكان مصر فى العصر القديم سبعة ملايين نسمة.

قد أجرى تقدير العدد السكانى فى العهد الإسلامى فتبين أن عددهم يقرب من ١٤ مليون نســمة انخفض إلى درجة كبيرة خلال فترة الحكم التركى، وفى بداية القرن التاسع عشر أصيب بنكسة كبيرة.

وقد قدر العالم «جومار» – أحد علماء الحملة الفرنسية – عدد سكان مصــر عام ١٨٠٠م بحوالى ٢,٥ مليون نســمة، وفــى عام ١٨٢١م أجرى «محمــد على» تقديرًا للســكان من واقع كشــوف الضرائب وبلغ عددهم حوالى ٢,٥ مليون نسمة، كما أجرى تعداد آخر للسكان فى عام ١٨٤١م طبقًا لعدد المســاكن فى البلاد فبلغ حوالى ٤,٥ مليون نســمة، وفى عام ١٨٨٢م بلغ عداد السكان سبعة ملايين نسمة.

ومصر عالميًا تجىء فى الترتيب السادس عشر من حيث عدد السكان، ومائة وســبعة وعشــرون عالميًا من حيث كثافة الســكان، وفى الترتيب

الثالث إفريقيا من حيث تعداد السكان بعد نيجيريا وأثيوبيا. والترتيب الأول عربيا من حيث تعداد السكان.

ويبلغ عدد سكانها الآن ما يربو عن التسعين مليون نسمة طبقًا للتعدادات السكانية «Population Census»، التى كان الهدف منها فى عهد الحضارات القديمة مقصورًا على معرفة عدد السكان الصالحين للتجنيد ثم - وبالدرجة الثانية - فرض جباية الضرائب عليهم.

أما الآن فإن معرفة عدد سكان أية دولة فالهدف الأول منه هو العمل على زيادة الإنتاج والمضى قدمًا فى التنمية حتى تغطى حاجات السكان الأساسية.

والسؤال الذى يثور - مع ما أكدته الدراسات العالمية أن زيادة هائلة فى عدد السكان تنتظر مصر فى السنوات القليلة القادمة -.. كيف ستواجه مصر هذا الأمر أى الزيادة المضطردة فى سكانها؟

وقد كان لنا بحثًا بخصوص مشكلة السكان فى مصر فاز بالجائزة الأولى من جامعة القاهرة ومن الإدارة العامة للثقافة ووزارة التعليم العالى نوجزه فى الآتى:

إذا كان القول القائل: «إن المرء لا يشيخ إلا إذا شاخت آماله» صحيحًا، فإن هذا ينطبق أيضًا على البلاد، فالبلاد كما ذكرنا فى مقال سابق تشقى وتسعد وتولد وتنمو وتموت، ولكنها تختلف فى أنها إذا قر عزمها ووطدت إرادتها على ألا تموت فإنها تحيا، وتظل هكذا إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

وإذا كان البعض يرى أننا - بصدق - علينا بصدد محاولتنا لإيجاد حل ناجح لمشكلتنا السكانية قول الملكة فى خرافة «أليس» فى مدينة العجائب «إننا نسير وبسرعة فائقة إلا أننا نظل فى مكاننا دون تقدم»!! وكأننا نعود القهقرى إلى الخلف.

إن كان ذلك كذلك، بيد أننا إذا تسلحنا بالآمال واتخذنا الحكمة القائلة:

«سر على مهل تصل سريعًا»، كما عبر الفيلسوف الألمانى «اشبجن» رمزًا وديناً فى معالجتنا لمشكلة السكان فى بلادنا فعندنا أن الظفر سيكون حليفنا ولو على المدى الطويل وسنصل إلى إيجاد توافق عادل بين قدراتنا وما يعتور طريقنا من عقبات».

وإذا كان البعض قد اقترح هجرة خارجية يقوم بها المصريون من الراغبين فى الترحال مثلما حدث فى أوربا وأمريكا وهولندا وأسبانيا وغيرها من الدول، فإننا نرد عليهم بأن المصريين بصفة عامة عازفين عن الهجرة الخارجية فالمصرى بطبعه وطبيعته مُحب لوطنه متشبث بأرضها لا يرضى عن ترابها بديلاً.. وفى كتاب «سكان هذا الكوكب» الصادر عام ١٩٤٧م يقول: «الدكتور محمد عوض محمد»: «إن المصرى لم يكن فى تاريخه الطويل بالشخص الذى يحب النزوح عن وطنه ومن المشاهد – للأسف – أن كثيرين قد آثروا البقاء مع الفاقة على طلب الغنى فى أرض غير هذه».

ثمة وجهة نظر أخرى أثارها (Thompson) وهى: «إن الهجرة إذا تمت على فرض وجود وسائل النقل والأراضى العذراء وهما فرضان رفضهما بعض العلماء، فإن الهجرة – حتى لو تمت – فإنها لا تحل مشكلة الازدحام السكانى الذى يوجد فى مناطق القاهرة».

ونرد على هذا الاعتقاد أن الهجرة وهى تنزع الملايين من منطقة الضغط السكانى ستخفف من ضغط السكان على موارد العيش، وثمة نظرية جغرافية تقول: «إن منطقة الفراغ تجذب منطقة الضغط، وسوف تتحسن الصحة العامة وتقل الأوبئة والأمراض وبالتالى يعمل هذا عمله

فى انخفاض معدلات الوفيات، أما معدلات المواليد فلا ينتظر انخفاضها نظـرًا لإقبال الأفـراد الباقين فى الداخل – وهم الكثـرة الغالبة – على الـزواج والإنجـاب وعنـد ذلك يصبح الموقـف الديمجرافـى كما يلى: انخفاض ملموس فـى معدلات الوفيات بينما تظل معدلات المواليد على حالها من الارتفاع وربما ازدادت ارتفاعًا هنا تحدث الزيادة الطبيعية فى السكان بشكل معوض من عدد الأفراد الذين هاجروا إلى الخارج.

ومع إيماننا بجدوى التنمية الاقتصادية وأهميتها سـواء التى تم منها أو التـى لم تتم بعد تنفيذها فى الميدانـين الصناعى والزراعى بقطاعتها المختلفة فإننا نؤمن بأن:

«الموارد الاقتصادية أشـبه برجل يمشى الهوينى وراء حصان جامح، وبالتالى لن يستطيع اللحاق به مادام محتفظًا ببطئه ومادام الحصان على جموحـه. ومن ثم لن تتمكـن التنمية الصناعية أن تلحق بالسـكان فى نموهم إلا إذا زدنا من سرعة الرجل وقللنا من سرعة الحصان».

هـل لنـا أن نقـترح – دون أن ترتفع العقائـر بمهاجمتنا – تكوين حمـلات تدعو إلى تنظيم النسـل. نقول تنظيم النسـل وليس تحديده، فلقـد آن الأوان أن نبـدد ما ران على الأذهان أن هـذا العمل ما هو إلى الكفر المبين.. وجاء على لسـان «عمرو بن العاص» وهو يخطب فى أهل مصر: إياكم وخلال أربع فإنها تدعو إلى التعب بعد الراحة، وإلى الضيق بعد السـعة، وإلى الذلة بعد العزة.. إياكم وكثرة العيال وانخفاض الحال وتضييع المال، والقيل بعد القال.

وفـى الفتـوى الصادرة مـن دار الإفتاء برقم (٨١) سـجل (٤٣) فى ٢٥ يناير سـنة ١٩٦٢م وفى حديثه مع الكاتبة «هان سـون» ذكر شيخ الأزهر أنه يوافق على (تنظيم النسـل) وليـس (تحديده) إلى الحد الذى

لا يضر بالأمة ويفقدها العدد الكافى من القوة العاملة فى المزارع والمصانع وصفوف الجيش للدفاع عن البلاد وهى شروط تتوافر فى مصر إلى حدٍ بعيد.

وفى ١٠ مارس عام ١٩٥٣م أفادت لجنة الفتوى بالجامع الأزهر أن استعمال دواء لمنع الحمل مؤقتًا (لا يُحرم عند الشافعيين).. أما استعمال دواء لمنع الحمل دائما (فهو حرام).

أما عند الدين المسيحى فإن مجموعة القوانين الكنسية وإن كانت قد قضت بأن الهدف من الزواج هو الإنجاب... إلا أن الكنيسة الكاثوليكية قد أعطت ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

وفى كتيب صغير معد للتوزيع على الشباب بكنيسة «اللوثرين» جاءت فيه جملة تقول:

(نذكر دائمًا أن الأطفال ميراث من الله، وتحديد النسل رخصة إلهية يجب ألا يساء استعمالها، والأطفال نتيجة حتمية لأى زواج ناجح).

وقد صرح الرئيس الراحل «جمال عبد الناصر» ذات يوم أن اعتقاده أن مشكلة تنظيم النسل لا تحل إلا عن طريق العلم وحده.

وأمامنا باب لم نلجه حتى الآن وهو الهجرة الداخلية أو ما تسمى الهجرة الموسمية وهى تقع داخل حدود الوطن نفسه، وأمثال هذه الهجرات معروفة وطبقت بنجاح يدعو إلى الإعجاب، وترسم الخطى فى بلاد عديدة.

وها هى ذى الولايات المتحدة الأمريكية فى فجر نهضتها يهاجر الكثير من أبنائها بعد تحرير الرقيق من جنوبها إلى شمالها حيث المراكز الصناعية آنذاك.

وفرنسا هى الأخرى عرفت – ولازالت – مثل هذه الهجرات فيهاجر السكان من هضبتها الوسطى إلى جهات أخرى مثل حوض باريس وغيره.

أما لندن فقد هرع عمال المناطق الشرقية وأسرهم إلى الجهات الجنوبية للعمل فى حقولها واستثمارها.

ولما كان ذلك كذلك وكانت فى بلادنا مناطق عديدة لم تمتد بعد يد التعمير إليها. فلماذا لا ينظم المسئولون مثل هذه الهجرات الداخلية للراغبين فيها وهم بالملايين للانتقال إلى مثل هذه البقاع وتعميرها.

فالصحراء الشرقية وسيناء كانت ولا تزال كنز مصر المدفون فى باطن الأرض بين الرمال والجبال والسيول والوديان تبلغ مساحتها ٢٢٣٠٠٠ كيلو متر مربع أسهمت عبر آلاف السنين فى نشأة الحضارات الإنسانية وبنائها بثرواتها المعدنية من ذهب ونحاس وحديد وزمرد، وزبرجد، وفيروز وكانت مرتعًا خصبًا للمغامرين الذين ينهبون ثرواتها ويستولون على كنوزها.. ومثال إسرائيل شاهد على ذلك إبان احتلالها لها بعد حرب ١٩٦٧م.

وإنها وإن كان قد تراجع دورها فى التنمية الاقتصادية وللعجب منذ العصر البلطمى فإن الاقتصاد المصرى ينتظر أن يلعب دوره فى هذه المنطقة الحيوية من بلادنا.

والتى بمكنتها أن تنوع من مصادر الاقتصاد المصرى، ولاسيما أن شعاع بريق الذهب المصرى بدأ يلمع فيها من جديد فلقد كانت مصر فى الأحقاب الفرعونية تمثل أكبر مستودع للذهب فى العالم القديم.

لقد ذكر عالم جليل هو الدكتور «محمد لطفى عبد الخالق» العميد السابق لكلية العلوم بالقاهرة: أن المصريين المحدثين لم يكتشفوا مناجم

جديـدة للذهب غير التى اكتشـفها قدمـاء المصريين. ويردف هذا العالم الجليل: إن هناك مناطق كثيرة بالصحراء الشـرقية يمكن أن يسـتخرج منها الذهب ناهيك عن معادن أخرى مطمورة فى الجبال وباطن الوديان بهـذه الصحـراء، هذا فضلاً عن وجـود اليورانيوم مع خام الفوسـفات وإمكانية الاسـتفادة منه فى مشـاريع المحطـات النووية، بالإضافة إلى الحديـد الذى يحتل المركز الأول فى تجارة المعـادن الدولية. فإن هذه الصحراء الشـرقية ذاخرة بتكوينـات الحديد الطبقية فى أكثر من ثلاثة عشـر موقعًا من أبرزها: أبو مروات، ووداى كريم، ووادى الدباح، وأم خميس الزرقاء، وأم نار، ووادى الدب، ووادى العش.

وتأتـى الصحراء الغربية التـى يراها العلماء، الأولى فى صحراء العالم نظـرًا «لشـدة قحولتهـا» وما تحويه مـن ظواهر نادرة وتنـوع بيولوجى وجيولوجـى لا مثيل له فى كل الدنيـا. رصدته كتب بالغة الثراء. ولعل أغرب ما تحكيه هذه الكتب ما سجلته أول رحلة صحفية لصحفيين من جريـدة الأهرام عام ١٩٣٦م حيث اجتازوا هذا المجهول حتى وصلوا إلى حدود السـودان وقاموا بتصوير كهوف إنسـان العصر الحجرى فى هذه الصحراء الغربية التى اكتشـف فيها الحديد بكميات كبيرة فى الواحات البحرية كما سجل كاية عام ١٨١٩م، وزيتل، رولفس، وليونز، وغيرهم من العلماء، وجاءت أحدث الاكتشافات على يد العالم الجيولوجى الكبير الدكتور عبده عبده البسـيونى فى ١٩٦١/٩/٢١م اسماها «منطقة الجديدة لخام الحديد» ويعتبر ما اكتشفه أكبر منجم حديد فى مصر حتى تاريخه؛ لقـد ذكر ذلك فى كتابه «خـام الحديد فى مصر.. مواقع استكشـافه.. الدراسـات الجيولوجية – نظريات تكوينه، وتفضل هذا العالم فأهدانى

سفره العلمى هذا، الذى عكفت على استقرائه وتأكد لى أن هذا الاكتشاف الفريد ينبئ عن طفرة اقتصادية هائلة تنتظر مصر من خلاله.

وقد عرض فى كتابه هذا عرضًا علميًا موسوعيًا من خام الحديد فى مصر تعرض فيه إلى «جيومورفولوجية» مصر وسياستها التعدينية والمشروع القومى لاكتشاف خام الحديد فيها.

وذكر فى مقدمته لكتابه أن المصريين القدماء قد عرفوا صناعة الحديد باستخدامه فى تصنيع الأسلحة وأدوات قطع الأحجار وكذلك فى بناء الأهرامات والمعابد، وكان ذلك يعود إلى اكتشاف خام الحديد فى أرض مصر.

كما تكلم عن منشأ الحديد «Source of Iron» بالواحات البحرية ووجود صخور «البازلت» فى كل من منطقة «الهفوف» و«مندیشة» و«معيسرة» على نفس محاور التراكيب الجديدة.. هذا الحديد الذى لو أولت له مصر اهتمامها وقرأ المسئولون ما ورد بهذا الكتاب العلمى الدقيق ليتيقنوا أن مصر تموج بثروة معدنية ضخمة تبشر بمستقبل اقتصادى زاهر لها.

ولاسيما أن الصحراء الشرقية – هى الأخرى – تزخر بهذا المعدن النادر الذى نزل من السماء هبة من الله لمصر والمصريين وقد صدق الله تعالى حين قال:

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. [سورة الحديد: الآية ٢٥]

وقد كانت هذه الصحراء فى غابر الزمان قاعًا من البحر ثم عادت بعد ذلك إلى البر، بعد أن توالت عليها أربعة عصور ممطرة خلفت كمًا هائلاً من الحفريات منتشرة ومنتثرة فى أرجائها من شجيرات

المانجروف، والشعاب المرجانية المتحجرة، والأصداف البحرية، وهياكل القروش، والحيتان، وأيضا الديناصورات العملاقة. كما تركت بصمات جيولوجية بالغة الثراء والندرة مثل الصحراء البيضاء، والصحراء السوداء، وجبال الكريستال، واثنى عشر منخفضا، وكهوفا، ومغارات، وعلى رأسها كهف. وادى ستور بمحافظة بنى سويف، وهو كهف يقع بباطن الأرض، وسط عروق الألابستر. وأيضا كهف جاره بواحة الفرافرة بالصحراء الغربية. ثم هناك عدد كبير من الكهوف والمغارات بمنطقة العوينات والجلف الكبير.

ومن عجب أن كشوفًا مازالت تترى تكشف فى كل يوم عن بصمات جيولوجية بالغة الأهمية كما سبق ذكره وبيانه وقد عثر فى واحة الفرافرة على كهف سمى بالكهف الأبيض عمره يمتد إلى آلاف السنين، وعلى جدرانه منحوتات لكهوف سباع، ويرى الرائى فيها أدوات الإنسان الأول المصنوعة من شظايا الحجارة مثل رؤوس الأسهم، والحراب، وأدوات القطع، وبقربه شكل هرمى مكون من أحجار زجاجية بنفسجية بارتفاع أربعة أمتار، ولا وجود لمثل هذا التشكيل فى أى مكان قريب مما يشكل تكوينًا جيولوجيًا بالغ الروعة.

وسوف يرى الرائى فيها منتجعات وفنادق بيئية تعتمد فى بنائها على الخامات الطبيعية المحلية مثل فندق الجبل الأبيض بواحة سيوة الذى احتل المرتبة السابعة وسط فنادق العالم البيئية.

ولطالما تحدث المتحدثون ممن جابوا هذه الصحراء عن «واحة سيوة» والتى يطلق عليها «واحة آمون» المرتبطة «بالإسكندر الأكبر المقدونى» الذى بعد أن استولى على مصر وشرع فى إنشاء مدينة الإسكندرية خطر

لـه أن يزور معبد آمون بسـيوة الذى قد نال شـهـرة عمـت آفاق العالم القديم بأسره وفى شتاء عام ٣٣١م خرج الإسكندر بموكبه من الإسكندرية يصحبه بعض رفاقه مع وحدات من الجيش متجهين إلى ناحية الغرب.. إلى باراتونيم (مرسى مطروح) حاليا ومنها إلى الجنوب فى طريق القوافل المعروفة باسم سكة السلطان. ويحكى أنه بعد أيام نفذ الماء الذى بحوزتهم فاستولى الرعب على الجميع وحاروا فيما يفعلون، إلا أن العناية الإلهية قـد حلت عليهم. فقد هطلـت أمطار غزيرة مع أن هـذه المنطقة نادرة المطر، وبذلك استطاعوا ملء جرارهم من مياه هذا السيل العارم ولكن بعد عدة أيام هبت عاصفة رملية شـديدة من الجنوب وضاعت معالم الطريق وفجأة ظهر لهم طائران يحلقان فى السـماء وفى الحال أصدر الإسكندر أوامـره بأن تتبعهم القافلة قائلا: إن هذين هما رسـولان من آمون وعلى هداهما وصلوا إلى سـيوة ويبدو أن الإسـكندر لم يخبر كهنة آمون بهذه الزيـارة ولذلك ومن ثم بدت الدهشـة عليهم. وعندما رأى أهل سـيوة وكهنـة آمون القافلة القادمة فى الحال خرج الكهنة لاستقباله ورافقوه حتـى معبد آمون وعلى بابه وجد الكاهن الأكبر يدعوه إلى أن يدخل إلى الصومعة الداخلية لكى يستشير آمون بنفسه، إكراما لشخصه. ومكانته. ولما خرج بدا عليه السعادة والرضى ولما سأله صحبته بعد ذلك عما حدث رفض أن يبوح بشىء من هذه الأسرار وأعلن أنه لن يبوح بها إلا «لأمه» ولكنه انتقل إلى بارئه قبل أن يصل إلى والدته، وورى الثرى. وهو يخبئ فى صدره الأسرار التى قالها له آمون. وقد اكتشف الرحالة الذين شدوا رحالهـم إلى هذه المنطقة أقدم آثار لأقدام بشـرية على وجه الأرض قدر عمرها بثلاثة ملايين عام.

ناهيـك عما يوجـد بهذه المنطقة «عيون بئر كيغـار»، «معبد الوحى أو التنبؤات»، و«جبل الموتى» الذى يوجد به آلاف المقابر المنحوتة أعلى الصخور ويرجع تاريخها إلى العصر البطلمى أو الرومانى المتأخر وتحوى هاتيك المقابر زخارف ونقوش لأهم الملوك، والعظماء من أهمها:

«مقبرة سـى آمون، مقبرة التمسـاح، جزيرة فطنـاس، مقبرة نى بر باجحوتى، جبل الدكرور».

هذه الأقاليم وتلك الأصقاع وهاتيك البقاع التى تزخر بها مصر وكثافة السـكان فيهـا جد قليلة.. ألا نعمـل على نزوح المصريـين إليها حتى نخفف عن مصر الأقاليم السـكانية المتخمة بالسكان منها أو العمل على سـن قانون يلزم المصريين على اختلاف نحلهم وتبين وظائفهم وأعمالهم يلزمهم بأن يعملـوا بهاتين الصحراوين الغربية والشـرقية، وأن يقوموا بتشـجيع من الحكومة المصرية بتعميرها والعمـل على نهضتها.. فهى الوجه الباسم الجميل لمستقبل مصر الوضاء.

أما مشـكلة سـكان القاهرة.. هـذه المدينة التى اكتظت بسـكانها، وأوشـكت على أن تتوقف حركة الحياة فيهـا من هذا التكدس الغريب العجيب للسكان الذين حلا لهم سكناها.

فإننا نـرى أن أوجه الآراء فى هذا الصدد هو نقل الوزارات المختلفة الموجودة بها.. فلماذا لا تنقل مثلًا وزارة الزراعة إلى طنطا فى وسط الدلتا فى إقليم اشـتهر بالخصوبة وازدهار إنتاجـه الزراعى.. ووزارة الصناعة كذلك على سبيل المثال.. لماذا لا تنقل إلى أسوان مركز السد العالى وبقية الوزارت كل فى المكان المناسب لرسالته.

هذه هى مشكلة السكان.. وذاك – كما نعتقد – هو علاجها.

وقد صدق صاحب كتاب «المدينة على مر العصور» «City in history» حين قال فى كتابه هذا:

«وعظات التاريخ تدل على أن مثل هذا التركيز للتراكم السكانى فى بلدان معينة لذاتها كان فى حالات متكررة دليلاً على حلول المرحلة الأخيرة للمدينة قبل انهيارها وسقوطها».

❑❑❑

مشكلة المخدرات

عبر عقـود طويلة من الزمن قد خلت، فقد عملت فى بواكير حياتى قاضيًا لجنوب الوادى، وتنقلت خلال مدة تنيف عن العشر سنوات بين النيابات المختلفة، ثم توسـدت كرسـى القضاء فى هاتيك النيابات ومع العـدد العديـد من القضايا التى نظرتها لم أجد عددًا يترى يومًا بعد يوم خلال ساحات المحاكم التى عملت فيها مثل قضايا المخدرات.

كانت هاتيك القضايا هى القاسـم المشـترك الأعظم فى جل القضايا التـى أمعنت فيها نظـرى وأنعمت فكرى، تراوحت هـذه القضايا بين التعاطى. والاسـتعمال الشـخصى، والإتجار، وبين الحيازة والإحراز، ناهيك عن قيام بعض المتهمين بالعكوف على أراضيهم الضئيلة المسـاحة التى لايكفى نتاجها من الأموال التى يتحصلون عليها بعد بيع زراعتهم فى الأسـواق التى يمتلكها البعض، ويسـتأجرها البعض الآخر، ودأبهم زراعـة جزء من أراضيهم بأنواع مختلفة من المخدرات يخفونها حتى لا تقع عليهم أعين الشـرطة الساهرة على حفظ الأمن وعلى محاربة تعاطى المخـدرات أو الإتجار بها، حيث كانت الشـرطة تنجح – فى الأغلب الأعـم تنجح كثيرًا – فى إلقاء القبض على أولئك المتهمين واقتيادهم إلى قصور النيابة، أو ساحات المحاكم.

وكان العجب يأخذنى؛ إذ إن المتهمين الذين كان يمثلون أمام المحكمة هم من الفقراء المعوزين يعتورهم الهزال، ويعلو وجههم الصفرة، فهم دائمًا مصفرى الوجوه هزال الأجسام، وكأنهم أشباح جاءوا من دنيا أخرى؟!

ولقد تفشت جريمة الحيازة أو الإحراز أو الإتجار بهذه السموم القاتلة فى جنيبات الوادى بل فى ربوع مصر بأكملها ولولا تعقب رجال الشرطة لهـؤلاء الذين أجرموا فى حق أنفسـهم وعائلاتهم ووطنهم لرقدت مصر على بحر من المخدرات ليس له من مرفأ ترسو عليه.

عكفت على قراءة الكثير من الكتب التى عالجت هذا الموضوع وسبرت غوره وعللت أسبابه.

رأى «هـارس» أن الاكتئاب هو العامل الأساسـى للإدمان. اتفق معه «سميـث» فى ذلك حيث ارتأى أن المدمن شـخص قد أصابه الاكتئاب المزمن قبل اسـتخدامه المخدر وشلت قدرته، وتوقفت إرادته عن إرجاع إشباعه منها.

أمـا «كولن» فقد عزا الإدمان إلى أسـباب ثلاثـة تتحصن فى المرض والاضطرابات الشخصية وعامل الوراثة، ناهيك عن العوامل الاجتماعية الأخرى التى تدفع الإنسان إلى الإدمان.

قد رأى البعض الآخر أن إدمان المخدرات يرجع إلى البيئة التى نشأ فيهـا وترعرع بين أروقتها، من خلال مخالطته لأصدقاء السـوء، إذ إن المدمن يتأثر بمن يخالطه، (فالطيور على أشـكالها تقع)، فصديق السوء يؤثر إيجابًا فى صديقه السوى، فالأول يتأثر دائمًا ببيئته وبعض الأفلام التى يشـاهدها نتيجة اضمحلال ثقافته أو جهله التام لما يفعله أو يقدم عليـه، والبيئـة كما هى فـى رأى العلماء هى المنـزل كما جاء فى أحد معاجم اللغة العربية.

وفى دراسـة اسـككت «Schuckit» وقد أجرى دراسته على البيئة وتأثيرها على أبناء المدمنين قد أفصحت عينة الدراسـة أن بعض الأبناء الذين وقعوا فى بئر الإدمان كان آباؤهم من المدمنين.

وأثبتت إحدى الدراسات التى أجريت على مدمنى الأفيون والهيروبين بمستشفى رانجو ببروما أن ٥٣٪ من مدمنى الأفيون، و٦٩٪ من الهيروبين تعلموا كل شىء عن المخدر عن طريق آباءهم وأصدقائهم.

ولقد أضحت مشكلة تعاطى المخدرات مشكلة عالمية بخطورتها وأبعادها.

مما دعا الولايات المتحدة الأمريكية فى عهد رئيسها «جون كيندى» إلى عقد مؤتمر بالبيت الأبيض لمناقشة أبعاد هذه المشكلة الشائكة التى ضربت جنبات البيت الأمريكى، وعهد المؤتمر للجنة تسمى لجنة الرئيس الاستشارية شارك فيها عدد من علماء القانون الجنائى والطب والاجتماع ورجال القضاء ومكافحة المخدرات ارتأوا جميعًا تغليظ عقوبة تعاطى المخدرات حتى تكون رادعًا لمن تسول له نفسه اقتراف هذه الجريمة النكراء.

وما نجحوا فى هذا، مما يؤكد تفاقم هذه المشكلة العالمية.. فالمخدرات تزرع فى دولة وتنتج فى أخرى، وتنتقل عبر الأنهار والبحار والمحيطات إلى دول أخرى.

ونذكر فى هذا الصدد القضية رقم ٢٣٤٤ جنايات مخدرات السويس ففى عام ١٩٨٣م تهادت سفينة تدعى «ريفى ستار» على مرفأ مدينة السويس، وقد اكتشف على متنها كمية مهولة من المخدرات كانت فى طريقها إلى بثها وتوزيعها فى مصر وغيرها من الدول حتى ضاقت سجون العالم بمدمنى هذه السموم القاتلة.

وقد سألت مجلة القانون الوطنى التى تصدر فى الولايات المتحدة الأمريكية أحد مأمورى الضبط القضائى عن مشكلتهم الأولى فى محاربة المخدرات، فجاء رده صادمًا إذ قال فى جوابه عليه: «ضيق السجون؟!».

المخـدرات تزرع فى جميع أنحاء العالم بأنواعهـا المختلفة بدءًا من الهيروبين والكوكايين و المارجوانا و القنب الهندى الذى يستخلص منه مجموعة من مشـتقات المخدرات، كما أخبرنى أحد كبار الشـرطة وهو اللواء «باسم لبيب».

إن حربًا ضروسًا يجب أن تشرع فى وجه متعاطى ومتاجرى المخدرات يجب ألا تهدأ، لانتشـال أولئك البائسين من بؤرتها التى عمت وطمت وأمست داءً وبيلًا يهدد المجتمع برمته.

فمن يتعاطى المخدر فى المرة الأولى لا يكف مطلقًا عن تعاطيه. ولطالما ونحن جلوس فى قاعات المحاكم المختلفة قد شـاهدنا العدد الوفير من أولئك الذين وقعوا فى فخ هذا السم القاتل.

وقـد لاحظنا وجود كم هائـل من قضايا المخـدرات تمتلئ بها دور العدالة، وإذ سـألنا أحدهم ذات يوم، وقد كان قد حكم عليه فى جناية تعاطى المخدرات، وأصبح بالتالى عائدًا ينطبق عليه قانون العود من الذى دفعـك إلى هـذا؟.. فرد علينا قائلًا وقد أقر بجريمته: إننى لا أسـتطيع أن أبتعـد عن تعاطـى المخدرات فإنها تنسـينى ما أعانيـه من البلايا والرزايا؟!.

إذن صـدق من قال: «حذار مـن الكأس الأول» فالكأس الأول يجرك إلى أن تترع وأن تتجرع المزيد من الكئوس القاتلة.

وفـى تقرير خاص كتبـه «ركيل فليك» خص بـه مجلة «Readers Diegest» عثـرت عليه ضمن الكتب التـى أحتفظ بها فى مكتبتى جاء عنوانه يتساءل ويقول «من يأسه من انتشار ظاهرة المخدرات» هل نخسر حرب المخدرات؟

ونحن نرى أن الدين وحده سواء الإسلامى أو المسيحى كلاهما كفيل إذا ما انعقد عزم الدعاة على ذلك من خلال أجهزة التلفاز والصحف والمساجد والكنائس على القضاء قضاءًا مبرمًا على هذه الظاهرة المقيتة التى ترحل كل يوم بسوءاتها من بلد إلى بلد ومن بيت إلى بيت، ومن ساحات المدارس إلى باحات الشوارع حتى أصبحت تهدد مصر بالمزيد من الكوارث.

قال «الحافظ أبو بكر البيهقى» إن رجلًا جاء إليه، وكان يتعاطى الخمر (وبهذه المناسبة ندعو المشرع إلى وضع الخمر الذى يخامر العقل مثله تمامًا مثل المواد المخدرة إلى جدول المخدرات) امتثالًا لأمر الله، وقد أقلع الرجل عن تعاطيه فسأله:

– لماذا تركت الخمر؟، فأجاب: إننى أكره أن أصبح سيد قومى، وأمسى سفيههم».

وفى الأثر ورد أن أحدًا من الناس كان قد تعود على معاقرة بنت الحان (الخمر) فلعبت برأسه حتى اختلط عليه الأمر فخيل إليه أنه يرى القمر فى رابعة النهار، ويبصر الشمس فى غلس الليل، فشرع يقفز فى الهواء ليتناول القمر فى السماء ظنًا منه أنه بمكنته هذا، وأخذ يقفز ويقفز حتى انطرح أرضًا، وراح فى غيبوبة، وبعد أن أُفيق قال:

– والله لا أشربها بعد ذلك أبدًا.

ومن نافلة القول أن تعاطى المخدرات أو الإتجار فيها مقصورةً على الفقراء دون الأغنياء فكلاهما سواء بسواء، فعند غياب الدين، يغيب اليقين.

ولقد صدق أمير الشعراء «أحمد شوقى» حين قال:

كفانى ثـراء أننـى غيـر جاهـل وأكثر أرباب الغنى اليـوم جهـال

ويقول الشـاعر عـن هؤلاء الذين تنكبوا جـادة الطريق الدينى وضاع منهم محجة الثواب الذين يكتفون من الذهاب إليه إلى الإياب منه:

إذا كـانـت السمـاء قـفـرًا فنحـن لا نجـدف علـى أحـد

وإذا كـان مـن يسمعنـا فليشـملنـا بـرأفتـه

فأولئك الذين سقطوا فى بئر هذه الجريمة لسان حالهم يقول:

أبغى الأنيس فلا أرى لـى مؤنسا إلا التـردد حيـث كنـت أراك

وهم كذلك بعد ودعوا آخرتهم بدنياهم فهم قول الشاعر يرددون:

سـلام على الدنيـا ولـذة عيشها سـلام غـدو أو رواح إلى الرمـس

□□□

مشكلة المياه

الماء إذا (فاض) فهو منبع الخير والنماء.

وإذا هو (غاض) فقد أصبح سبب الوفاة والبلاء.

فالماء هو سر الحياة.

وقد وردت كلمة المياه (الماء) في آيات كريمة عديدة من القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. [سورة الأنبياء: الآية ٣٠]

وقال سبحانه:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾. [سورة المؤمنين: الآية ١٨]

كما قال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾. [سورة الرعد: الآية ١٧]

كما قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾. [سورة النمل: الآية ٦١]

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾. [سورة الواقعة: الآية ٦٨ – ٧٠]

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [سورة البقرة: الآية ٢٢]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. [سورة هود: الآية ٧]

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾. [سورة الطارق: الآية ٥ – ٧]

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾. [سورة الكهف: الآية ٢٩]

وعن الماء قال الجاحظ فى كتابه «تهذيب الحيوان»:

«قالوا: مد الشعبى (وكان من كبار حفاظ الحديث)، يده وهو على مائدة قتيبة بن مسلم يلتمس الشراب، فلم يدر صاحب الشراب: اللبن، أم العسل، أم بعض الأشربة؟ فقال له: أى الأشربة أحب إليك؟ قال: أعزها مفقودًا، وأهونها موجودًا! قال قتيبة: اسقه ماء.

وكان أبو العتاهية فى جماعة من الشعراء عند بعض الملوك، إذ شرب رجل منهم ماء ثم قال: برد وطاب! فقال أبو العتاهية: اجعله شعرًا. ثم قال: من يجيز هذا البيت؟ فأطرق القوم مفكرين، فقال أبو العتاهية: سبحان الله وما هذا الإطراق؟ ثم قال:

برد الماء وطابا حبذا الماء شرابا

وقال الله عز وجل: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] ثم لم يذكره بأكثر من السلامة من التغير، إذ كان الماء متى كان خالصًا سالمًا لم يحتج إلى أن يشرب بشىء غير ما فى خلقته من الصفاء والعذوبة، والبرد والطيب، والحسن، والسلس فى الحلق».

وقد قال عدى بن زيد:

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

وأوصت امرأة ابنتها بوصايا، فكان منها: «وليكن أطيب طيبك الماء!».

ومن الأمثال:

فأصبحت مما كان بيني وبينها سوى ذكرها كالقابض الماء باليد

وأخذ المسيح عليه السلام فى يده اليمنى ماء وفى يده اليسرى خبزًا فقال: (هذا أبى، وهذا أمى). فجعل الماء أبًا.

وما ظنكم بشراب إذا خُبث وملح فصار مِلحًا زُعاقًا، وبحرًا أجاجًا، ولد العنبر الورد، وأنسل الدر النفس، فهل سمعت بنجل أكرم ممن نَجله، ومن نتاج ممن نَسله.

وقال الله عز وجل: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾. [سورة النمل: الآية ٤٤]

لأن الزجاج أكثر ما يمدح به أن يقال: كأنه الماء فى الفيافى.

وقال الله عزّ وجل: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾. [سورة فاطر: الآية ١٢]

وقال القطامى:

وهن ينبذن من قول يُصين به مواقع الماء من ذى الغلّة الصادى

وقال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾. [سورة النور: الآية ٤٥]

فيقال: «إنه ليس شىء إلا وفيه ماء، أو قد أصابه ماء، أو خلق من ماء».

وقال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾. [سورة هود: الآية ٧]

وقال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾. [سورة ق: الآية ٩]

وحين اجتهدوا فى تسمية امرأة بالجمال والبركة، والحسن والصفاء، والبياض، قالوا: «ماء السماء»، وقالوا: المنذر بن ماء السماء.

ويقال: صيغ له ماء، ولون له ماء، وفلان ليس فى وجهه ماء، وردنى فلان ووجهى بمائه. قال الشاعر:

وقالت أم فروة فى صفة الماء:

وما ماء مزن أى ماء تقوله تحذر من غُر طوال الذوائب
بمنعرج أو بطن وإذ تحدبت عليه رياح المزن من كل جانب
نفى نسم الريح القذى عن متونه فما إن به غيب تراه لشارب
بأطيب ممن يقر الطرف دونه تقى الله واستحياء بعض العواقب

والأبيضان: الماء واللبن، والأسودان: الماء والتمر.

وسواد العراق: ماؤه الكثير.

والماء إن كان هل عمق اشتد سواده فى العين.

وهو بعد طهور الأبدان، وغسول الأدران.

وقالوا: هو كالماء الذى يطهر كل شىء ولا ينجسه شىء.

وقال النبى – صلى الله عليه وسلم – فى بئر رومة: «الماء لا ينجسه شىء».

ومنه ما يكون الملح والبرد والثلج، فيجتمع الحسن فى العين والكرم فى الصفاء والبياض، وحسن الموقع فى النفس.

وبالماء يكون القسم، كقول الشاعر:

غضبى ولا والله يا أهلها لا أشرب البارد أو ترضى

ويقولون: لو علم فلان أن شرب البارد يضع من مروءته لما ذاقه!.

ويعتبر نهر النيل أطول أنهار العالم حيث يمتد من منابعه الاستوائية حتى مصبه فى البحر المتوسط مسافة ٦٦٥٠ كم (٤١٥٧ ميلا)، ويقع نهر النيل داخل تسع دول إفريقية (بوروندى – رواندا – زائير – تنزانيا – أوغندا – كينيا – أثيوبيا وهى دول المنبع، ومصر والسودان وهى دول المصب).

ينبع نهر النيل من العديد من البحيرات والنهيرات الإفريقية مثل بحيرة فيكتوريا الاستوائية، بحيرة إدوارد الاستوائية، بحيرة ألبرت (موبوتو) وبحيرة تانا ثم يخترق النيل أراضى السودان حيث يلتقى النيل الأبيض بالأزرق ثم إلى نهر عطبرة ثم إلى أرض مصر. وتعتبر حصة مصر محصلة تاريخية وقانونية وهندسية وتعاون مشترك تجسدت مع دول حوض النيل من خلال جهود الاستفادة القصوى من مياه النيل واستقر الرأى على أن تكون حصة مصر سنويا بواقع ٥٥,٥ مليار متر مكعب سنويا ونظمت حصة مصر من خلال عدة معاهدات واتفاقيات (معاهدة أديس أبابا ١٩٠٢م - معاهدة لندن ١٩٠٦م - معاهدة ١٩٢٥م بين بريطانيا وإيطاليا - اتفاقية ١٩٥٩م بين مصر والسودان).

المشهد الاستراتيجى لدول حوض النيل

- و تعتبر أثيوبيا أهم دول المنبع بالنسبة لمصر نظرا لحجم الإيراد المائى الوارد منها فى إطار الحوض الشرقى لنهر النيل ومع ذلك فلا ترتبط أثيوبيا مع مصر بأى اتفاق تنظيمى باستثناء اتفاقية عام ١٩٠٢م بين كل من بريطانيا (المسئولة عن مصر والسودان)، وإيطاليا كانت هى (المسئولة عن الحبشة) فى ذلك الوقت وهى اتفاقية تقضى بعدم قيام الحبشة بأى أعمال على النيل الأزرق أو نهر السودان، وبحيرة «تانا» هذه هى البحيرة التى ثار بشأنها خلاف اشتجر بين إنجلترا وإيطاليا حيث كانت الأولى تطمع فى وضع يدها والاستيلاء عليها منذ أمد طويل، وقد ابتلعتها إنجلترا فى جوفها آنذاك، بعد أن قسمت الغنيمة بينها وبين إيطاليا باحتلالها لهذه البحيرة وترك يد إيطاليا تعبث فيما عداها.

ومـن الجدير بالذكر، أن مصر وقعت مـع أثيوبيا عام ١٩٩٣م إطار للتعاون يتناول موضوع استخدام مياه نهر النيل تفصيلا من خلال الخبراء على أسـاس اتفاقى للمجارى المائية الدولية المؤسـس على الاسـتغلال الأمثـل والمنصـف وعدم الضرر والتعاون بـين دول النهر. إلا أن أثيوبيا تقوم حاليا ببعض الأعمال بشـكل منفرد، وهى فى سبيلها لتشييد (سد النهضـة) الذى يؤثر على حق مصر طبقًـا للاتفاقية المعقودة بينها وبين مصـر وغيرها من الدول منذ أمد طويل من خلال الاتفاقية المعقودة معها فـى هذا الخصوص، مما يتهدد مصر ويهدد المصريين بنقص شـديد فى حقها المائى طبقًا للاتفاقات الدولية بخصوص وادى النيل.

وقد عُرف (الوادى) كما ذكر أستاذ علوم الأرض بهيئة المواد النووية الدكتور «على السكرى» فى كتابه المميز «علوم الأرض عند العرب» بأنه:

كل منفـرج بين الجبال والتلال والأكام وهو أعظم مجارى السـيل، وتقابـل كلمـة الوادى لفظ valley فى اللغـة الإنجليزية ويقصد بها فى كتب علوم الأرض نفس القصد المذكور.

وقد ذكر كتاب الجيولوجيا الطبيعية لـ «جور شكوف» أن مجارى المياه إنما تأتى من حوض النهر إلى مسايل المياه حيث تتجمع فى مجرى واحد.

وهكـذا نهر النيل الذى ربـط بمجراه بين مصر إحدى دولتى المصب وغيرهـا مـن دول المنبع التى اتفقت جميعها دون مصر والسـودان على رغبتها فى ابتلاع جزء كبير من حق مصر فى مياهها، فى جوفها.

إن مشكلة نقص المياه من مصر وما سوف يطرأ عليها مستقبلًا تشكل همًا كبيرًا على جانب عظيم الخطر بالنسبة إلى مصر.

ولقـد أوضح التقريـر الصادر عن المجلس العالمـى للمياه أنها – أى المياه – ستكون محل صراع فى العديد من بقاع العالم.

ولقد سبق لنا فى مقال قد كتبناها بجريدة الأخبار بتاريخ ٢٤/٥/٢٠٠٩م نشـر ضمن مقالاتنا المطبوعة فى كتابنا الصادر عن دار المعارف فى شهر يناير ٢٠١٣م بعنوان «خواطر قاضٍ» قلنا فيه:

(لا مشـاحة أن نقطـة الماء أصبحت تـوازى نقطة الدمـاء كما عبر «كليمنصو» رئيس الوزراء الفرنسـى الشهير منذ سنين طويلة خلت،وقد أفصحت الإحصائيات على ما يقرب من مليار نسـمة أو يزيد من سكان الأرض يعيشـون على سـطح الأرض، وليس بمكنتهم الوصول إلى المياه النقية.. وفى بعض البلدان مثل الهند فإن نقص المياه الجوفية سـيؤدى إلى إنهـاء الزراعة فيها.. وفـى الصومال – فى المناطق الريفية فلابد من السير ثلاث ساعات يوميًا من أجل الوصول إلى ماء شرب نظيفة).

وفـى كتاب «دارفور» قال مؤلفه البروفسـير «محمد سـعيد الطاهر» تحت عنوان «الجفاف كأحد أسباب الحروب»:

إن الصـراع القادم سـيكون من أجل كل قطرة ماء، وإنه سـيبدأ من جنوب لبنان وتعم المنطقة برمتها مثل سوريا وتركيا إلى جانب مجموعة دول حوض النيل مصر والسودان وأثيوبيا، ناهيك عن دول آسيا الوسطى.

وقد حذر عدد من العلماء والخبراء أن النقص فى المياه وبعض الموارد الطبيعية ستكون بذور للصراعات والحروب القادمة.

وأن بـين الخطط الجاهزة لهذه الحروب والتى حسـم أمرها من أمد طويـل هى خطـة صحبها تأمين المداخـل إلى نهر الليطانـى – Fluss Litani إلى جانب تأمين بعض مصادر المياه من الأردن وتهدف إسرائيل من هذه الحرب إلى احتلال الجنوب اللبنانى.

ويضاف إلى ذلك الدائر منذ عقود بين إسرائيل والأردن حول حصص المياه المسحوبة من الأردن.

وقد تنبأ العلماء أن ثلثا سكان العالم سيرقدون تحت خط الفقر المائى وإن بعضًا من الدول مهددة بالزوال من خلال نقص المياه.

كما سوف تنقرض بعض القبائل وتتلاشى مناطق متبانية فى بلدان معينة.. وأن هذا الأمر سيطول أجزاء من أمريكا الشمالية.

إذا كان الله سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾. [سورة الأنعام: الآية ٩٩]

فهو كذلك القائل:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾. [سورة الملك: الآية ٣٠]

صدق الله العظيم

ولعلنا ندأب السعى فى سبيل الحفاظ على حقوق مصر المائية، ولا نفرط فيها قيد أنملة، والعمل دومًا على بث ثقافة ترشيد المياه، فلا نصبح ذات يوم وقد انطبق علينا ما قاله الشاعر «ديك الجن»:

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

ولقد قص علينا التاريخ أن امرأة مصرية ريفية قد قدمت هدية من الذهب للخليفة المأمون العباسى. ولما سألها عن مصدر المال أجابت: يا أمير المؤمنين: من هذا ثم انحنت على الأرض وتناولت صفنة من الطين ورفعتها فى وجهه. وفى سفره القيم نهر النيل قال إميل لودفنج إن المياه هى لمصر الحياة.

نتضرع إلى الله ألا يأتى اليوم الذى نحمل فيه الماء على ظهورنا.

❑❑❑

مشكلة النوبـــة

ورد اسم النوبة كما اتفق المؤرخون، للمرة الأولى، فى كتاب «الجغرافيا» الذى دبجته يد المؤرخ الرومانى الشهير «إسترابون».

وقد أطلق عليها المصرى القديم منذ قديم الأزل اســم «كوش» وكذلك أسمــاء «ووالت، وتســتى» بمعنى أرض القوس، إذ إنها كانت تشــتهر بصناعة الرماح والأقواس.

ويرى البعض – وهم كثرة غالبة – أن اسمها قد اشــتق إلى الكلمات المصرية القديمة «نبو» وتعنى الذهب.

فهى جزء من نســيج مصــر ذات حضارة أصيلــة، وثقافة يونانية، وثقافة دينية تفاعل معها النوبيون بدءًا من الوثنية إلى الديانات السماوية من مسيحية إلى إسلام حتى صار جُل النوبيين اليوم مسلمين.

وقــد رأى الدكتور الأديب العالم الجليل «عمر صابر عبد الجليل» أن النوبى قد حافظ على هويته الثقافية النوبية برغم انتمائه للهوية المصرية الأصيلة.

وقد عكف علماء الحملة الفرنسية الذين أفاءوا على مصر بعلمهم حتى أن بعــض المؤرخين قد رأوا أن الحملة الفرنســية بعلمائها ومفكريها قد نقلت مصر من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.

فقــد ظل النوبيون يحتفظون ببيئتهم التى نشــأوا فيها وترعرعوا بين جنباتها فحافظوا علــى تقاليدهم وعضوا عليهم بنواجذهم.. والبيئة كما جاء فى المعجم الوجيز هى (المنزل).

جاء فى موسوعة «وصف مصر» الذى ألفه – كما ألمعنا – علماء الحملة الفرنسية ما كتبه «كوستاز Costaz» فى دارسته عن النوبة والنوبيين: أنه ما بين فيلة وأسوان يتناثر فى النيل ألوف لا يحصيها عد من صخور الجرانيت التى تنهض من قاع المجرى لتشكل جزرًا بالغة الضآلة. وهناك يجرى النيل سريعًا تتكسر مياهه على هذه الصخور، أو تنفع الأجزاء الفاصلة فيما بينها بصخب واضطراب غير عاديين، ليكتسى كل سطحه باللون الأبيض، حتى ليظن المرء أن مياهه قد تحولت كلها إلى زبد.

وينتج عن تلاطم الأمواج وتكسرها فوق الصخور زئير مستمر تردد الجبال صداه بمضى صوت الصدى إلى بعيد بعيد، وفى هذه المناطق الصحراوية. تشكل هذه المجموعة من العوامل مشهدًا يهز النفوس بشكل عميق.

وتعرف هذه المنطقة باسم الشلال، شلال أسوان.. لكننا إذا ما قصدنا المعنى الحرفى للكلمة. سنقول إن ليس هذا شلالًا على الإطلاق. حقيقة أن النيل هناك سريع وصخاب، لكننا لا نرى هناك مساقط كبيرة للمياه، وهى تلك التى اعتدنا أن نطلق عليها اسم شلالات بل إن جزءًا من مياه النهر، تجرى فى نفس المدرة، تستطيع المراكب أن تصعدها فى موسم الفيضانات إذا ما جادت عليها الطبيعة بريح مواتية. لكن الشلال الحقيقى يوجد على مسيرة عدة أيام إلى الجنوب من شلال أسوان هذا كما يسمونه.

ويقابل المرء بشكل شبه دائم، عند سفح الصخور التى تحصر فيما بينها نهر النيل. أجزاء صغيرة من الأرض الصالحة للزراعة. كونتها

ومهدتها تلك الترسيبات السنوية لمياه الفيضان حيث الظروف هناك مواتية لحدوث مثل هذه الترسيبات.

وفى كل مكان تتوافر فيه هذه الظروف المواتية، زرع النوبيون أشجار النخيل ونصبوا السواقى لرفع المياه لرى الحقول التى يزرع فيها هذا النوع من الذرة البيضاء الذى يطلقون عليه اسمه «درة»، وكذلك بعض الخضراوات.

وترى فوق هذه الصخور حرارة لاهبة؛ وعلى الرغم من أننا كنا مانزال فى اعتدال الخريف، فقد ظل ترمومتر ويومور الموضوع فى الهواء الطلق ثابتًا طيلة اليوم على درجة ٣٥، وهىدرجة حرارة أعلى من درجة حرارة الدم.

كان الرحالة الذين جابوا هذه البلاد يحسون بلهيب الشمس المزعج من خلال نعال أحذيتهم المصنوعة من جلد الماعز ويذكر حالة منهم أن أحد أبناء النوبة وكان موكلًا بتوصيل إحدى الرسائل قلب له «ظهر المجن» عندما طلب منه أن يوصل هاتيك الرسالة ورفض أن ينصاع لأمره ويبدأ سيره قبل أن تودع الشمس نهارها.

يذكرون أن جدارًا صلدًا صلبًا من أحجار الجرانيت والحجر الرملى قد أقيم عند أحد الجبال يمتد طولًا وعرضًا لا تعرف بدايته من نهايته البعيدة عن النيل وذلك لصد هجمات الشعوب المعادية لأهل النوبة.

ويرصدون زوارق النوبيين الخاصة التى يتناقلون بواسطتها بين الشلال الكبير والشلال الصغير، الأشياء والحاجيات التى يحتاجون إليها من مصر لاستهلاكهم وأنهم يتاجرون ويعثرون من خلال تجارتهم على ما يلزمهم من طعام وشراب من إقليم إسنا ويدفعون ثمنها من البلح المجفف الذى كان هو بمثابة النقود لهم.

كمـا يعرجون على نظام القضاء فى هذه البـلاد النائية فذكروا أنهم وسدوا على قراهم قضاة يديرون القضاء هناك يحيزون نفس السلطة التى يحوزها شيوخ القرى فى مصر، ويسمى رجال القضاء عندهم «السيميلى» يحكم دائمًا فيما يشـتجر بينهم من خلاف أو اختلاف، وأطلق النوبيون أيـدى هؤلاء القضاة فىالحكم فىصنـوف القضايا المختلفة التى يذهبون بها إلى (السيميلى) فيحكم بينهم بالحق.

ويرى الرحالة الذين جابوا بقاع النوبة وأصقاعها أن النوبيين يتميزون بلطف المعشـر ويعيشون فى حالة سـلم دائم وأمن قائم وإذا ما عن لعدو أن يتربص بهم الدوائر أو يشـن عليهـم هجومًا مفاجئًا، فإنهم يتخذون الصخور مقامًا لهم يلجأون إليها حتى يستطيعون الدفاع عن أنفسهم فى هاتيـك الصخور التى تعتبر مأوى آمنا لهم ومعاقل حصينة، يندم كثيرًا فى معظم الأحايين إذا ما أراد أحد الأعداء اقتحامهم.

ويمـر العام تلو العام والنوبيون لا يفتأون عن الذهاب إلى مصر هاربين من فقر مسقط رأسهم يَجِدون للبحث عن عمل.. يكاد يماثل ما يفعله أبناء «سابوى وأوفرن» «إحدى مقاطعات فرنسا فىالتقسيم الإدارى القديم» ثم تتأجج الرغبة فى قلوبهم للإياب إلى وطنهم، لقضاء آخر أيامهم وسط صخورهم.

وما يكادون يحصلون على وسيلة لعيش ميسور، ورغد موفور حتى يسارع كل منهم للعودة إلى النوبة ليتخذوا لأنفسهم زوجات من بنات أمتهم.

كما يذكر الرحالة الأجانب أن التجار الأوربيين يطلقون على النوبيين اسم «بربران Barbrin». ولعلهم – فى رأينا – يقصدون البرابرة.

ويشـهد أولئك الرحالة أن النوبيين يتمتعون بشهرة كبيرة بالاستقامة والأمانة بوحى إخلاصهم الذى لم يعرف الكذب مطلقًا طريقه إليهم حتى إنه كان يعهد إليهم بحراسة بوابات كل البيوت وجميع الأسواق.

ويتساءل أولئك الرحالة المذكورين:

«تـرى من أين جاء لهـذه الأمة النوبية هذا السـمو الأخلاقى الذى يميزهم بدرجة كبيرة عن جيرانهم العربان، الذين تبدو اللصوصية عندهم مهنة شريفة بل يمكن القول، مهنة قومية؟!

ويجيبون أن السبب فى ذلك يرجع إلى نوع الحياة التى يحياها كل من هذين الشـعبين؛ فالنوبيون (مزارعون).. والعربان (رعاة).. والحياة الزراعية تجعل الناس أكثر حساسية، واستجابة لأفكار العدل، والنظام، وحق الملكية.

أمـا فى الحيـاة الرعوية فيحـدث العكس من ذلـك، حيث تُؤمن سـهولة التنقل، والتملص من العقاب، وعدم الوقوع تحت طائلة القانون بخصوص كل الجرائم على وجه التقريب.

ثم يردفون قائلين: إن الأكراد مثل العربان يعيشـون بلا مقر ثابت، يُقيدون مثل العربان قطعانهم من مكان إلى مكان، ومن مرعى إلى مرعى، ولهم نفس عادات السرقة واللصوصية التى تسود عند هؤلاء.

النوبيون مسـلمون شديدو الحماسة لدينهم لا يحيدون عنه أبدًا مهما تجشموا فى سبيل ذلك من إعنات.

ويـرى الرحالة القدامـى أن النوبيين كانوا يكنـون الكثير من النفور والمقت تجاه الأجانب، ومن العسير عليهم دومًا أن يروا هؤلاء فى بلادهم.

يحكى أحد الرحالة عن نوبى - وقد كان على صلة به - قال له: مشـيرًا إلى المبانـى التى يقطنون بداخلها والآثـار التى تخلد ذكراهم: «إنها هى هـذه المبانى (والآثار التىتجذب هـؤلاء الأغراب إلى هنا): «حسـنٌ»: إنهم ما أن يرحلوا حتى نبدأ فى هدمها حتى يتركنا الناس هادئين فى بلادنا».

يحكى علماء الحملة الفرنسية أنهم عندما دخلوا لأول مرة جزيرة فيلة ألفوا فتاة نوبية تركتها أسرتها وحيدة، وللمحافظة على عذريتها اتخذوا طريقًا بالغ القسوة والغرابة معًا تجاهها، إذ إنهم «خاطوا» بشكل تام عضو إخصابها. وتنبئ هذه الواقعة – كما عبر علماء الحملة – أنهم كانوا بصدد شعب تنهشه غيرة متأججة، وفضلًا عن ذلك فإن هذه العاطفة المتطرفة تنجلى فى تلك العناية التى يخفى بها النوبيون نساءهم عن نظرات الأغراب.

وقد حدث فى أثناء زيارتهم لبعض قراهم وكان يتبعهم جمهور غفير – أن شاهدوا – رجالًا يتسلحون بالعصى ولا هم لهم إلا طرد النسوة اللائى جذبهن الفضول إلى موكبهم، وبرغم ذلك فإن عادات التحجب الشائعة فى مصر – كما رأوا – ليست مستقرة بين النسوة النوبيات، فهن يظهرن بوجه مكشوف، ويتوزع شعرهن بين عشرات من الخصلات الصغيرة المجعدة بشكل لولبى والتى تتماوج على الجبهة وعلى كل جوانب الرأس. وأرديتهن تغطى أجسامهن بشكل تام، وقد شاهدوا البعض منهن يتلفحن ملابسهن على نحو يبقى الذراع الأيمن والكتف عاريين. وتبدو حركاتهن وهيئتهن تحت هذا الملبس، رقيقة تكسوها مسحة من نبل.

وقد أراد البعض أن يرمى مصر بتحطيم ممالك النوبة المسيحية ويرد عليهم التاريخ بصدقه وجلائه أن مصر حمت المسيحية فى مصر وأخرجت الذين فروا إلى الجبال ولاذوا بالوديان وتقوقعوا خوفًا من بطش الرومان فى داخل كهوفهم وما آبوا إلى بلادهم مصر إلى على يد حاكمها «عمرو بن العاص» حيث كان على رأسهم «الأب بنيامين» الذى شهد للمسلمين بذلك.

قد ذكر «ابن كثير» فى البداية والنهاية أن لقمان الحكيم كان من أهل النوبة.. ورأى البعض أن الكلمات التى جاءت فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾. [سورة المدثر: الآية ٤٩-٥١]. قد كانت مستعملة فى لغة النوبة.

وقد جاء فى العهد القديم: «يَأْتِى شُرَفَاءُ مِنْ مِصْرَ. كُوشُ - التى هى اسم النوبة قديمًا كما ألمعنا - تُسْرِعُ بِيَدَيْهَا إِلَى الله». (سفر المزامير ٣١:٦٨)، «أَذْكُرُ رَهَبَ وَبَابِلَ عَارِفَتَىَّ. هُوَذَا فَلَسْطِينُ وَصُورُ مَعَ كُوشَ. هذَا وُلِدَ هُنَاكَ» (سفر المزامير ٤:٨٧).

أما العهد الجديد فقد ورد فيه:

«ثُمَّ إِنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ كَلَّمَ فِيلبسَ قَائِلًا: «قُمْ وَاذْهَبْ نَحْوَ الْجَنُوبِ، عَلَى الطَّرِيقِ الْمُنْحَدِرَةِ مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى غَزَّةَ الَّتِى هِىَ بَرِّيَّةٌ».

أعمال الرسل (٨: ٢٦).

ويؤكد البعض أن فيلبس قد أرسل إلى النوبة.

أفرد العلماء المصريون الكثير من تواليفهم بالحديث عن النوبة منهم الدكتور «محمد رياض» أستاذ الأنثربولوجيا، والأستاذ «مصطفى أبو عابد»، والدكاترة: «جمال حمدان»، «أحمد نوار»، «ناهد بابا» التى رأت أن الخصوبة والثراء المعنوى والجمال لبيوت النوبة القديمة جعل منها جنة منشودة، لا مكان فيها للغرباء. «ياسمين فراج»، والدكتورة «رانيا يحيى»، و«سامى عبد الوارث»، والدكتورة «سامية عباس»: التى أفردت مقالًا لها اسمته «النوبة بعيون أدباء ورحالة الغرب» ذكرت منهم: الإنجليزى «ريتشارد بكوك» عام ١٧٣٧م، «وفردريك لوفيك»

الذى أصدر كتابه باللغة الفرنسية عام ١٧٥١م، : "جيمس بروس" عام ١٧٦٩م، و«فيفون ديمون» عام ١٧٩٨م، وغيرهم.

زار الرئيس «جمال عبد الناصر» النوبة مرات ثلاث وصفهم (بأصحاب الأرض والديار) واستقبل استقبالاً حافلاً من أهل النوبة.

ولا ينسى التاريخ الدكتور «ثروت عكاشة» وزير ثقافة مصر وأشهر وزراء ثقافتها وأكثرهم علمًا وأوفرهم إنتاجًا فيما بذله من جهد جهيد فى سبيل إنقاذ آثار النوبة عقب نهوض مصر بإقامة مشروع السد العالى فى أسوان إذ اقتطع جزء من بلادهم والعديد من ديارهم فى سبيل إتمام هذا المشروع الذى اعتبره العالم مشروع القرن العشرين.

ولا مشاحة أنه من اللازم اللازب أن نذكر واقعة تاريخية تمثل شفرة النصر النوبية كما عبر الأستاذ «محمد شلبى» فى مقاله «اللغة النوبية شفرة النصر» فى السادس من أكتوبر الحرب المصرية الإسرائيلية.

إذ إنه أشار فى مقاله إلى أن الرئيس «محمد أنور السادات» قد استخدم اللغة النوبية (كشفرة) فى حرب أكتوبر وعجز خبراء اللغات فى إسرائيل عن فهمها أو فك طلاسمها فكان ذلك سببًا من أسباب النصر الذى حازته مصر فيها من حيث إن اللغة النوبية لا تعرف التذكير ولا التأنيث ولا يفهمها إلا أهلها.

ويقول الأستاذ «محمد حسنين هيكل»: إن الجيش المصرى استغل كون اللغة النوبية لغة منطوقة وغير مكتوبة. وإنها لغة - نادرًا - ما يسرب النوبيون أسرارها إلى غيرهم. فجعل الرئيس السادات فى كل غرفة عمليات حربية جنديًا يتحدث النوبية من أهل النوبة لينقل

التعليمات إلى الغرف الأخرى بدلًا من الشـفرات التقليدية. حيث تمكن متحدثو الشـفرة النوبيون من نقل الرسـائل اللاسلكية بلغتهم التى عجز خبراء اللغات العالمية والإسرائيليون عن معرفتها أو الولوج إلى مفرداتها.. مما دفع بالإسـرائيليين إلى أن يجن جنونهم فدأبوا يبحثون فى قواميس اللغات الحية عن فقه هذه اللغة حتى اللغات السواحلية من شرق وغرب إفريقيا فلم يجدهم ذلك فتيلًا.

ومـن بعد ذلك صـارت اللغـة النوبية تُدرس فى بعـض الجامعات الأمريكية والألمانية.

ولعل من المفيد أن نذكر أن إحدى كلمات السر النوبية التى استعملت فى حرب أكتوبر واستغلها الرئيس السادات بذكائه ودهائه كلمة: «جم Jom» أى «ابدأ الضرب والحرب»!.

إذن ما الذى تعانيه النوبة، بالإحالة على عنوان هذا المقال؟

إن النوبيـين التى تعود أصولهم إلى قبائل ربيعـة وجهينة العربية وقد شـاركوا فى تأسيس الحضارة الإنسـانية بمصر وغيرها من البلدان حتى إن «هنرى بلسـتن» صاحب كتـاب «فجر الضمير» قد سـجل فيه بين دفتيه عجائب هذه الأرض التى فشل الغرب الأوربى الأمريكى فى توظيف الفتنة الطائفية بين ربوعها بقالة أن النوبيين أقلية يجب على مصر أن تولى نظرها إليهم ولا هم فى حاجة إلى ما يزعمون أو يتقالون لغرض فى نفس يعقوب.

مـن خلال العولمة البغيضة التى أرادوا بها شـرًا وأراد الله بنا خيرًا فلن ينصاع أحد من المصريين إلى ما ذهبت إليهم قلوبهم المريضة ونفوسهم الشائهة.

ولقد شارك النوبيون فى وضع لبنات حضارة مصر بل وحضارة العالم فإنهم يطالبون بأرضهم وديارهم التى فقدوها على إثر البدء فى مشـروع السد العالى.

وإن كان الثابت فى التاريخ أن النوبة قد تعرضت إلى هجرات أربع منذ عام ١٩٠٣م إلا أن الغد يحمل لهم مستقبلًا وضاءًا؛ فإن مصر كلها على قدم وساق تضع النوبيين فى قلبها وفكرها، وستعمل جاهدة إلى إرجاع حقها السليب إليها، وأن نعمل على إزالة احتقان مشكلة وادى «كركر» التى بثوا شكاياتهم عنها، وأذاعوها عبر أنهار الصحف.

فهل من المعقول أن نترك النوبة (سقف مصر) – كما أسماها عبقرى مصر «الدكتور جمال حمدان» – هكذا قاعًا صفصفًا خاويًا.

إن النوبة هى الحامية لديارها، والحافظة لزمارها.. فليس من المقبول ولا من المعقول أن تترك مصر – النوبة – لؤلؤة الماضى وجوهرة الحاضر للنسيان؟ فهى – أى النوبة – فى عين مصر اليوم وفى الغد.. بل منذ قديم الزمان.

□□□

مشكلة بطء التقاضى

عندما وجهت القناة الثالثة بتلفاز جمهورية مصر العربية الدعوة لى لحضور ندوة كان يديرها المذيع المتألق الأستاذ «عصام بكرى»، وكان عنوانها «بطء التقاضى فى مصر».

وقد حضر الندوة التى كانت مذاعة على الهواء لفيف من العلماء والمفكرين كان منهم الدكتورة «فوزية عبد الستار» أستاذة القانون الجنائى بجامعة القاهرة، والمستشار «محمود غنيم» المفتش القضائى الأول (ورئيس هيئة المفوضين الحالى بالمحكمة الدستورية العليا)، والدكتور «سينوت دوس» الحاصل على درجتين فى الدكتوراه الأولى فى الطب، وثانيها فى القانون، والأستاذ «سامح عاشور» نقيب المحامين.

و كاتب هذه السطور.

أدلى كل من الأساتذة الحاضرين بدلوهم وما عن لهم من أفكار فى هذا الصدد. وعندما جاء دور الحديث علينا، قلنا:

«ليس فى مصر مشكلة فى بطء التقاضى.. ولكن الداء يكمن فى هذا الخُلف، وذلك الخلاف المشتجر بين المتقاضين، والذين يبلغون الملايين، وذلك يرجع إلى غياب الصدق، وتشيع ثقافة الكذب.

وللدكتور «يوسف ميخائيل» كتاب عن الكذب و أثره فى الإنسان – جدير أن يقرأ –.. ولقد نهت الأديان جميعًا عنه، وفى حديث بين الرسول – عليه الصلاة والسلام – وبين أم المؤمنين عائشة، التى سألت الرسول عن الكذبة البيضاء، قال لها الرسول ما معناه أنه لا يوجد (كذب

أبيض) و(كذب أسود).. وإن الكذبة البيضاء تدخل الإنسان النار. ولو كف الإنسان - عمومًا - عن احتراف الكذب لصلح حال الدنيا واستقام أمر العباد فى الحال وفى المآل.

وأردفت قائلًا: إن استباب العدل الذى هو غائب عن مصر هو الذى يحل مشكلة بدء التقاضى فيها، وقد قيل إن الذئب قد امتنع عن أكل الشاة فى زمان الخليفة العادل «عمر بن عبد العزيز» - رضى الله عنه - لانتشار العدل فى أمته.

ومنذ ما ينيف عن الخمسين عامًا (بتاريخ ١٩٥٨/٦/٨م) كتب أحد شيوخ القضاة وهو والدى - رحمة الله عليه - فى جريدة الأخبار يقول:

«إن البصر ليرتد خاسئًا وهو حسير حينما يرى أن كل خمسين قاضيا فى مصر منوط بهم أن يفصلوا فى مشاكل آلاف من الأنفس مما ذادهم رهقًا شديدًا وعنتا، ومما جعل المتقاضين يئنون من بطء التقاضى».

وتساءل المرحوم الوالد: ألم يأن لوزارة العدل؟ أن تضع سياسة للإصلاح حتى ينال القضاء فى مصر حظه من التمكين والازدهار.

وعندما أراد البعض أن يلغى الاستئناف كتب - طيب الله ثراه - فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٦١/٢/٢٨م يقول:

«ثار الجدل حول رأيين أحدهما ينادى بقصر التقاضى على درجة واحدة، والآخر يرى جعله على درجتين أسوة بما هو متبع فى بعض البلاد الأجنبية»

وليس من الصائب المقارنة بين ما يجرى عليه العمل فى بلاد أخرى، فإن ما يصلح للبعض لا يصلح للآخرين، وليس هذا فى محيط العمل بغريب، فإن أكثر القضاة عملًا أكثرهم خطأ، وكم أهاب بعض القضاة

فى أسباب أحكامهم بالنيابة العامة أن تستأنف هذه الأحكام لاستدراك ما جرى به القلم خطأ أو سهوا.

وتابع الحديث قائلًا:

«وليس بخاف أن الاستئناف يطرح النزاع برمته أمام الدرجة الثانية فيهيمن على الحكم من جميع نواحيه الموضوعية والقانونية، وفى هذا تخفيف عبء كبير كان حتمًا سيلقى على عاتق محكمة النقض لو لم تفصل فيه محكمة الإستئناف التى هى محكمة الدرجة الثانية».

وتساءل الوالد: «فماذا يكون الحال ياترى إذا كان التقاضى على درجة واحدة؟»

كان هذا المقال بمناسبة شكاية الكثيرين من بطء التقاضى فى مصر.

أرجع الوالد كما سبق وذكر فى مقاله الذى ألمعنا إليه أن بطء التقاضى راجع أولًا قبل كل شىء إلى قلة عدد القضاة، والنقص الذى يعتور جهاز الخبراء.

وفى دفاعه عن وجوب عدم إلغاء محكمة الاستئناف قال: «لعل أسعد القضاة طرًا من وجد من يصور له حكمًا جانبه فيه التوفيق.

ونذكر فى هذا الخصوص أننى عندما التقيت وزملائى بالأقصر فى إحدى الندوات مع الوفد الفرنسى القضائى الذى كان يزور مصر آنذاك وسألنى قاض فرنسى: «كم عدد القضايا التى تحكم فيها فى جلساتك؟»، ولما أجبت: «أن العدد يتعدى الألف قضية بكثير»، أطلق من فمه ضحكة ظنًا منه أننى أهزر معه أو أقول له مُلحة، ولما تأكد من صدق قولتى انتابه الذهول.

إن مشكلة بطء التقاضى فى مصر إنما تعود بالدرجة الأولى للدد المتخاصمين فى الخصومة، ومضيهم فى طريق الكذب.

ومن ثم إذا كان الحال قد سار مع القضاء فى هذا المنوال، ولما يزل يسير فإننا نرى أنه من اللازم أن تعمل وزارة العدل على زيادة عدد القضاة فى مصر إلى الحد الذى يواكب الزيادة المضطردة فى عدد السكان الذى استفحل، وزاد عن المعتاد.

وأضحى يمثل عبئًا شديدًا تنوء به كواهل قضاة مصر.

ولقد ذهب إلى هذا النحو القاضى الفرنسى الأشهر «ج. رانسون» فى كتابه القيم «فن القضاء» «l'Art de juger» إذ أزجى تحيته إلى بلاده من حيث أن فرنسا تعمل جاهدة على أن يكون عدد القضاة فيها متوازنًا مع عدد سكانها.

ولقد صدق الفيلسوف فرنى Ferney فى مقولته:

«إن الأحكام التى تصدر بسرعة تكون فى الغالب بعيدة عن العدالة»

إذن ومن نافلة القول أن نقول: «اعملوا على زيادة عدد قضاة مصر حتى تتلاشى ظاهرة بطء التقاضى الذى اشتكى منه البعيد والدانى مع السعى دومًا إلى نشر العدل فى ربوع مصر».

فلا يكفى لتحقيق العدل وتثبيت دعائمه أن تقوم الدولة بتعيين القضاة دون أن يكون هناك حزمًا وعزمًا لمنع الاستثناءات والوساطات. كما حدث فى الماضى القريب.

فالعدل أساس الملك.

□□□

مشكلة حلايب وشلاتين

كأننـــى وحياتـى حيـــن أبصرهـــا خواض معركـة، جـــواب أسفـــار
وقيمـة النفس أغلى فى النهى ثمنًا مـــن أن تبـــاع! بدينـــار وقنطـار

هكذا شأن حلايب وشلاتين.. وهذا هو قولهما.

فمنذ أن جاس المستعمر الإنجليزى بقدمه أرض السودان الشقيق، وهو يتربص جاهدًا إلى فصل السودان عن مصر.

بدا ذلك جليًا فى اتفاق الحكم الثنائى عام ١٨٩٩م. حيث كان يوجد خطًا فاصلًا بين شطرى وادى النيل.

ولقـد تم وضع المنطقـة الواقعة فـى الركن الجنوبى الشـرقى لمصر والمحازية لسـاحل البحر الأحمر، و«منطقة جبل علبة، مثلث حلايب» تحت إدارة «المحليات» السودانية بغية توحيد الإدارة القائمة على شئون القبائل، ولم شـعث هاتيك القبائل مع كتلتهم الرئيسـية القابعة داخل جنـوب الوادى السـودانى من حيث تتناثر هـذه القبائل بين الجنوب وبـين شمال الوادى فـى مصر متمثلة فى قبائل البشـارية الحمداواب، والسـبتراب، والعبابدة الذين ينتشـرون فى البر الغربى فى الأقصر وفى أسوان وفى الصحراء الشرقية.

تم تحديد المناطق التى يقطنها البدو فى إقليم مصر بما عرف بمثلث حلايب المصرى بدءًا من جنوب حلايب وحتى بئر الشلاتين مرورًا ببئر منيحـة فجبل تجروب فأم الطيور، وأخيرًا جبل الديحا حتى يصل إلى خط التقاطع مع الحدود السياسية بين البلدين الشقيقين.

يذكـر صاحب كتاب «بوابات مصر» الباحث الأديب «محمد هيكل» أن التلاحـم المصـرى السـودانى محفور فـى قلوب كل مـن المصريين والسودانيين.

وهاهوذا السـفير «أحمد أنور» سـفير السودان فى مصر يرى أن مصر والسـودان بلدًا واحدًا، وأنه تعلم فى مصر وعمل بالسـودان، وأنه يقيم فى قرية على الحدود المصرية السـودانية يقع نصفها فى شمال الوادى، والنصف الآخر فى جنوبه.

ويعـرج الكاتـب على محادثة جـرت بينه وبين أحد السـودانيين الخلصاء لواديهم، وادى النيل إذ سأله الكاتب:

هل أنت سودانى؟

فأجاب: لا.

فعاوده السؤال: هل أنت مصرى؟

فقال: لا.

فبادره متعجبًا.. إذن من أنت؟

فـرد عليـه قائلًا: أنا ابن هـذه المنطقة.. منطقة حلايب وشـلاتين أُعلم أبناءها الذين تخرج فيها الكثيرون، أنا مصرى سـودانى، أو قل: سودانى مصرى، اخترت هذه المنطقة الأثيرة إلى نفسى وعقلى، ودرست التاريـخ جيدًا، وخرجت بنتيجة: أننـى من هنا.. وأولادى هنا بالرغم من أننى ولدت وسط السودان.

ويؤكد المؤرخون أن الأصول السـكانية الأولى لمثلث حلايب وشلاتين ترجع إلى قبيلة «ولبجا»، والتى كانت تقطن فيه منذ ما يزيد على أربعة آلاف عام، واستعان بهم فراعين مصر فى الدفاع عن الوطن.

ولفظ (بجا) يعنى (المقاتل القوى الشرس الشجاع) وتتمثل فروعها فيما يسمى «الهدندوة»، و«الأمرأ»، و«الخلانقة»، و«بنى عامر»، و«العبابدة»، و«البُشارية».

حيث تفرقوا إلى فرعين.. الفرع الأول يقيم فى السودان وأثيوبيا.. أما الآخر فقد اتخذ كل من مصر والسودان مقرًا ومقاما.

وقد التقى كاتب هذه السطور أثناء «عمله القضائى» فى «البر الغربى بالأقصر»، و«إسنا»، «وأرمنت»، و«القصير» بالعديد من أفراد هذه القبائل وهم قوم مصريون خلصاء ولبلدهم – مصر – أوفياء.

ويرى المؤرخ القدير وأستاذ التاريخ المرحوم الدكتور «يونان لبيب رزق» – أحد المنافحين عن قضية طابا، غداة عرضها على التحكيم الدولى أن اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩م ليست التى دشنت الحدود بين مصر والسودان.. فقبيل ذلك بنحو نصف قرن وعلى وجه التحديد فى ١٣ فبراير ١٨٤١م بزغت على الخرائط أول حدود بين البلدين وهى حدود اتفق عليها بين القاهرة واسطنبول، وتمت على مرحلتين مؤتمر لندن عام ١٨٤٠م، وفرمان الباب العالى الصادر فى ١٣ فبراير ١٨٤١م الذى جسد قرارات مؤتمر لندن.

وقد جاء فى هذا الفرمان فيما يخص السودان، والكتاب المرسل هذا كان من الباب العالى إلى والى مصر يقول له فيه..

«إن سدتنا قد ثبتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة، وقد قلدتكم – فضلًا عن – ولاية مصر، ولاية مقاطعات النوبة، والدارفور، وكردفان.

وعليكم أن ترسلوا لنا كل سنة قائمة إلى بابنا العالى حواية الإيرادات السنوية جميعها».

وعود على بدء!

فقد جاءت دعوى من يريد أن يقتلع حلايب وشلاتين من جسد مصر، وقد أركسها الله، وخابت دعواه، وابتلع بلواه.

والذى لامشاحة فيه أن مصر يجب أن تمعن نظرها، وتنعم تفكيرها فى مشكلة حلايب وشلاتين، فلا ينبغى (أن ننجح فى أن نفشل). كما عبر «جوزيف وكارولين» فى كتابهما «كلمات قاتلة لا تقولوها أبدًا» وقد ترجم هذا الكتاب من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية «الفيزا نضور».

إذا كنا نردد عبارة «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد». فإننا نقول «إن الذى تؤجله تفقده»

ومن ثم فإن ما سوف يكون قد لا يكون أبدًا.

وهاهى ذى الفتنة فقد أطلت بوجهها العبوس الذى تلقى إشاعة كاذبة أثناء زيارة رئيس مصر إلى السودان زاعمة أنه قد تنازل عن حلايب وشلاتين للسودان؟!.

وما كان لرئيس مصر أو أى رئيس لها أن يقدم على ذلك.

والذى لا مشاحة فيه أن مصر يقع على كاهلها أن تكون «حلايب وشلاتين» لهما الأولوية فى وجوب أن تعمل الدولة على تعمير هذه البقعة الحيوية من بقاع الوادى، وأن تشد أنظار المصريين والسائحين لها على السواء.

فإننا نرى هذه الأرض المصرية الذى يضاحكها لدى الإصباح شمس.. ويلثمها لدى الإمساء طل تمد يدها إلى مصر طالبة منها أن تراعيها وتحيطها بالحب والرعاية والأمان.

فالذى أمسى يطمع فيها دأب على أن يكون أكره بالإنصاف، وأسأل بالإلحاف.

وقد أصبحت مسألة حلايب وشلاتين أشبه بيننا وبين السودان الشقيق كقضية العلم بين الغزالى وابن رشد من خلال عدم قابلية هذا الأمر للحسم، ناهيك عن التكرار، والغياب، وخيم الظلام على هذه المشكلة الشائكة الذى أصبح التكرار لها والغياب عنها وعدم حسمها يمثل القلق والأرق للمصريين.

صدق الشاعر فى قولته وكأنه يعبر بلسان حلايب وشلاتين:

ياسارى الليل، هلا استصبح السارى
أم ضل مسراه فى بيداء مقفار
يومى كأمسى ولا أصبو إلى أمثل
ضاق البريق، وإقلالى كاكثارى
سئمت ظل حياتى جاهدًا لَغِبًا
مترنحًا، بين أقبالٍ وإدبار

أصبحت حلايب وشلاتين وقد تشابه اللون فى مساريها، لمح من النور، أو نفح من النار!.

وقيمة (حلايب وشلاتين) بالنسبة إلى أمهما مصر، أغلى فى النهى ثمنًا، من أن تباع بدينار أو بقنطار!.

ألم يأن الأوان لمحو العزلة التى تعيش فيها هذه الأرض المصرية، وتحيا بين ظهرانيها؟

□□□

ميانمار.. وإحراق المسلمين بالنار؟!.. بحسبانها مشكلة إسلامية

كان الفيلسوف اليونانى «أرسطو» – المعلم الأول – لا يقر بالمساواة بين الناس، إذ كان يرى أن الناس صنفان.. وأنهما فصيلتان مختلفتان: عنصر قوى، وصنف ضعيف، كما كان يرى الخلق خلقان: خلق قوى، خَلقٌ خُلق لكى يكون سيدًا يسود، وخلق دنىء، ومن ثم يجب أن يكون هو المسود ولايجب أن يحيا أو يعود!.

وإذا كان الإسلام وهو كذلك كما عبر الشيخ «محمد الغزالى» – رحمه الله – «هو يهودية موسى، ونصرانية عيسى معًا، وهدايات من قبلهما من رسل الله الأكرمين جميعًا: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾». [سورة آل عمران: الآية ٨٤]

وهاهوذا الأسقف «رولان» يرى أن كثيرًا من المسيحيين ارتأوا أن الإسلام تتمة طبيعة المسيحية وأن محمدًا رسوله، قد صار على آثار من سبقه من الرسل والأنبياء، وأن القرآن قد جاء متممًا للتوراة والإنجيل، ولكن الغرب له فى هذا الشأن رأى آخر ملؤه التعصب المقيت.

كان «الصليبى» يرى أنه وحده الجدير بالحياة مع أن رسالة المسيحية هى المحبة والتسامح والإيثار والوئام، فرسالة المسيحية هى السلام، ولكن ذلك القس المتعصب قد جمع الصليبيين تحت راية واحدة هى

محاربة المسلمين، وحشد حشدهم، وجيش جيوشهم لذلك، فحاربوا الإسلام والمسلمين واستلبوا ديارهم وخربوا بيوتهم ووأدوا أطفالهم وسبوا نساءهم وقتلوا رجالهم.

كما فعلت من قبل «إيزابيل» وزوجها اللذين شنا حملة عسكرية للاستيلاء على مدينة غرناطة من حكامها بنى الأحمر وكانت غرناطة آخر معاقل المسلمين فى إسبانيا وبسقوط حكم أبو عبد الله عام ١٤٩٢م انتهى الحكم الإسلامى فى الأندلس، وقد أمرت الملكة إيزابيلا بإنشاء محاكم التفتيش بمعاونة الملك فيليب وبمراقبة توماس دى توركيمادا، المحاكم التى قامت بطرد ثلاثة ملايين من المسلمين، الذين لم يغادروا الأندلس بعد سقوطها، والتعذيب بجميع أنواع آلات التعذيب. أيضًا أبدى الراهب «بليدى» ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم، حينما كانت متجهة إلى إفريقية تحت هاتيك المحاكم التى أنشأتها إيزابيلا، وهى محاكم التفتيش؟!

وفى غضون القرن الثامن عشر نادى «دار جونسون» ذلك الوجه القبيح بتأليف حلف مقدس ينتظم فى صفوفه كافة الدول الأوروبية المسيحية لكى يستلبوا بلاد المسلمين بدعوة تحرير الأراضى المقدسة من أيديهم، وقد كان منهم الملوك والأمراء والمغامرون والحمقى، ناهيك عن البغاة والطغاة الذين لعبت شهوة الحكم بعقولهم، وخامرت بنت الحان رؤوسهم فما دروا من أمرهم شيئًا إلا التعطش لسفك الدماء وقتل الأبرياء من خلال كراهية بثت فى قلوبهم وتغلغلت فى أفكارهم.. بلا جدال على توالى الأجيال.

وقد كان منهم ذات يوم بعيد «لويس الرابع عشر» الذى كان يردد دائمًا ويقول «je déclare» أى «أنا الدولة».

وهـا هى ذى ميانمار التى تقع فى الجزء الشـمالى الغربى من شـبه جزيرة الهند الصينية، وتطل على خليج البنغال، ويشكل البوذيون فيها نسـبة ٨٩٪ من سكانها، وقد ارتحل سكانها إليها من هضبة التبت فى غضـون نهاية القـرن الثامن حتى أصبحت اليوم مملكـة بوذية واعتنق أهلها الديانة البوذية.

وها هى ذى ما يسمى ميانمار ترى إما تجميع المسلمين الذين يمثلون هم وإخوتهم المسـيحيون نسبة ضئيلة فى هذه الجزيرة وترحيلهم خارج الديار بعد أن عانت الأقلية المسلمة فيها ما عانت من قتل وعنف وإحراق لبيوتهم وقتل وتشريد لأهلهم وذويهم، هؤلاء المسلمون الذين أطلق عليهم أبنـاء أقلية الرهونجية وفدوا إلى البلاد منذ زمـن طويل مرتحلون إليها مـن بنجلاديش المجاورة لهم والتى رفضت هى الأخرى اسـتقبالهم فى أرضها بسـبب الكثافة السـكانية والأزمات الاقتصادية التى ضربت ولما تزل تضرب بلادهم يوم بعد يوم.

وقـد قص علينا بعـض الفارين من الويلات التـى لاقوها أنهم بينما كانوا يلوذون بالفرار من الأراضى البنجلاديشـية حلقت عليهم الطائرات البوذية، وأطلقـت عليهم من مدافعها النـيران فأردت الكثير منهم قتلى مضرجين فـى دمائهم.. أما الآخـرون الذين لاذوا عـبر القوارب بمياه الأنهار فقد مات البعض منهم جوعًا وابتلع النهر الباقين.

هؤلاء البؤسـاء الذين أطلق عليهم لفظ «الروهينجا rohm» وهى كلمة تعنى الرحمة.. وهى الكلمة العربية التى أطلقها سـكان البلاد الأصليين على ركاب سـفينة كانت تحمـل عربًا وتحطمت قبالة سـواحل بورما

بالقرن الثانى الميلادى، فنطقها الأهلون هناك الرهونة ثم من بعدها اسم «الروهنجة».

ويسجل التاريخ تلك المذبحة التى راح ضحيتها من المسلمين حوالى مائة ألف شهيد، إذ أن بورما هذه ترفض الاعتراف بمجتمع الروهنجة المسلم ولا تعتبرهم مواطنين فى البلاد.

وقد اعترفت منظمة العفو الدولية بهذه الجريمة الشنعاء.. دون أن تحرك ساكنًا أكثر من هذا؟! ومازال العالم يتملى بالنظر بقتل هؤلاء المسلمين الضعفاء على يد فئة ضالة لا تمثل بأى شكل من الأشكال تعاليم «بوذا Bddha» الذى يحكى التاريخ أنه كان حكيمًا يمثل مع الحكيمين الآخرين كونفشيوس، وزردشت، حكماء العالم غير المتدين بأديان الله الكتابية الثلاثة، والذى هجر زوجته وابنه الرضيع بعد أن شعر أنه لا يستطيع فكاكًا منهما فما كان منه إلا أن غادر قصره فى غلس الليل، وفى ظلمته البهيمة، ميممًا وجهه شطر المشرق جالسًا تحت شجرة، وهو يردد ويقول:

«فليجف جلدى، وتضمر عضلاتى، ويهن العظم منى، ويموت لحمى، ويجمد الدم فى عروقى، ولن أبرح مجلسى هذا قبل أن أسبر غور أسرار الحياة.

وقد أوصى تلاميذه قبل وفاته بأن يكون هو العدل والرحمة والإحسان والتسامح مع الناس من جميع الأجناس.

لم يكن «بوذا» منشئ دين، ولكنه كان صاحب أسلوب فى الحياة يؤدى إلى خلاص النفس من آلامها، ويزيل مكابداتها، والبوذية لا تنكر وجود الله والروح، وإن كانت تسبغ عليهما معانيها الخاصة، ولا تتدخل بأى شكل من الأشكال بين الحقيقة والمرء «والتسامح المطلق» يجب أن

يكون موجهًا إلى جميع الأديان والفلسفات. لأنه ليس لأى إنسان أن يتدخل فى رحلة جاره فى دروب الحياة.

يقول «بوذا» (اعمل على خلاص نفسك بجد وإقبال، فى الحال وفى المآل).

«فالكارمة Karma» ومعناها الفعل ورد الفعل هى التى تتحكم فى الوجود بأثره، ويرى الفلاسفة أنه وإن كان التعليم وليد البيئة التى نما فيها وترعرع على ثراها، بيد أن ما أداه الفكر الإنسانى أمر لا يمكن حصره أو إنكاره، ويكفى أنه علم الناس كيف ينشرون السلام، ويسعون إلى الوئام عن طريق كبح شهواتهم ومحاربة أطماعهم.

ذلك الحكيم الفيلسوف الذى سمى «بوذا» بمعنى «المستنير» ولا يعلم الكاتبون عن ترجمته، شيئًا بخصوص ما كان عليه فى صبوته، ولكنهم ينهون إلينا إنه لما بلغ مبلغ الشباب ودع عشيرته دون إياب، ولجأ إلى التجوال والتطواف بين ربوع «بينال»، ثم ترك العمل دون استيعابه وشخص إلى مملكة «ماغادا» حتى أتى إلى مدينة «أوروبلا» فارتضى لنفسه أن تكون مقره وسكنه إحدى الغابات الموحشة ظل بين وهودها وكهوفها بل وحيواناتها عدة سنوات قضاها فى الصوم وقهر النفس منتظرًا هبوط الوحى عليه، فلما هبط وكان بصحبته آنذاك خمسة من النساك ودعوا الغابة تاركين بوذا بمفرده، وقد أعتورته غيبوبات متتالية، الغيبوبة تلو الأخرى، فقيل أنه قد تلقى من السماء أربعة أسرار مقدسة هي:

أن الشقاء عام فى الأرض، وأن سبب ذلك الميول والشهوات أنه لا ينقضى إلا فى نيروانا.. لكن ما هو الطريق إلى نيروانا، ليست ثمة إجابة، فسمى من ذلك الحين «بوذا» أى «المستيقظ أو المستنير».

والكتب عن البوذية جـد كثيرة، ولقد تقلبت Karen Armstrong «كارين أرمسترونج» بين هاتيك الكتب المقدسة البوذية القديمة، وانتهت فى كتابها عنه إلى أن رسـالة بـوذا كانت بداية لتحول دينى عظيم فى تاريخ البشـرية، سـبعة قرون كاملة استمرت من القرن التاسع إلى القرن الثانى قبل الميلاد ومحاولة لإنهاء الحروب، وقد ظهرت أربعة اتجاهات مختلفة حول العالم، فكانت اليهودية فى الشرق الأوسط، والهندوسية، والبوذيـة فى الهند، والكونفشيوسـية فى الصين، والمذاهب الفلسـفية باليونـان، وتردف الكاتبة – التى أطلقوا عليها اسـم «الراهبة الهاربة» إذ تركت حياة الدير لا لتفقد اهتمامها بالشـأن الدينى وإنما لتدلف إليه مرة أخرى عبر بوابة البحث فى مقارنة الأديان، وتصبح واحدة من أهم مقدمى سـيرة رسـول الله مُحمد لمجتمعها الغربى، واكتسبت بذلك عداء العديد من البريطانيين الكاثوليك رغم تصدر كتابها عن «محمد» – عليه الصلاة والسلام – قائمة الكتب الأكثر مبيعًا فى بريطانيا.

تردف هذه الكاتبة قائلة:

«إن بـوذا ظل مـا نيف عن الأربعين عامًا يدعو إلى التسـامح وتعليم الناس للوصول إلى الروحانية، ونبذ العنف وإلى الحب والإنسانية».

فهـل هؤلاء المجرمون الآثمون يمتـون بصلة إلى الحكيم بوذا؟! وهل عملوا بما أوصاهم به؟

ولنا كلمة أخيرة بخصوص العالم الإسلامى الذى أسدل جفونه، وأطبق عيونـه عن هذه الجريمة البشـعة النكـراء فى حق المسـلمين المغلوبين علـى أمرهم. هل هـذا ما أوصاهم به دينهم الحنيـف؟ وإلى متى يقفون

مـن هـذا الجهل الذى ران على عقولهم فأمسـوا وقـد انْبتَّتْ صلتهم بتحركات عدوهم؟!

وإننا نسوق لهم هذه القصة القصيرة التى تتحصل فى الآتى:

«كانت السفينة الحربية الأسبانية كاللاو callao» تبحر فى هدوء إلى داخل ميناء مانيلا Manila، وفجأة وبلا مقدمات انهالت عليها قذائف عديدة أودت بالبعض منهم.

ما الذى حدث؟ تساءل بحارتها فى ذعر بالغ «إننا فى ميناء خاضع لسلطات بلادنا».

كانوا غائبين لسـتة عشـر شـهرًا كاملًا فى مياه الجـزر الجنوبية، ولم تبلغهـم الأخبار بأن الأميرال الأمريكى «ديوى» قد أغرق أسـطولهم الأسبانى الذى كان راسيًا فى هذا الميناء.

بسـرعة فائقة، أنزلوا علم إسـبانيا، ورفعوا الرايـة البيضاء معلنين الاستسـلام. وما هى إلا دقائق معدودات حتى أتى البحارة الأمريكيون على متن قارب صغير حاملين بفخر علمهم الأمريكى لكى يرفعوه..

تأملوا معنا: إن السـبب فى اصطياد هذه السـفينة بهذه السـهولة والسرعة لم يكن لنقص عدد جنودها أو لقلة عددهم الحربى بل لجهلهم بتحركات عدوهم».

أرأيتـم كيـف يكون الجهل بتحـركات العدو المتعصـب وبالًا على المسلمين وعلى من كان منهم من المستضعفين الآمنين.

ودَعَنـى أيها القارئ العزيـز أنقل إليك ما جاء فـى كتاب «أوجاع مصرية» للكاتب الكبير «الدكتور سعيد اللاوندى» إذ قال:

(إن العالم الإسـلامى قـد اعتاد عدم المبالاة فيما يذكر عن الإسـلام والمسـلمين، أو يعتدى عليه.. وأن عشـية وقوع أحداث سبتمبر ٢٠١١م

حرص الغرب على خوض حرب صليبية ضد المنطقة العربية والإسلامية بدعوة أنها أصبحت معملًا لتفريخ الإرهابيين.

ولم يسقط من الذاكرة بعد أن «بيرلسكونى» رئيس وزراء إيطاليا السابق قد خص الإسلام «بباقة» من الاتهامات التى تنزع عنه صفتى الحداثة والمدنية معتبرًا أنه دين (عدواني) جاهل يؤمن به البرابرة والمتخلفون؟!

وعلى جدران المساجد فى بروكسل عاصمة الاتحاد الأوروبى يكتب البعض مطالبًا بطرد المسلمين من كل أنحاء أوروبا لأنهم ينتمون إلى شعوب حقيرة! ويطالبون بتطهير أوروبا من الجنس العربى! وهكذا أصبحت أوروبا بين عشية وضحاها تعانى من لوثة ترى فى كل عربى أو مسلم مشروعًا لشخص إرهابى مدمر.. وانتشرت فى الأجواء «وفى جميع الأرجاء» أعراض ظاهرة «الإسلاموفوبيا» وهى الخوف المرضى من الإسلام والمسلمين، وراجت أفكار تحرض على التحرش بالمسلمين فى أوروبا، وتحذر من خطر «أسلمة أوروبا».

ويذكر الكاتب الأديب أن يهود أوروبا فى العصور الغابرة كانوا يعيشون موقفًا متشابهًا وكادوا يغرقون فى بحار من الاحتقار والشعور بالدونية كما كانت تتعرض مقابرهم للنبش وبيوتهم للهدم، وأولادهم للمطاردة والتشويه.

وعلى عكس موقفنا السلبى، ناضل يهود أوروبا بشتى الوسائل لتغيير الصورة من النقيض إلى النقيض، وحققوا - فى سبيل الله ذلك - نجاحات غير مسبوقة، والأخطر أنهم استصدروا قرارات من هيئات ومجالس وبرلمانات أوروبية تحظر - حظرًا تامًا - الاقتراب باللمز أو الغمز من كل ماهو يهودى.. وتنزل العقاب.. أشكالًا وألوانًا - بكل من تسول له نفسه عدم الالتزام.. وتشكلت جماعات يهودية تحمل أسماء مختلفة، مرة باسم أبناء «ذاكرة

البيطار».. وكلها تمارس أبشع الوسائل قمعًا وإرهابًا لكى تمنع أى باحث أو مؤرخ من محاولة البحث فى ماضى اليهود، والاتهامات، معدة سلفا، بالحث والتحريض على الحقد العنصرى أو المس بذاكرة الأموات.. ونجح يهود أوروبا فى استصدار قانون أقرته الجمعية الوطنية الفرنسية، والمجلس الفيدرالى السويسرى، والنمساوى يحكم بمقتضاها بالسجن والغرامة على كل من يشكك فى «الهولوكست» أو قضية أفران الغاز التى يؤكد تاريخ اليهود أنها كانت حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

فألا ندعو نحن الآخرين إلى استصدار قرار من الهيئات الدولية بتجريم معاداة الإسلام على غرار تجريم معاداة السامية.

أذكر أننى قرأت مقالاً منذ سنوات طويلة خلت للدكتور «حسين مؤنس» معنونا باسم: «هل أنت تصلح الكون؟».. وأجاب هو «نعم إنك تستطيع أن تصلح الكون».

وقد قرأت أن «سولون» أحد حكماء اليونان السبعة قد حتم فى الشرائع التى استنها لقومه أن يجاهد كل وطنى ينتمى إلى اليونان على أن يجاهد فى نصرة بلاده.

ألا نقفوا خطى هذا الحكيم فنستن قانونا يدعو كل مسلم إلى المجاهدة فى سبيل نصرة دينه؟

إن هذا الجهل الذى ران على عقول المسلمين النائمين فى كل حدب وصوب فى شتى البقاع والأصقاع.. ألا من سبيل لنزع هذا الجهل عنه؟.. ناهيك عن اللامبالاة التى استمرؤها فأغمضوا أعينهم عما ينتظرهم ويحيق بهم من خلال هذا الغرب المتعصب؟

فى كتاب «الفلاح» (قصة حياة الحياة والموت فى روسيا السوفيتية) حكى الكاتبان «فالنتين جونزاليز، وجوليان جركن» والذى ترجمه إلى

العربيـــة الدكتور «أحمد فؤاد الأهوانى» أن «الكامبســينو» وهو فلاح أمى آمن بعقيدته التى بعثت فى نفســه قوة علــى الكفاح والصبر والمجازفة حتى أصبحت حياته موقوفة على الدفاع عما آمن به لا تساوى شيئًا فى سبيل تحقيق هذه العقيدة، وكانت مدرسة الحياة التى نشأ فيها شديدة القسوة عليه شــغلت باله آناء الليل وأطراف النهار، وفى اليقظة والمنام ومحاربة من اســتلب حقه حتى نجح فى مســعاه وقد عاش فى أحضان دولــة لا تعرف لمن يختلف معها إلا الموت الزؤام.. ألا يســتطيع العالم الإســلامى والعربى أن يفعل ما فعله هذا الفلاح الســوفيتى الأمى، وهذا العالم الإسلامى وعلى رأسهم مصر يموج بالعلماء والأدباء والمفكرين الذين بمكنتهم إن أرادوا أن يرفعوا من شــأن أوطانهم، وأن يتصدوا لإبعاد كل من يتعصب ضدهم عن بلادهم؟

ولقد قال الشاعر:

جهل الفتى عــار عليه نفســه وخمولــه عــار علــى الأيــام

وإلا فهل يعتنق المســلمون قول المتنبــى – فلا يحيدون عنه – الذى قال فيه، مامعناه:

إنى لا أبالى بالرزايا لأنى إذا ما انتفعت فلن أبالى؟!.

و صــدق الله العظيم: ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾. [سورة سبأ: الآية ٣١ – ٣٢]

□□□

مشكلة النفاق، والأنفاق..؟

إذا كان النفاق هو سر البلاء.. فالأنفاق هى سبب الابتلاء.

قلنا فى كتابنا «خواطر قاض»:

«إن الذى لا مشاحة فيه أن المؤمن يحسن الحسن ويقويه.. أما المنافق فيقبح الحسن ويُوهيه.

والمنافـق يدخل فى كل حُب حِـب (أى مكر)، وفى كل رغبة طمع وفى كل خير شر لا ينتهى من نفاقه إلا ليبدأ ولا يبدأ حتى ينتهى، – وهكذا دواليك – عود على بدء يغفو على نفاقه فهذا هو مبتغاه لا يعرف الصدق فقد شاقق الله ومن ثم عاداه، ولم يرتض عن فسقه بديلًا بمنهجه الذى تغياه يمسـى ويصبح فى فرح فارح بنفاقه يظن أنه بالمداهنة أصبح فـى عداد الفائزين السـعداء لا يغلب عليه المـلال، وهو فى حقيقته من التعسـاء توعدهم الله بالعذاب الأليم مع غيره من الأشقياء الذين اتخذوا النفاق ديدنا لهم لا يبغون عنه عوجًا أو سبيلًا.

هـو يخلع رداء النفاق تارة ثم يرتدى مسـوحه طورًا آخر متسـربلًا بالغش والخداع يقتل نفسـه بنفاقه ويزرى عقلـه بكذبه وريائه فالمنافق – دائمًـا وأبدًا – يحترف الكذب، لا يخاف ربه؛ فقد ران الظلام عليه وسعى الفساد سعيًا إليه هو كالأرض النشاشة (وهى السبخة التى يمتزج فيهـا الملح بالماء فيقتل الملح أرضهـا ويميتها ثم لا يحييها) فهى غريزة النفاق التى تأصلت فيه وبها تحويه تدور معه ويدور بها لا ينفك يتحول عنها فهو مقيد بأهوائه ونزعاته وكلمتا الفضيلة والاعتداد بالنفس معدومة

فـــى لغة الأهواء والنزعات وطالما رضى عنه المنافقون ممن على شـــاكلته فيظـــل ركينًا هادئًا مشـــدودًا بأعضاده فى طبقـــات الأرض، ولا جَرَمَ أن يكون خسفًا فى أديم الأرض، والمنافق يظهر غير ما يبطن ويبطن غير ما يظهر تحقيقًا لمصلحته الذاتية؛ فهو يعتنق الأباطيل ويطمح فى البراطيل عن طريق الزلفى والوشـــاية والغواية، والنفاق ظاهرة مَرَضية وهو إن كان دليل ضعف للمنافق فهو دليل قوة للذى ينافقه. فأحيانًا يكون على ذات دربـــه من النفاق، والكذب هو من خصال المنافق، يقول الرســـول الكريم عليـــه صلوات الله وســـلامه: أربع من كن فيـــه كان منافقًا خالصًا ومن كانـــت فيـــه خلة منهم كانت فيه خلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر إذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر، كما يقول: «اتقوا الله من الشـــرك الأصغر» قالوا: «وما الشـــرك الأصغر يارسول الله؟ قال: النفاق فإنه يدب على القلب دبيب النمل»، وقد حرمت الأديان جميعها النفاق، ففى الديانتين المســـيحية واليهودية ذكر العهد القديم كلمات لا تسرق ولا تكذب ولا تغدر بصاحبك.. وهاتيك هى علامات المنافق.

ظهر النفاق فى ضحى الدولة الإســـلامية بعد أن أصبح الإسلام دولة وقوة وجاء الإســـلام ليقســـم النفاق إلى نوعين (اعتقادى) وهو الذى يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر، و(عملى) وهو الذى يأتى أعمالاً من أعمال المنافقين مع بقاء الإيمان فى القلب.

والنفاق فـــى اللغة العربية هو من النفق الذى تحفره بعض الحيوانات فى جحورها بغريزتها دفاعًا عن نفسها فتجعل فيه فتحتين أو أكثر، فإذا هاجمها عـــدو من واحدة خرجت مـــن الأخرى. وقد سمى المنافـــق منافقًا لأنه يجعل لنفسه وجهين يظهر أحدهما ويخفى الآخر حسب الموقف الذى يجابهه».

هذا عن النفاق الذى تحدثنا عنه، فى كتابنا الذى أشرنا إليه.

أمـا الأنفاق التى ولدت من رحم النفاق، فقد كان عددها لا يزيد عن عـدد أصابع اليد، أضحت الآن تعد بالمئات يتسـرب منها المتسـربون ويتسلل منها المجرمون داخل أرض سيناء.. أرض الرسل والأنبياء.

فلقد تركت الدولة هاتيك الأنفاق سـداحًا مداحًا، فأمست تمثل بؤرة هـى فى حقيقتها شـبكة الدمـاء التى حالت بيننا وبـين حماية الزمار أو صـون الديـار، روعت مصر من خلالها بقتـل الأبرياء وخطف جنود مصر وضباطها الشرفاء – ناهيك – عن عرب سيناء الذى أصبحوا كأهل موسى فى الليلة الليلاء!

والذى – لا مراء فيه – أن القول أن عرب سيناء يلوذ بهم الخاطفون ويحتمى بهم الآثمون فهو قول عار من الصحة، ولا سـند له من الواقع أو القانون.

ففى مؤتمر «السكة» الذى عُقد بين شيوخ سيناء فى عام ١٩٦٨م عَقَد هؤلاء الشيوخ العزم على الدفاع عن وطنهم سيناء الذى هو جزء لا يتجزأ من وطنها مصر لا يبغون عنه حولًا ولا عوجا.

هـذه الأنفاق هـى الطامة الكبرى لمصر فهى تسـمح بولوج الخطرين على الأمن القومى ذهابًا وإيابًا منها وإليها حاملين كل ماهو محظور من أسلحة أو مخدرات للإتجار فيها، وبثها بين الآحاد والجماعات.

وليس من شك أن مصر منذ عام ١٩٦٧م. بل وقبلها قد أهملت سيناء إهمالًا مزريًا بغياب العدالة الاجتماعية عن شـخوصها وسـاكنيها حتى اعتورتهـم وصمة عدم الانتمـاء إلى مصر، إن لم يكـن جميعهم فالكثير منهـم.. وقد كانت إسـرائيل وراء ذلك تريد طمس هوية سـيناء وزلزلة

أمنها القومى.. وابتلاع سيناء فى جوفها ذات يوم مرتقب، كما ابتلعت من قبل أرض فلسطين.

يقول الأستاذ «السيد يس» فى كتابه (تشريح العقل الإسرائيلي) استطاعت إسرائيل فى غضون عام ١٩٤٨م انتزاع مساحة قدرها ٧٦ ٪ من أرض فلسطين العربية، ليس بالسلاح فقط إنما بالترويع والتخويف، إذ أنهم رأوا أن الحياة فى ظل المجتمعات الأوربية الحديثة من شأنها أن تجعلهم يتمزقون بين السحق الروحى والحضارى.

فى رحلة تحفها الأخطار شددت الرحال مع أبنائى إلى جنوب سيناء وشاهدنا بعيوننا هذا الكم والكيف من الإهمال الذى ألم بسيناء داخل أراضيها ودروبها الشاسعة حتى أصبحت تشكو من الفقر الذى ألم بها، والعوز الذى سكن قلبها.

وقد التقينا مع مجموعة من مشايخ سيناء بثونا شكاياتهم، وأنهم لا يجدون عملاً سوى زراعة أراضيهم – ومن أسف وعجب – بالمخدرات، وأشار واحد منهم إلى هذه الزراعة الخطرة التى ينهضون عليها والتى تمد أهل سيناء فضلاً عن أهالى مصر بهذه السموم القاتلة.

وإذ علت الدهشة وجهى قال: إن هذه الزراعة تتم تحت بصر وبصيرة المسئولين وهم يعلمون ذلك.

وفئة أخرى من أعراب سيناء أشاروا إلى بيوتهم المتواضعة وبأن المجالس المحلية ترفض الاعتراف بها لأنها بنيت بدون ترخيص من المسئولين.

وعندما ألفيت فى أيديهم أسلحة يقبضون عليها قالوا إنهم إنما حصلوا عليها من خلال ما تنعم به عليهم الأنفاق.

ويممنا وجوهنا تجاه العريش عند معبر رفح العسكرى بعد مقتل الجنود الأبرياء الشهداء الذين قتلوا على يد هذه الطغمة الفاجرة التى

ارتكبت جريمتهم فى ليلة من ليالى رمضان والجنود صائمون ولم يقبض عليهم حتى الآن لغيبة الأمن وغياب الأمان واضمحلال دور الشرطة أو الجيش على السواء.

وعندما والينا السير تجاه معبر رفح البرى وعرجنا منه إلى معبر رفح الحربى تعرضنا للضرب بالرصاص، ونجانا الله – أنا وابنى – من الموت المؤكد.

ولم يحفظنا إلا الله وأنجانا من هذا الموت الزؤام فقد أحاطنا جنود الجيش المصرى الصناديد بكريم رعاياتهم سائلين إيانا ما الذى أتى بكم إلى هذا المكان؟!

عرب سيناء هم أناس طيبون مسالمون ارتضوا أن يعيشوا بين جنبات سيناء عقودًا طويلة بل حقبًا مديدة من الزمان، ومصر تغض الطرف عنهم.

والذين يتفخفخنن عن العرب إنما يأتون أمرا إدا.

والذين يتهمون عرب سيناء بأنهم غير منتمين إلى أمهم مصر، وأنهم هم المسئولون عن صحراء سيناء أو غيرها من الصحارى، هم كما عبر أستاذنا العقاد فى كتاب له: مثل هؤلاء الذين يوصمون قبائل الإسكيمو بأنهم هم الذين خلقوا مناطق الجليد ومن ثم لا يستحقون الوفاء؟!.

وهذا أعجب من قولهم أن العرب هم الذين خلقوا الصحراء وأنهم من هذا لا يستحقون الرثاء؟!

ظلموا عرب سيناء، وهم من تهمتهم براء.

عبر البغدادى المشهور بـ «السويدى» فى كتابه (سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب) أنه: «ما من طامة إلا ومن فوقها طامة»!

والطامة الكبرى هى ترك سيناء عرضة للمطامع والأهواء.

يحدثنا التاريخ أنه منذ ٢ نوفمبر ١٩١٧ وهو تاريخ صدور وعد بلفور المشئوم واحتلال بريطانيا لفلسطين العربية فى ديسمبر من ذات العام، وتهجير اليهود من شتى البقاع والأصقاع قائم على قدم وساق لتهجير اليهود إلى فلسطين.

ونظرية الألعاب Game theory تعتنقها إسرائيل، وهى تلك النظرية التى تلعب دورها فى المصالح بين الدول أضحت النظرية المفضلة لإسرائيل تدق بها على مصلحتها وعلى ما تتغياه، وما تزعم أنه من خلاله لها الحياه.

وعندما زار كاتب هذه السطور إحدى المواقع الحصينة التى استولى عليها الجيش المصرى غداة حرب أكتوبر، وتوغل داخل أنفاق هذا الموقع رأى كتابًا باللغة العبرية مسجلًا عليه:

«من النيل إلى الفرات»!

وفى كتاب عن الإرهاب البيولوجى قرأنا لمؤلفه «الدكتور محمد على» أن وسائل الإعلام قد طالعتنا بأخبار مرعبة عن أسلحة الدمار الشامل البيولوجية Biological Weapons of Mass Destruction التى تعد إسرائيل لها العدة منذ عام ١٩٩٨.

وتقول إحدى الصحف الإنجليزية:

«إن القوات المسلحة الإسرائيلية قد زودت بأحدث أسلحة الدمار الشامل الكيميائية والبيولوجية، وإن طائرات سلاح الجو الإسرائيلى من طراز F – ١٦ قد تم تعديلها بحيث تحمل أسلحة كيميائية وبيولوجية، وإن طاقم سلاح الجو يتدرب الآن على استخدام تلك الأسلحة، استعدادًا للمواجهات المسلحة المحتملة ضد جيرانها العرب!».

وبداهة فإن جيران إسرائيل العرب هم مصر وسورية فضلًا عن غيرها من الدول العربية.

وهذا السلاح استخدمه الإنسان البدائى الذى كان يستخلص من بعض النباتات والحيوانات المواد السامة يطعم بها رؤس رماحه وسهامه المسمومة لقتل حيوانات الصيد، وأعدائه من البشر. ومازالت هذه الطريقة مستخدمة فى بعض قبائل الهنود الحمر بأمريكا الجنوبية، حيث يغمسون سهامهم المسمومة فى مستخلص بعض الضفادع السامة، وذلك فى بعض القبائل الأفريقية.

ومصر بسينائها هى العدو المرتقب لإسرائيل وقد تعودنا منها الخداع والتضليل ناهيك عن الكذب الصراح، فهاهى ذى طائرة إسرائيلية تابعة لشركة العال تتحطم بالقرب من عاصمة هولندا (أمستردام) فى يوم ٤ أكتوبر ١٩٩٢ اكتشف أنها كانت تحمل ١٩٠ لترًا من مادة كيميائية سامة تستخدم لتصنيع غاز الأعصاب سارين Sarin فى مصنع مقام فى ضاحية نيززيونا بالقرب من تل أبيب على الحدود المتاخمة لسيناء؟!

يتحدث علماء الحشرات عن العناكب فيقولون إن العنكبوت عندما تفرغ من بناء بيتها تضع به خطًا «هاتفيًا» فهى تغزل خطًا يصل ما بين وسط البيت إلى مخبئه القريب. وتقبع العنكبوت فى مخبئها تتربص بفريستها الدوائر وعندما يهتز الخط الهاتفى تسرع العنكبوت وتحوطها بخيوطها الحريرية. ومن بعدها تبدأ عملية الافتراس.

كما يتحدثون عن (العنكبوت الذئب الكبير «تارنتيولا») الذى ينقض على فريسته ويبث فيها سمه بواسطة أنيابه!

وهكذا تود إسرائيل أن تفعل بسيناء التى هى فى القلب بالنسبة إلى مصر.. وهى أرض الرسالات حيث اتصلت الأرض بالسماء وتردد

فى جنبات الوادى المقدس «طوى» كلمات الله لسيدنا «موسى» – عليه السلام –: «يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى» وهى التى رعى فيها نبى الله «شعيب» – عليه السلام – غنمه. ومشى على دروبها نبى الله «إدريس» – عليه السلام –. وأبو الأنبياء إبراهيم الذى قطع سيناء جيئة وذهابًا باحثًا عن زوجته سارة التى كان فرعون مصر قد أسرها. وكذلك أنبياء الله «يوسف و يعقوب والأسباط» – عليهم جميعًا السلام.

وكذلك من قبلها طرد «أحمس الأول» الهكسوس من فيافيها وقفارها، وجاس خلالها رمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى، وعلى أرضها استعان بطليموس الرابع «فليوبتر» حاكم مصر لقتال «أنطيوخس».

ومن منا لا يعرف أن أرض سيناء قد فتحت ذراعيها لسيدنا «المسيح» – عليه السلام – وأمه البتول وبصحبتهما «يوسف النجار» خوفا من جبروت «هيرودس» الذى أمر بوأد الطفل الوليد «عيسى» – عليه السلام.

ويذكر الدكتور «دعبس» فى كتابه (دراسته فى أنثروبولوجيا – شمال سيناء):

إن الجيش الإسلامى فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – توجه عمرو بن العاص على رأس أربعة ألاف مقاتل لفتح مصر مارًا برفح متوغلًا بسيناء. وعندما هل مساء يوم ١٢ ديسمبر ليلة عيد الأضحى المبارك عام ٦٣٩م (١٨ هـ) سأل قوات جيشه:

«أين نحن الآن ياقوم؟

قالوا نحن غرب العريش.

قال: نحن اليوم فى عيد!

ويتقدم عمرو بن العاص بجيشه عبر سيناء ليحقق الفتح الإسلامى لمصر برمتها».

كما كانت سيناء هى المعبر التى عبرت عليه قوات صلاح الدين الأيوبى لمجابهة جيوش الصليبيين فى موقعة حطين والانتصار عليهم عام ١١٨٧ ميلاديا.

وفى عام ١٢٦٠م نجحت القوات المصرية بقيادة الملك «قطز» بعد أن عبرت بوابة سيناء وألحقت الهزيمة النكراء بجيوش المغول والتتار التى كانت تهدد العالم برمته ووسدت تلك الجيوش الثرى.

وهل ينسى التاريخ معارك السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م التى أذاقت القوات المصرية جيش إسرائيل الويل والهوان حتى تحدث بانتصارها الركبان!

يقول صاحب كتاب «السياسة والحيلة عند العرب»:

إن العقل هو الذى يفرق بين الحق والباطل والحسن والقبيح والعدل والجور وبه توضع الأشياء فى مواضعها من صواب الرأى والتدبير تكسب الأشياء المحمودة وتجتنب الرذائل المذمومة.

وقال «فيثا غورس»:

العقل هو الوقوف عند مقادير الأشياء قولاً وفعلاً.

وقال أفلاطون:

العقل هو النظر فى العواقب.

وقال سقراط:

لو صور العقل لأضاء معه الليل، ولو صور الجهل لأظلم معه النهار.

وعن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال:

«إذا بلغكم عن أحد حسن حاله فانظروا إلى حسن عقله، فإنما يجزى بعقله»

فـلا أغضضنا الطرف عـن مجاملة زيد ويزيد، ومن نريد، أن نزجى له المسـاعدة من خلال ترك - هاتيك - الأنفاق تفتح على مصر بوابات الجحيم بهذا الفعل الذميم؟، ونعمل جاهدين وصادقين على غلقها، فقد أمسـت تنشـر وتنتثر بين أرجاء سـيناء، فى العريش، والريسة ومدينة الشـيخ زويد، وفـى رفح، وبالقرب من مطار الجـورة الذى يتمركز فيه عصابـات عديدة مكونة من أرباب السـوابق، والهاربين من السـجون، والفاريـن من تنفيذ أحكام المؤبد، والإعدام، ونشـاطهم الرئيسـى قطع الطرق، ومهاجمة رجال الشـرطة، ومنها أخطر البؤر الإجرامية فى شبه هذه الجزيرة جزيرة سـيناء، مختبئة فـى «جبل الحلال» الذى يخترق سيناء بطول ١٦٠كم وتكثر به الكهوف والمغارات العميقة التى لا يعرف مداخلهـا ومخارجها - ناهيك - عن مسـاربها إلا نفر قليل من البدو، ومن يقترب منها فالموت العاجل فى إنتظاره؟!.

إن هذه الحرب الضروس التى شبت نيرانها واشتعل أوراها بين مصر وبـين هذه الفئة المارقة التى ضربت جنبـات مصر وأقضت مضاجعها، يصبح فيها المقتول والمجروح، من الرعية. يقول الشاعر:

فالحرب تنكح والنفوس مهورها ما بيـن أبكـار تـزف وعـون
وترى الدماء على الجراح طوافيـا وكأنهـا رمـد بنجـل عيـون؟

يذكر «عبد الرحمن الكواكبى» فى كتابه «طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد»:

إن الاسـتبداد يحـول المجتمع إلى جثة هامدة يسـتطيع النيل منها كل من أراد من الأعداء المتربصين، ومن هنا يسـتلزم الأمر الوعى الدقيق لمشـكلات المجتمـع وتلمس الحلول لهـا لبدأ حركة الإنقـاذ، والوعى

عادة لا يتوفر إلا بنشـر الثقافة، وتحديد الملامح الأساسـية لأطر الفكر الإصلاحى.. وإن من أقبح أنواع الاسـتبداد استبداد الجهل على العلم، واسـتبداد النفس على العقل.. فالاسـتبداد يد الله القوية الخفية يصفع بها رقاب الآبقين، والاستبداد السياسى يتولد من الاستبداد الدينى الذى جعل بعض المستبدين يدعون أنهم هم ظل الله فى أرضه.

وقد جاء الإسلام مؤسسًا على الحكمة والعزم ومُحكمًا لقواعد الحرية السياسـية بين الديمقراطية والثيوقراطية فأسس التوحيد ونزع كل سلطة دينية ووضع شريعة صالحة لكل زمان وقوم ومكان.

ويقول «الكواكبى» فى كتابه هذا:

«يا قوم عافاكم الله، إلى متى هذا النوم إلى متى هذا التقلب إلى فراش البأس ووسـادة اليأس؟ أنتـم مفتحة عيونكم ولكنكم نيـام، لكم أبصار ولكنكم لا تنظرون، وهكذا لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور.. شفاكم الله... قد ينفع اليوم الإنذار واللوم، وأما غدًا فإذا حل القضاء فلا يبقى لكم غير الندب والبكاء».

إن المستقرئ للتاريخ يعلم أن أخناتون كان أول من دعا إلى التوحيد، بيد أنه تفرغ للعبادة وترك العباد والبلاد حتى خربت مصر، فأطلق عليه المؤرخون the heretic pharo أى «الفرعون المارق».

فهل نترك مصر بأنفاقها المزروعة فى سـيناء.. ونهمل صحراواتها التى تمثل بعدًا استراتيجيًا لمصر، دون تنمية أو نماء، بهذا الإهمال وذاك الجفاء؟!

❑❑❑

مشكلة الأخلاق..

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

قالها أمير الشعراء فأصبحت آبدة من الأوابد.

غياب الأخلاق يعنى الفقر والإملاق.. الفقر فى العقل والإملاق فى الفكر والوجدان لكل من ينتمى إلى بنى الإنسان.

ضياع الأخلاق كان سببًا فى إجبار «سقراط» على تجرع السم الزعاف حتى مات.

وغيابها هو الذى دفع بالغوغاء إلى قتل فليسوفة الإسكندرية «هيبتيا».. واضمحلالها كان وراء قتل أمير المؤمنين «عثمان بن عفان»، ومن بعده «على بن أبى طالب» كرم الله وجهه.

فعندما يغيب الدين، يضيع اليقين، لأن الدين هو الذى يزكى فضيلة الأخلاق لدى جميع خلق الله.

ولقد حضت الأديان الكتابية جميعها ناهيك عن غير الكتابية على فضيلة اعتناق الأخلاق.

فالأخلاق المسيحية ترتكز على تعاليم يسوع خاصةً عظة الجبل. وشكلت تعاليم الكتاب المقدس وآباء الكنيسة والمجامع المسكونية، المرجع الأخلاقى الرئيسى للمسيحية. وفى القرون الوسطى تبنّى القديس توما الإكوينى الفضائل الأربعة الرئيسية لأفلاطون وهى: العدالة والشجاعة والاعتدال والحكمة، وأضاف إليها الفضائل المسيحية مثل

الأمل والإيمان والإحسان، والتى ذكرها القديس بولس. وشملت أيضًا السبع خطايا المميتة والفضائل السبع وهى العفة، والاعتدال، والإحسان والاجتهاد والصبر واللطف والتواضع، لتصبح ركائز الأخلاق المسيحية.

وفى الدين الإسلامى الحنيف يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله – عليه الصلاة والسلام – فيقول له فى [سورة القلم: الآية ٤]:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

والأخلاق تعنى أن يكون مراد العبد بجميع أقواله وأفعاله ماظهر منها وما بطن ابتغاء وجه الله الكريم.

وقد جاء أمر الله للعباد يقول:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾. [سورة البينة: الآية ٥]

والحنيفية هى ملة أبى الأنبياء إبراهيم، وعكس الإيمان بالله الذى يكتمل به خلق الإنسان هو الإيمان بالطاغوت، الذى مرجعه إلى الشيطان الذى يخرج الإنسان من حظيرة الأخلاق الحميدة ويدفعه دفعًا إلى الرذيلة، ويطغيه ويغويه:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.[سورة إبراهيم: الآية ٢٢].

فها هو ذا الشاعر الذى نسى خُلقه وأنكر بعثه يقول:

إبليس أكرم من أبيكم آدم فتبينوا يامعشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار؟!

وذلك هو الشاعر «بشار بن برد».

ونسى هذا الشاعر «الرجيم»، كما وصف الشاعر «بودلير» نقول: نسى خالقه.. وأنكر بعثه.. فكل امرئ يصبح فى أهله، والموت أدنى من شراك نعله.

كتب أستاذنا العقاد فى كتابه الرائع «إبليس» يقول:

«أصحاب الأخلاق يستمسكون بالعروة الوثقى.. يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا، ويعلمون لآخرتهم كأنهم يموتون غدًا، كما قال رسول الله».

فهم لا يطمعون ولا يغترون ولا يأخذهم بالله الغرور لايفرح بما هو آت، ولا يبكى على ما فات، لا تشخص أبصارهم إلى مال أو جاه، فيحرصون على الحق فى مبتغاه يتمثلون بقول الشاعر:

إنك تحصى لكى تنال الغنى وليس تعصى الله كى تفتقر

«وذوو الخلق يفرقون دائمًا بين الخير والشر».

«وبعد التمييز بين الخير والشر ثمة خطوة أخرى ألزم – كما قال العقاد – من تلك الخطوة الأولى فى تاريخ الأخلاق الحية».

«وتلك هى معرفة الخير فى الصميم»

«فعلى الإنسان أن يعرف حقيقة الخير ليعمله على بصيرة،

«فليس الخير خلوًا من الشر وكفى.

«وليس الخير ابتعادًا عن الشر وكفى.

«وليس الخير عجزًا عن الشر وكفى.

«وليس الخير من مخالفة للشر وكفى.

«بل الخير شيئٌ قائم بذاته، وليس قصاراه، أنه امتناع عن شيء سواه.

«الخير هو القدرة على الحسن مع القدرة على القبيح وهو الاختبار المطلوب بعد التمييز بين القدرتين.

«فوظيفة الشيطان أن يثبت عجز الإنسان (فيبعده عن حظيرة الأخلاق) أمام الغواية، والفتنة وهو يتردد بين الخير والشر المباح والحرام.

«فأرباب الأخلاق يصنعون الخير، وللشر عنهم غواية، ولهم فى نفسهم فتنة ولولا ذلك لما كان لهم فضل على الملائكة ولا على الجان.

«فليست الملائكة ولا الجان فى صورتها الحية مخلوقات نامية فى معرفتها، عالمة ما تعلمه بعد جهله، متقدمة من الطفولة إلى الرشد إلى غاية المدى المقدور لكل مخلوق».

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. [سورة البقرة: الآية ٣٠ – ٣٤].

فليست القداسة أن تكون نورًا وأنت نور. وليس الفخار أن تكون نارًا وأنت نار.

«وإنما القداسة والفخار أن تكون نورًا ونارًا وأنت تراب. وأن تسبح وتقدس وأنت قادر على الفساد والعدوان».

والذى لا مراء فيه أنه عند ظهور الإسلام فى شبه الجزيرة العربية إبان القرن السابع ذكا عود الإسلام حتى أصبح بشرًا سويًا أفاء على العالم كله بنوره وضيائه بدعوته واعتناقه لمبدأ الأخلاق الذى دعت إليه الحضارات الإنسانية الأولى منذ عهد عهيد وزمان قديم ضرب فى أغوار الماضى البعيد الذى كان فى بعض الأحايين مكفوفًا للترهات والأساطير والظلمات، فثمة تيارات خلقية كان لها قيمتها فى تاريخ الأخلاق وردت فى الديانة المصرية القديمة ووصايا التوراة وتعاليم البوذية وفلسفة الكونفشيوسية (Confucianism) التى أتت على يد حكيم الصين كونفشيوس. والذى حياه أمير الشعراء «أحمد شوقى» عندما مر «المهاتما غاندى» عبر قناة السويس لمفاوضة الإنجليز لكى يجلو عن الهند التى كانوا يستعمرونها فقال:

«نبى مثل كونفشيوس أو من ذلك العهد».

وقد كان فلاسفة اليونان هم أول من فلسفوا معنى الأخلاق. ويرى البعض (الدكتور أحمد أمين) أن كتاب «أرسطو» فى الأخلاق التيقوماخية أعظم ما كتب فى الأخلاق حتى عصرنا الحاضر!.

بيد أن أرسطو قد امتدح الكبرياء، فجاءت المسيحية لتدعو إلى الاتضاع الذى كتب عنها «البابا شنودة الثالث» مقالات رائعة.

وإن كان الدكتور «أمين» يرى أن كتاب «مسكويه» «تهذيب الأخلاق» أكمل دراسة علمية فى مجال الأخلاق.

وعود على بدء!.

فالذى لا لجاجة فيه أن مفكرى الإسلام قد رأوا أن المبادئ الخلقية يجب أن تقوم على أساس الإيمان بالله، والأخذ بما جاء عنها فى كتابه الكريم.

وإن العلم الذى بزغ نوره على يد الفلاسفة المسلمين وهم يحثون على الأخلاق بز الأولين والآخرين فيما دعوا إليه، وحثوا عليه.

يقول الشاعر:

إذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع، فالخُسر للعلماء
قضى الله فينا بالذى هو كائن فتَمَّ، وضاعت حكمة الحكماء!

يقول صاحب الكشكول:

- دافع الأيام بالتفكير فى يوم الممات
- وارض عن عيشك بالكسرة والماء الفرات
- فهى تكفيك وتغنى عن جميع الشهوات

والذى لا مشاحة فيه أن الدولة المصرية قد اعتورتها الرخاوة، وانخفض المستوى الثقافى، وضاع من الكثير من الناس مبدأ «الأخلاق»، لم يأبهون لها أو يعتنقون إياها، وكان بعضهم لا يطمعون إلا فى اعتلاء منصب رفيع. ولا يطمحون إلا فى التمتع بالسلطة، والتهافت على الثراء.. ولا يستقيم هذا كما عبر الدكتور «جلال أمين» فى كتابه «مصر والمصريون فى عهد مبارك».

وإذا كان الغضب الذى اجتاح الشعب المصرى وانفجر فى وجه الغاصبين يوم الثلاثاء الموافق ٢٥ يناير ٢٠١١ إلا ثورة شعب غاضب، «فقد خرج الشعب الغاضب يطالب بإسقاط نظام اتسم بالظلم والفساد والدكتاتورية»حيال رجال هذا النظام الذين اتصفوا بالتعالى والغطرسة والكبرياء.

وإذ مات خمسة من المصريين بالانتحار أو محاولة الانتحار أمام مجلس الشعب أو فى شوارع الإسكندرية، معلنين أنهم سئموا الحياة مع البطالة والفقر والظلم فلم يجد رجال النظام السابق – الذى ضاعت منه الأخلاق – فى هؤلاء المنتحرين إلا مجموعة من المرضى النفسيين؟! كما عبر الدكتور «جلال أمين» فى كتابه الذى ألمعنا إليه.

ضَاعَتْ ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م ومع الآمال المرتقبة منها، فقد هاج جيش جرار من الشعب وماج وأمسى المصريون بضياع الأخلاق يقتتلون فيما بينهم، وفى كل يوم نسمع عن قتلى هنا، وقتلى هناك، وانفلتت من الناس مشاعرهم بغيبة أخلاقهم حتى أمست مصر وكأنها.. بدون أخلاق؟!.

وقع بعض شعب مصر فى بئر لا قرار له من الحيرة، والبهتان فأصبح كما عبر الشاعر فى قولته:

أسمع الشعب ديون ... كيف يوحون إليه
ملأ الجو هتافًا ... بحياة قاتليه
أثر البهتان فيه ... وانطلى الزور عليه
يا له من ببغاء ... عقله فى أذنيه

وثمة شاعر آخر يقول:

شعـــور الشعـب يا جعفر حـــق لا هـــوى فيـــه
يحـس الكـره والبغـض فيجرينـه علـى فيـه
يميـز بوحـى فطرتـه عـداه مـن محبيـه
لـه مـن وعيـه الساذج مصبـاح فيهديـه

أصبح العنف السائد فى المجتمع المصرى هو الثقافة السائدة فيه، متمثلًا فيما يفعله الفرد ضد ذاته، وفى الآخرين بعد أن أصاب المجتمع التشرزم، وأصبحت قضاياه قضايا فئوية، وأدواته أدوات إجرامية. أصبحنا نشاهد الكثير من مشاهد القتل والمآسى الإنسانية وتفجر العنف فى العلاقات الحياتية يسير على وتيرة متصاعدة متنامية حتى وصلت إلى المحارم ذاتها. وتنوعت الجرائم فى مصر. هذا يقتل ابنه، وذاك يذبح أباه، وتلك تلقى بفلذات أكبادها فى أعماق النيل، وذاك أحد رجال القانون يفرغ طلقات مدسه فى صديقه ثم يدعى الجنون حتى أمسى هذا العنف على حد تعبير كاتب «يمثل قمة جبل الجليد».

وأصبحت مخالفة الآداب والأعراف وانتهاك القانون حتى أسماها الصديق الدكتور محمد نوح عرفات «بالجرائم القذرة».. فالجرائم – القتل – تسبقها جرائم أخرى: تعاطى المخدرات، أو مخالفة أصول وقواعد قيادة السيارات، أو حمل الأسلحة بدون ترخيص، ناهيك عن قتل رجال الشرطة الأبرياء والتصدى لسدنة العدالة الشرفاء من خلال الضغوط الحياتية التى ضربت جنبات ديار مصر برمتها.

كما شكلت البلطجة ثقافة وضيعة لطخت سمعة مصر فى العالمين، وأصبح القتل والذبح والسرقة بالإكراه جزاء كل من يعترض سلوكيات

هـؤلاء المارقين، فلم تعـد الجريمة من قبل هؤلاء مقصـورة على منطقة بعينهـا، بل امتدت كما ذكرنا لتشـمل المجتمـع جميعه ريفه وحضره حتـى أصيب المجتمع بالبرود فلم يعد يسـتهجن بالتعـود عليها مثل هاتيك الجرائم.

فأصبحنا نرى الشخصيات غير السوية والمدمرة فضلًا عن السيكوباتية تملأ العين ليل نهار.

ونـرى أن الإحباط الذى عشـش فى عقول المصريين قـد ولد لديهم العدوانيـة بعدم الأمن وغياب الأمـان. فضلًا عن ضياع الآمال. بل وهذه هى ثالثة الأسـافى، أصبحت عمليات السـطو العلنـى - وعلى مرأى ومسمع الجميع - سائدة دون واعظ أو رقيب فى أروقة مصر جميعها.

ولقد خلق إذعان الشـعب المصرى المدموعة من حاكمه علاقة سـلبية بينه وبين السلطة التى ينظر إليها المصرى على أنها أداة قهر واستغلال.

ولقد أدى غياب مساهمة المصرى فى حكم بلاده إلى شعوره بالاغتراب السياسى تجاه وطنه.

ومـن العجب العجاب أنه فى بعض المحاكمات نرى صورة شـاهدة على مدى انتشـار العبـث بالقانون فى مصر، فكم من سـيارات وقفت ملاصقـة لبعض المحاكـم التى يحاكم فيها المجرمـون لاختطافهم بعد انتهاء جلسات محاكمتهم.

انفلتت القيم وضاعت الأخلاق وأصبحت ثقافة مطواة قرن الغزال هى المنتشرة فى الحال وفى المآل.

وفى تقرير للأمن العام أثبت أن القاهرة تحتل المرتبة الأولى فى جرائم اغتصاب الأطفال، وكذلك الإسكندرية وغيرها من المدن.

وأرجـع الباحثـون ذلك نتيجة للظـروف الاقتصاديـة والاجتماعية والسياسية ناهيك عن الأمراض النفسية التى أصابت مصر فى مقتل.

وهاهوذا العالم الجليل الدكتور «أحمد عكاشة» يثبت فى بحث له أن العديد من المصريين قد أصابتهم الأمراض النفسـية التى أصبح لا فكاك لهم منها؟!.

فهل من سـبيل لعلاج هذه المشكلة الأخلاقية التى طفت أخيرًا على سطح الحياة المصرية، وناءت على كاهل مصر بكلكلها، ووصمتها بوصمة لم تكن مصر تعرفها من قبل.. ونؤمل ألا تعرفها من بعد؟!.

❑❑❑

محور قناة السويس.. نعمة أم نقمة؟!

تاريخنا مع القناة.. يتحرك؟!

كان حفر هذه القناة أشد فتكًا بأرواح الفقراء من المصريين، وبالعزل الأبرياء.

فإذا كان «جوستاف فلوبير» قد قال:

«حقًا، إن الشرق يبدأ من القاهرة»

فنحن نقول: حقًا إن موت آلاف المصريين وإزهاق أرواحهم قد بدأ مع بداية حفر هذه القناة.

وإذا كان الثابت فى سجلات التاريخ أن وباء «الكوليرا» الذى تفشى فى أجواء مصر، وفى أرجائها سنوات طوال هى حصرًا أعوام ١٨٣١، ١٨٤٨، ١٨٥٠، ١٨٥٥، ١٨٦٥.

وبدأ ظهوره فى قرية القرين بالشرقية وانتشر منها إلى قرى كثيرة وانتقلت عدواه إلى الوجه البحرى فالوجه القبلى وبلغ عدد القرى التى اجتاحها مائتان وسبع وعشرون الف قرية ومدينة وجاءت نهايته فى أوائل ديسمبر من عام ١٩٤٧ كما ذكر الرافعى فى كتابه مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

ثم عاود الهبوط على مصر فى عامى ١٩٤٦، ١٩٤٧ وحصد أرواح آلاف المصريين حصدًا فى مدنها وقراها ونجوعها وكفورها مما أسفر عن وأد ما يقرب من مائة وخمسين ألف من أهل مصر المحروسة

حتى كانت النعـوش وبداخلها أجداث الموتى تترى بأرتالها فى جميع الطرقات يشـاهدها الرائى والدموع تتحجر فى مقلتيه بينما انسابت من أهل الضحايا وانسالت من مآقيهم حزنًا على فراق ذويهم.

إذا كان هذا هو الذى دونه التاريخ بخصوص هذا الداء الوبيل وما فعله بالمصريين. وجاء هذا الداء لايقاس بما اعتورالمصريين وأصابهم فى مقتل جراء حفر قناة السويس.

فهاهـوذا التاريـخ يذكر كيف تم حفر قناة السـويس بدماء المصريين الذى سـخروا لشـقِ الطريق بينها وبين البحر الأحمـر، حيث لم يكن لديهم كسـاء أو غذاء أو حتى شـربة ماء، حيـث كان الماء ينقل إليهم مـن بعض المحافظات على فترات طويلـة متباعدة مما فت فى عضدهم واسـتلب منهم أرواحهم، بعد أن حفروها، وحفـروا معها قبورهم التى وارت أرماسهم بعد أن واصلوا فى عملهم الشاق كلال الليل بكلال النهار.

لقـد دون البيانـات الرسميـة عن سـير العمل فى القنـاة إلى أن تم افتتاحها صاحب كتاب «تقويم النيل» «أمين سامى باشا» المؤرخ المشهور.

وقد كانت السـيمفونية الأخيرة «لتشايكوفسـكى» (١٨٤٠-١٨٩٣) والـذى أصيـب «بالكولـيرا» و بعـد عرضهـا الأول بأيام قلائل أسـلم تشايكوفسـكى الـروح بعد أن نعى بها نفسـه وكأنـه كان كذلك ينعى المصريين الذين لاقوا حتفهم فى ثرى هذه القناة.

وافتتحت قناة السويس فى ١٧ نوفمير عام ١٨٦٩ فى حفل أسطورى رتب له الخديوى إسماعيل بنفسه وأشرف على كل صغيرة وكبيرة حتى إنـه كما ذكر «نوبار باشـا» فى مذكراته - قـام بكتابة الدعوات للحفل

بنفسه ولم يكتف بذلك فحسب بل قام برحلة حول العالم على متن يخته (المحروسة) – وهو ذلك اليخت الذى حمل الملك فاروق منزوعًا من دست الحكم عقب قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ – ليسلم تلك الدعوات للملوك والحكام بنفسه أيضا.

وكان يخطط مواعيد الذهاب والإياب فى كل بلد بكل دقة ونظام، وعلق «نوبار باشا» على ذلك قائلًا: «إنه حقًا يتقن هذا الشىء».

وتقول صاحبة الكتاب الموسوعى الجميل «القاهرة – المدينة.. الذكريات» الفنانة «رشا عدلى» كان ذلك الحفل الضخم كشهادة لتدعيم مركزه كعاهل يستحق الاستقلال بمصر وهذا الذى كان يسعى إليه وبعد كثير من اللقاءات والاجتماعات ومناقشات مع سكرتيره نوبار باشا والباب العالى حصل عليه أخيرًا فى مقابل الكثير من الأموال التى قدمت كهدايا ورشاوى ليوقع السلطان على ذلك الفرمان وإن لم يكن بشكل صريح، إلا أن المنح التى سنحت له أباحت له الحرية الكافية فى حكم البلاد وبالأخص نظام التوريث الذى يتيح لأولاده فرصة الحكم من بعده فكان يدفع ولا يرجو أمام مدفوعاته إلا سبيل الوصول إلى المجد والارتقاء بذلك البلد الذى كان يشغل تفكيره ليل نهار والذى كان مِن حق تاريخه وجغرافيته أن يصبح بلدًا غير تابع لولاية أحد فلا يحق لبلد يحمل ترابها آثار أبطال خطوا فوقها على مر الزمان أن يصبح ولاية عثمانية، وعلى الرغم من أن دعوات ذلك الحفل التى كتبها الخديوى وأرسلها بنفسه إلى ملوك أوربا فإنه لم يحضر سوى الإمبراطورة أوجينى زوجة الإمبراطور نابليون، والإمبراطور فرانسو جوزيف إمبراطور النمسا، وأمير وأميرة هولندا، والأمير عبد القادر إلى جانب سفراء وممثلى الدول

وحضور حشد كبير من العلماء والفنانين وصل لقرابة الـ ٩٠٠ فرد، ومن بين وفود تلك الدول كان الوفد الفرنسى الأكثر عددًا وفاعلية.

وفى صبيحة يوم ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ مر أول أسطول كان فى مقدمته السفينة «إيجل» تحمل الإمبراطورة تتبعها سفينة إمبراطور النمسا، ويليها أربعون سفينة أخرى، ويحتشد الجمهور على الجانبين، وأطلقت المدافع طلقات التحية وسط تصفيق وتهليل الجمهور، وتقف أوجينى الجميلة تلوح بيديها برفقة ديلسيبس، ثم كان مشهد لا ينساه التاريخ يومًا عندما عبرت «الإيجل» قناة السويس؛ فها هى القبعات تتطاير والعناق يتبادل وتذرف الدموع، وكانت هى: هل دموع الفرح أم دموع الشقاء؟ والألم لهؤلاء المساكين الذين نزعوا من بيوتهم لشق القناة بالسخرة ووقع منهم الكثيرون من شدة التعب والمشقة؛ وقعوا موتى فى العمق الذى كانوا قد حفروه فإذا بهم لم يحفروه إلا ليدفنوا فيه، هل تذكرهم وقتها أحدهم؟!.

وفى ٢٠ نوفمبر، تغيرت خريطة العالم عندما عبرت الإيجل قناة السويس ومنها للبحر الأحمر، انتهى الحفل بعدما سجله التاريخ وكتبه أكبر أدبائه ورسم لوحاته أكبر فنانى العصر فى ذلك الوقت. ومن أحداث ذلك الاحتفال جنوح سفينة الإمبراطور «جوزيف» إمبراطور النمسا إثر عاصفة هوجاء لدى مغادرته «يافا» ويتأخر عن الوصول، جنوح فرقاطة عند الكيلو ٢٨ من القناة بين بورسعيد والقنطرة وكان يصعب إزاحتها وذهب الخديوى إسماعيل للموقع بمرافقة ألف بحار، ولكن فى هدوء استسلمت الفرقاطة بعدما أغرورقت عيون الخديوى بالدموع، وأعلن المسيو «ديلسيبس» زفافه بكنسية الإسماعيلية على «لويز هيلين» التى تصغره عن العمر بعمر، كما احتشد فى المقصورة الأمامية

كثير من علماء المسلمين وشيوخ الأزهر بجانب رجال الدين المسيحى، وكانت كلمة مرشد قصر التويلرى بملابسه المبهرجة التى أثارت سخرية الجميع – وصفًا دقيقًا لما يحدث وقتها؛ إذ قال:

«إن طرفى الكرة الأرضية يتقاربان وفى تقاربهما يتعارفان، وفى تعارفهما يهتز جميع البشر».

وأردف قائلًا:

«يا أيها الغرب ويا أيها الشرق فلتتقاربا ولتتأملا ولتتعارفا ولتتصافحا».

كان افتتاح قناة السويس سلاحًا ذا حدين بالنسبة لمصر.

فقد دخلت القناة فى حسابات ألاعيب السياسة الدولية والاتفاق المجحف بحق مصر مع شركة قناة السويس، والتحكيم وسخاء إسماعيل الذى ورط مصر بالديون فدفعت مصر حريتها ثمنًا لتلك الديون.

يذكر «أحمد شفيق باشا» فى كتابه: «مذكراتى فى نصف قرن» فى الصفحة الخامسة والعشرون منه أن: «إسماعيل باشا كان لا يقدر للمال قيمة، ولا يدرك له وزنًا، وإنه حيث كان يقترض بفائدة ما، لا يناقش فى مقدار هذه الفائدة، ولا يقدر نسبتها بالقياس إلى المبلغ المقترض، وإنه كان بالجملة لا يعرف حساب الأموال»

وضرب شفيق باشا مثلًا على هذا الإسراف بأنه يوم أن تحققت أمنية إسماعيل باشا بفتح قناة السويس فقد كانت وبقيت هذه الاحتفالات مضرب المثل فى الأبهة المقطوعة النظير مما دفع الأمبراطورة «أوجينى» أن تبرق إلى زوجها الإمبراطور يوم حفلة الافتتاح تقول له:

«وصلت بورسعيد بصحة جيدة. الاستقبال فخم. لم أر فى حياتى ما يماثل ذلك».

وذكر المؤرخون أن إسماعيل باشا قد أنفق على هاتيك الاحتفالات مليونًا وأربعة ألف جنيه مصرى.

وبمراجع أجنبية وعربية، ودقة وبراعة، وأسلوب راق، كما عبرت الأستاذة الدكتورة «لطيفة سالم» فى التوطئة التى قدمت بها، صاحب كتاب «١١ يوليو وضرب الإسكندرية» كتب أستاذنا «العقاد»:

«إن بيع أسهم مصر – فى شركة قناة السويس – واتفاقية القسطنطينية عام ١٨٨٨م، وإحباط محاولة مد امتيازها عام ١٩١٠م» على يد الزعيم الخالد «سعد زغلول» ورفاقه الذى اتهمه المغرضون على غير الحقيقة إنه كان من الراغبين فى مد هذا الامتياز ودحضنا ذلك عنه فى كتابنا (خواطر قاض) تحت عنوان (فرية صبت فى الآذان ومجتها الأذهان).

ولقد رفضت مصر برمتها مد هذا الامتياز كراهة منها لذكرى القناة، وعقابيل القناة!.

كانت قناة السويس – كما عبر العقاد – هى بيت القصيد فيما حدث للإسكندرية فى ١١يوليو ١٨٨٢م عندما ضربتها بوارج الاستعمار الإنجليزية، فكانت قرون الاستشعار الإنجليزية تتحين الفرصة لتوثيق احتلالها لمصر.

وكانت ذرائعه من إبقاء جيوشهم فى الأراضى المصرية.. إنما كان لحماية القناة والتأهب لدرء الجيوش عنها.

وقد كانت قناة السويس سببًا لاحتلال كل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل لسيناء وبورسعيد وبعض الأراضى المصرية فى ٣١ أكتوبر ١٩٥٦م لتأديب مصر بعد أن أمم رئيسها الراحل «جمال عبد الناصر» لشركة قناة السويس.

فقد كانت كل من (إنجلترا، وفرنسا، إسرائيل) يصطرعون عليها ويتمنون القبوع فى أرباضها، يستروحون الهواء عند أحقاف القناة، وكدر رؤوسهم، وشق على بصائرهم تأميم عبد الناصر لهذه الشركة التى هى كما عبر هذا الزعيم الوطنى فى خطابه بالمنشية بالإسكندرية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦م، شركة مساهمة مصرية.

ولا جَرَم أن نذكر فى هذا الخصوص نُتفًا متفرقات عن هذا الحدث التاريخى الذى كان نقطة تحول فى تاريخ مصر والوطن العربى برمته بل والصراع العربى الإسرائيلى.

يقول "مردخاى بار أون" ردًا على سؤال وجه إليه من أحد الصحفيين:

إن إسرائيل قد كان فى مكنتها ألا تزج بنفسها فى داخل هذه الحرب لأنها كانت حرب (خيار حقيقية) وألا تنضم للجوقة الفرنسية والبريطانية فى نضالها ضد تأميم قناة السويس. فتلك الحرب لم تكن بمثابة ضربة وقائية، أوردًا ضروريًا على الأخطار الفورية التى تهدد إسرائيل.

كان الإسرائيليون متفقين تمامًا فى الرأى بأنه حتى لو كانت إسرائيل تمتلك الخيار الآن فإنها فى المستقبل لن تجد أمامها مفرًا سوى أن تتصدى لمصر وتردعها. لذا فقد كان عليها اختيار الوقت المناسب لشن تلك الحرب بحيث تتمكن من تحقيق أهدافها والانتصار.

والواقع أن إسرائيل كانت فى انتظار الفرصة المواتية للانقضاض على مصر، وقد التقت النوايا الإسرائيلية مع النوايا الغربية بشأن إيقاع الهزيمة بجيش مصر وإسقاط نظامها الثورى.

وتجمع كل الشهادات تقريبًا على أنه منذ إعلان جمال عبد الناصر عن صفقة الأسلحة التشيكية فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٥٥م. والتحفظ

والتوتر يهز كامل العمود الفقرى الإسرائيلى، وقد أصبح الخوف من الجولة الثانية يأخذ معايير زمنية وإمكانية حقيقية إلى حد اعتقاد بن جوريون فى حديثه إلى موشى ديان "اعتقد أنهم سيهاجموننا فى الصيف ويجب علينا الإفتراض بأنهم سيقومون بذلك. فالمنطق يقول إنهم سيشنون هجومهم بمجرد تأكدهم من إمكانية النصر".

وتؤكد المصادر الإسرائيلية المعاصرة على أن كميات ونوعيات الأسلحة التى بدأ السوفييت فى إرسالها إلى مصر قد أدت إلى تقويض التوازن التسليحى فى الشرق الأوسط ويعلق موشى ديان على صفقة الأسلحة التشيكية قائلًا:

"هذه الصفقة فى ضوء ما اعتادت دول الشرق الأوسط أن تعقده من صفقات تبدو أكثر مما هو عادى فضلًا عن إضافة هذه الصفقة إلى ما هو موجود فعلًا فى حوزة مصر قد سبب زيادة اضطراب ميزان القوى المهتز أصلًا فيما بين الدول العربية والإسرائيلية".

وحديث "ديان" عن ميزان القوة يتفق مع تلك البدعة التى خلقتها الدول الاستعمارية وهى مهزلة توازن القوى وأساسها أن لا تعطى الدول العربية مجتمعة من السلاح أكثر مما تعطى إسرائيل بل تعطى إسرائيل أكثر مما تبيع للدول العربية مجتمعة لكى يضمنوا توازن القوى بين العرب وإسرائيل، وبالتالى فإن الميزان طبقًا لمفاهيم الاستعمار يتعادل ويصح طالما امتلكت إسرائيل من الأسلحة والمعدات ما يفوق ما تملكه كافة الدول العربية مجتمعة، والميزان يضطرب ويختل إذا ما كسرت مصر هذا الاحتكار، وقامت بتسليح جيشها لا بغرض العدوان، ولا بفرض الحرب، ولكن بغرض الدفاع عن نفسها.

وفى كتابين أحدهما "يوميات معركة سيناء لموشى ديان" إبان شغله لمنصب رئيس هيئة الأركان العامة، وثانيها "لجولداه مائير" وزيرة خارجية إسرائيل آنذاك يقران كلاهما بذلك أى بالاتفاق مع فرنسا وبريطانيا لشن حرب على مصر.

وتأتى من بعد هاتين الشهادتين ما ذكره "موشى كرمل" والذى كان يشغل منصب وزير المواصلات فى الحكومة الإسرائيلية، والذى كتب مقالاً معنونًا باسم "هكذا اتخذ القرار" أقر فيه أنه شد رحاله مع وفد إسرائيلى إلى فرنسا للتفاوض مع الفرنسيين لتزويد إسرائيل بالسلاح توطئة لإعداد عملية عسكرية ضد مصر.

وكذلك ما أثبته "إسحق رابين" فى مذكراته مضمون ذات ما قرره السابق ذكره.

لعبت إسرائيل – بعد تأميم جمال عبد الناصر لشركة قناة السويس – دورًا انتهازيًا شبهه "موشى ديان" فى مذكراته، براكب الدراجة الذى يسافر إلى أعلى الجبل مستعينًا بعربة تسير أمامه، وعندما يصل إلى هدفه يتركها ويشق طريقه بنفسه!

الدكتور "نبيل الطوخى – حرب ١٩٥٦م – شهادة إسرائيلية"

هز قرار التأميم أوربا الغربية هزًا عنيفًا، وخاصة بعد الكلمة التى ألقاها جمال عبد الناصر، جاء فيها وهو بصدد إعلانه لتأميم شركة قناة السويس:

(أيها المواطنون، بعرقنا ودموعنا، وأرواح شهدائنا، وجماجم الذين ماتوا منذ مائة عام أثناء السخرة، نستطيع أن ننمى هذا البلد، وسنعمل، وننتج، ويزيد الإنتاج على الرغم من كل هذه المؤمرات.

سـنبنى الصناعة فى مصر. وسننافسهم. فهم لا يريدون لنا أن نكون دولة صناعية حتى تروج منتجاتهم وتجد لها سوقًا عندنا.

إننـى لم أر أبدًا معونة أمريكية تتجه إلى التصنيع.. لأن اتجاهها إلى التصنيع سيترتب عليه منافستنا لهم. ولكن المعونة الأمريكية دائمًا تتجه إلى الإستغلال.

اليوم ونحن نسـتقبل العام الخامس للثورة – كما طرد فاروق فى يوم ٢٦ يوليو تخرج شـركة قناة السويس فى نفس اليوم. ونشعر أننا نحقق أمجـادًا لنـا، ونحقق عزة حقيقية فلن تكون سـيادة فى مصر إلا لأبناء مصر. وشعب مصر.

إننا اليوم حين نسـترد الحقوق المغتصبة المسلوبة إنما تتجه إلى القوة وكل عـام سـنزداد قوة على قـوة.. والآن. وأنا أتكلـم إليكم يقوم أخوة مـن أبناء مصـر ليديروا القناة ويقوموا بأعمالها.. إنهم فى هذه السـاعة يتسـلمون شـركة القناة ومرافقها.. القناة التى تقـع فى بلادنا وتخترق أرضنا والتى هى جزء من مصر وملك لمصر. إننا نقوم بهذا العمل لنعوض ما فات ولنبنى صروحًا جديدة للعزة والكرامة..).

وإذ دقت السـاعة العاشـرة والربع من مسـاء ذلك اليـوم أذاع وزير التجارة هذا القرار ومعه قرار تكوين هيئة إدارة شركة قناة السويس.

نقول – التاعت – واستبد بدول الغرب الفزع جراء هذا القرار الوطنى التاريخى، فأصدرت وزارة الخارجية الفرنسية بيانًا رسميًا قالت فيه:

(إن مصـر اعتـدت علـى الامتيازات التـى تتمتع بها شـركة قناة السويس).

أما أمريكا فقد عنّ لها أن تمسك العصا من طرفيها فلم تعترض على قرار التأميم وإنما انصب اعتراضها على الوقت الذى اختارته مصر لإعلانه.

وأما بريطانيا فقد أصدرت قرارين يقضى أولهما بتجميد الأرصدة والأموال المصرية فى بريطانيا - وكانت تبلغ آنذاك أربعمائة مليون دولار استرلينى - أما الثانى فقد قضى بتجميد ممتلكات شركة القناة فى بريطانيا!.

ولقد لقيت مصر تأييدًا عالميًا غير مسبوق من الدول والشعوب العربية والآسيوية والأفريقية بل فى أروبا وأمريكا.

وعلى أثر ذلك ظهرت حركة قوية للمطالبة بعودة جبل طارق إلى أسبانيا لأنه أرض أسبانيا اختلستها واحتلتها بريطانيا عام ١٧٠٤. كما ظهرت قضية "بنما" إلى الوجود، وكان هذا بسبب قناة السويس!

وإذ عقد مؤتمر لندن الذى طار إليه دالاس فى طائرة حربية لاتخاذ التدابير لإنشاء هيئة دولية لإدارة القناة، واعترضت عليه مصر، وشجبه العالم برمته.

وفى يوم الخميس السادس عشر من أغسطس ١٩٥٦ اليوم المحدد لإنعقاد المؤتمر كان يومًا حزينًا أضربت مصر عن العمل منذ الساعة الثانية عشر ظهرًا وقت إنعقاد المؤتمر، وأغلقت فيه المتاجر والفنادق وتوقفت حركة المواصلات، والقطارات، والمطارات، والموانئ، وكان الإضراب إضرابًا وطنيًا شاملًا اشتركت فيه مصر بكامل شعبها فى كل مدينة. وفى كل قرية، وشارك مصر إضرابها جميع البلاد العربية، وثارت المظاهرات فى كل زمان ومكان حتى فى فرنسا نفسها، وكذلك فى إيطاليا، وأسبانيا، واليونان.

واكتملت خيوط المؤامرة بسحب المرشدين الأجانب من شركة القناة حتى يُقعسوا مصر عن إدارة قناتها، ونجحت مصر وانتصرت فى معركة المرشدين.

وانتقدت صحيفة "التايمز" الموقف الأمريكى قائلة عنه: (أنه ملتو وسلحفائى)

واعترض الشعب الإنجليزى نفسه على سياسية إيدن تجاه مصر، وأمام تمثال "نيلسون" القائم فى ميدان "ترافلجار" بلندن. اجتمع ثلاثون ألفًا من عمال لندن وجلاسجو، وجنوب ويلز، وسيدنى، وليفربول. وخرجت ثلاث مظاهرات تجوب شوارع لندن وهى تحمل لافتات كتب عليها (نريد السلام).. (ولا حرب بسبب قناة السويس)!

ولكنها كانت الحرب!.

"ولم يعد كل شىء هادئ فى الميدان الغربي

– كما عبر الروائى "إريك ماريا ريماك Eric Maria remak" فى روايته الرائعة عن الحرب العالمية الثانية All quiet on the Western front". إذ رعد رعدها، وبرق برقها، ودقت طبولها.. طبول الغدر والعدوان، واحتلت إسرائيل سيناء، وهبطت الطائرات المغيرة من الجو والبحر واستمر العدو يرمى بأفواج جديدة من البر الذى أنزل فيها قواته تصحبها المدرعات وبجيش عرمرم، وتحولت المعركة إلى قتال فى الشوارع وتحصنت القوات المصرية ومعها المقاومة الشعبية فى المنازل والطرقات، وإذ تنفس الفجر من اليوم الخامس من نوفمبر ١٩٥٦ كان احتلال المعتدون لبورسعيد توطئة لاحتلال الإسماعيلية والسويس، واستمر الضرب على بورسعيد

حتى صحوة النهار، ويمم الجيش المصرى وجهه ومعه الشرطة والشعب شـطر القوات المغيرة، فأبادوا قوات المظلات التـى هبطت على المدينة فأبادوها عن آخرها، وإذ جن جنون العدو وفقد صوابه دأب على قصف المدينـة بالقنابل والصواريـخ وبلغ عدد الغارات فى هذا اليوم ٤٧٣ غارة أى بواقع غارة كل ثلاث دقائق؟!

وظلت المدينة الباسـلة، بل مصر بأكملها صامدة وخاضت بشـعبها حربًا ضروسًـا اسـتمرت المقاومة فيها والتصدى للعدوان حتى السـاعة الثالثة من صباح يوم الأربعاء ١٩ ديسـمبر ١٩٥٦ بعد أن ووجه المعتدون بإسـتنكار عالمى كان على رأسـه الولايات المتحدة الأمريكية ورئيسـها الجنرال "دوايت أيزنهاور Dwight Eisenhower".

وفى الساعة السادسة من صبيحة يوم الأربعاء ١٩ ديسمبر ١٩٥٦ قام جنديان بريطانيان بإنزال العلم البريطانى من فوق شـركة قناة السويس، وكان الأمـر كذلك مع القوات الفرنسـية بعد أن نهبوا مدينة بورسـعيد نهبًا، وسـلبوا متاجرها ومحلاتها سـلبًا وجاسـوا خلال أرضها بالبغى والعدوان.

وإذ تلـكأت إسـرائيل فى الإنسـحاب، جمعت بعد ذلـك أذيالها وغادرت غزة ـ التى كانت قد احتلتها، ومعها دير البلح، وخان يونس، فى جنح الظلام.

وخاضت مصر حربًا جديدة بتطهير القناة التى توقفت حركة الملاحة فيها بسبب العدوان الآثم الغادر المقيت.

نعم تاريخنا مع القناة يتحرك؟

فقد أطل علينا صديقنا الدكتور "كمال محجوب" الاقتصادى الكبير، ورئيس مجلس إدارة دار المعارف، ومجلة أكتوبر. ومركز آراك، من خلال شاشة التلفاز المصرى وهو يحدثنا حديثًا مَلِيًا عن مشروع "محور قناة السويس"

ومن بين ما قال:

إنه حضر مؤتمرًا بوجود رئيس وزراء مصر وبعض الوزراء ولفيف من رجال الأعمال المصريين الذين يعملون بالخارج للنظر فى هذا المشروع والبدء فى تنفيذه وأن هذا المشروع قد بدأ التفكير فيه منذ عام ١٩٥٠ مع محاولات كانت تترى عليه بين الحين والحين، وأنه يربط المحافظات الثلاثة (بورسعيد، والإسماعيلية، والسويس) بسيناء شمالها وجنوبها وأنه سوف يطرح على بيوت الخبرة العالمية بشريكين أحدهما مصرى والآخر أجنبى لتقديم الخدمات التكنولوجية للحاويات العملاقة التى تمخر عباب مياه قناة السويس، وليس ثمة أماكن لتفريغ حمولتها على جانبى القناة ومن ثمة فلا رسوم عليها. وأن الدولة سوف تطرح صكوكًا لمدة تتراوح بين العشر سنوات والربع قرن لتنفيذ هذا المشروع الصناعى الزراعى التجارى، وقيمة الصك حوالى مائة مليون جنيه.

وأردف قائلًا:

إن من كان يريد إقامة مشروع على ضفتى القناة يحتاج للحصول على ٤٧ توقيع وأن المشروع المزمع عمله يمحو هذا التخلف الإدارى ويجمع التوقيعات جميعها فى توقيع واحد، وأن كلًا من مشروعى شرق التفريعة ووادى التكنولوجيا ينتهى العمل فى الأخير من عام ٢٠١٧.. وأن هذا المشروع مشروعًا عالميًا يدر على مصر الكثير من الخيرات.

وهاك هو – أيها القارئ العزيز – المسودة لهذا المشروع المزمع عمله:

البدء بثلاث مشـروعات تنموية رئيسية هي: شرق بورسعيد وتنمية شمال غرب خليج السويس وميناء السخنة ووادى التكنولوجيا

إنشاء هيئة عامة لتنمية إقليم قناة السويس تتبع رئيس الجمهورية

إعفاء المشروعات من الضريبة على إيرادات النشاط التجارى والصناعى لمدة ١٠ سنوات ومن ضريبة الدمغة

إعفاء الآلات والمعدات والأجهزة اللازمة لإنشـاء الشـركة أو المشروع أو المُستثمر من الضريبة الجمركية

شـروط الإعفاء: تشـغيل ٨٠٪ من العمالة المصرية وتصدير ٦٠٪ من المنتجات للخارج ويثبت عليها «صنع فى مصر»

تـؤول حصيلة البيع الناتج عـن التصدير بالعُملة الأجنبية إلى الدولة وتحويل قيمتها للمُستثمر بالجنيه

حظـر الحجز الإدارى على الشـركات بالإقليم وعـدم جواز وضعها تحت الحراسة إلا بحكم قضائى

يبحث مجلس الوزراء مسودة مشروع قانون تنمية إقليم قناة السويس وسـيناء فى ضوء ما انتهت إليه اللجنة المشـكلة برئاسـة الدكتور طارق وفيـق، وزير الإسـكان والمرافق والتنمية العمرانيـة فى هذا الخصوص، تمهيدًا لاتخاذ إجراءات استصداره.

مسودة القانون والمذكرة الإيضاحية

وتنقسـم مسـودة مشـروع القانون ومذكرته الإيضاحية إلى أربع مواد للإصدار، بالإضافة إلى مواد وأحـكام تناولها القانون فى أربعة أبواب، خص الأول منها للتعاريف والأحكام العامة، وعالج الباب الثانى أهداف

واختصاصات هيئة تنمية إقليم قناة السويس، أما الباب الثالث فقد نظم الحوافز التى قررها المشروع للمستثمر، واختتم بباب رابع أخير لكيفية فض المنازعات التى تنشأ بين الشركات المستثمرة والهيئة وغيرها من الأشخاص قبل رفع هذه المنازعات إلى المحاكم المختصة.

وأوضحت المذكرة الإيضاحية للمشروع الأهداف المطلوب تحقيقها لتنمية إقليم قناة السويس: منها زيادة مساهمة المشروعات القومية بالإقليم (شرق بورسعيد، والميناء المحورى وادى التكنولوجيا، والمناطق الصناعية، والمناطق الحرة)، فى جذب المزيد من الاستثمارات لتنميتها والتوسع فيها، بالإضافة إلى المساهمة فى إعادة توزيع السكان بالإقليم، والاستفادة من محور قناة السويس فى مجال التجارة والنقل واللوجيستيات، وتحقيق الميزة التنافسية للإقليم بالتركيز على مجالات السياحة والتجارة والنقل والصناعة وإنتاج الطاقة.

ويُضاف إلى ذلك مضاعفة القدرة التصديرية من المنتجات الزراعية والصناعية السياحية والاكتفاء الذاتى لمصادر الطاقة الحيوية والمتجددة وتصدير الفائض منها، وتطوير وتدعيم شبكة النقل و الاتصال

(الطرق والسكة الحديد وشبكة الموانئ والمطارات) بما يمكن الإقليم من أداء دوره اللوجيستى، وتعظيم استغلال الموارد الطبيعية والتعدينية بالإقليم لرفع المستوى الاقتصادى داخل الإقليم وتحقيق الاعتبارات الأمنية بتنفيذ الأنشطة المقترحة للتوطين.

ونوّهت المذكرة الإيضاحية إلى دعوة الدولة إلى النظر بالبدء فى ٣ مشروعات تنموية رئيسية بطول محور قناة السويس كأولوية أولى وهى: «مشروع تنمية شرق بورسعيد. ومشروع تنمية شمال غرب خليج السويس

وميناء السخنة، ومشروع وادى التكنولوجيا بالإسماعيلية».وتعالج نصوص المشروع تعريفات عناصر المنظومة القانونية والإدارية والاقتصادية التى يحكمها، فنص فى فصله الثانى على إنشاء هيئة عامة لتنمية إقليم قناة السويس، على غرار القانون رقم ٥٩ لسنة ١٩٧٩ بشأن هيئة المجتمعات العمرانية الجديدة، وأيضًا على نحو مماثل لما قرره القانون ٣٠ لسنة ١٩٧٥ بشأن نظام هيئة قناة السويس.. وخول المشروع رئيس الجمهورية بقرار منه تحديد الأبعاد والحدود والمناطق الخاصة بالمشروعات الداخلة فى نطاق الهيئة وذلك خلال ستة أشهر تبدأ من تاريخ العمل بهذا القانون.

وأعفى المشروع عائد الهيئة من الضرائب على أن تقوم بتحويله إلى الخزانة العامة، واعتبر أموال الهيئة أموالاً عامة فى تطبيق قانون العقوبات.

وأعاد مشروع القانون العمل ببعض الإعفاءات المُلغاة من أجل إعطاء دفعة إلى الأمام بالنسبة للمشروعات التى ستقام فى قطاعات الإقليم، حيث أعفى من الضريبة على إيرادات النشاط التجارى والصناعى لمدة ١٠ سنوات، على أن يكون الإعفاء لمدة خمس سنوات على التوسعات التى يوافق عليها مجلس إدارة الهيئة، والإعفاء من ضريبة الدمغة ومن رسوم التوثيق وشهر عقود تأسيس الشركات والمنشآت وعقود القرض لمدة ثلاث سنوات من تاريخ القيد السجل التجارى.

كما امتد الإعفاء من تحصيل الضريبة الجمركية على جميع ما تستورده شركة المشروع أو الشركة المسجلة أو المستثمر من آلات ومعدات وأجهزة لازمة لإنشائها، على أن يبدأ التمتع بالإعفاء من تاريخ بدء الإنتاج أو مزاولة النشاط حتى نهاية السنة المالية التالية لذلك، وعلى الشركة أو المستثمر إخطار الهيئة بتاريخ بدء الإنتاج أو مزاولة النشاط.

وامتدادًا لهذه المميزات وتطبيقا للقواعد العامة المقررة للشركات الخاضعة لقوانين الاستثمار، فقد حظر مشروع القانون الحجز الإدارى على الشركات التى تمارس نشاطها فى قطاعات الإقليم، وفى نفس الوقت عدم جواز وضعها تحت الحراسة إلا بحكم قضائى.

واشترط المشروع لتمتع الشركة أو المستثمر بالإعفاءات المذكورة، أن يكون شركة مساهمة مصرية مؤسسة وفقا لقانون ضمانات وحوافز الاستثمار، وألا تقل نسبة العمالة المصرية فى المشروع عن ٨٠٪، وأن يصدر ٦٠٪ من منتجاته إلى الخارج على أن يثبت عليها «صنع فى مصر»، وتؤول حصيلة البيع الناتج عن التصدير بالعملة الأجنبية إلى الدولة، ويتم تحويل قيمتها للمستثمر بالجنيه المصرى بسعر الصرف المعلن من البنك المركزى فى تاريخ التحويل وذلك للمشروعات الصناعية.

كما ألزم المشروع الشركة أو المستثمر البدء فى مباشرة نشاطه طبقا للبرنامج الزمنى الوارد فى العقد، وبجميع القوانين والقرارات المنظمة للإقليم والسارية فى تاريخ بدء النشاط المرخص به، وبسداد مقابل الانتفاع لما خصص له وفقا للأسلوب ونوع العملة الواردين فى قرار التخصيص.

وأفرد المشروع بابًا خاصًا بتسوية المنازعات التى تنشأ بين الشركات أو المستثمر والهيئة وغيرها من الأشخاص العاملين فى القطاعات قبل رفع المنازعات إلى المحاكم المختصة.

وأعطى المشروع رئيس الهيئة العامة لتنمية إقليم قناة السويس جميع اختصاصات الوزراء ورؤساء الهيئات العامة فى نطاق الإقليم، فيما عدا وزراء الدفاع والداخلية والعدل ورئيس هيئة قناة السويس، وحظر على رئيس الهيئة والأعضاء وأزواجهم وأقاربهم حتى الدرجة الرابعة أن

يكـون لأى منـه خلال مـدة عضويتـه أى منفعة أو تعامـل مع الهيئة أو فروعها بأى صورة من الصور.

ونص المشروع على أن تؤول إلى الهيئة ملكية جميع الأراضى المملوكة للدولـة والواقعة داخل قطاعات الإقليم فيما عدا الأراضى التابعة للقوات المسلحة، ووزارة الداخلية، والأراضى اللازمة لإدارة هيئة قناة السويس، كما تؤول إلى الهيئة الحقوق والالتزامات المترتبة على العقود والتصرفات الواردة على هذه الأراضى والمنشـآت الكائنة عليها، قبل العمل بأحكام هذا القانون.

ونص المشـروع على أنه لا يجـوز للهيئة التصرف فى الأراضى التى آلت إليها بغرض إقامة المشـروعات طبقا لأحكام هذا القانون إلا بطريق حق الانتفاع، على أن تستثنى من ذلك الأراضى السكنية داخل الأحوزة المعتمدة للمدن والتجمعات العمرانية المخططة، طبقًا للقوانين واللوائح.

إنه من المنتظر توقيع عقد هذا المشروع فى أول سبتمبر ٢٠١٣

ونحن نقول تعقيبًا على ما سمعناه وما قرأناه سـواء مما كتبناه أو مما سـطره المعارضون له المتخوفون منه أن قاموس (Webester) عرف العلم بأنه المعرفة المنسقة التى تنشأ عن الملاحظة والدراسة والتجريب.

وقد اتفق على تعريف العلم بأنه:

«طريقـة منظمة للحصول على المعرفة، ودراسـة التتابع بين السـبب والمسبب (Cause and - effect)».

ويذكر أحد العلماء وهو الدكتور «محمد شهاب أحمد» أستاذ التكنولوجيا بجامعة بغداد أن:

«دراسة التتابع بين السبب والمسبب حل محلها العلاقة بين المتغيرات»

وتأسيسًا على ذلك وبالبناء عليه فإن البحث العلمى يستند إلى ثلاثة مرتكـزات تتحصل فى وجـود ظاهرة أو مجموعة ظواهر تكون أساسًـا للدراسـة واسـتخدام المنهج العلمى للبحث عن ماهيـة هاتيك الظواهر والوصول إلى مجموعة القوانين العلمية المنظمة لذلك.

وهـذا هو ما ارتآه من قبـل العالم الفرنسـى «بونكاريه Bounkar» إذ أكد أن ماهية العلم ترصد ما بين الأشياء والظواهر من علاقات.

وهذا هو جوهر المعرفة العلمية.

ثمـة كتـاب لعمـلاق الأدب الإنجليـزى والعالمـى «شكسـبير Shakespeare»، أسماه مترجمه «العبرة بالخواتيم»

ومن قبلها قال هذه الآبدة رسول الله – عليه الصلاة والسلام.

فهل يعيد مشـروع محـور قناة السـويس مصر إلى عهـد التأوهات والآهـات؟.. أم أنـه فـى سـبيله إلى أن يفتـح على مصر بـاب الرزق والخيرات؟!

نعم.. العبرة بالخواتيم!

❑❑❑

مشكلة التعليم فى مصر

يقول «تشارلز إسكندر روبنسون Charles Alexander Robinson» فى كتابه القيم «أثينا فى عهد باركليس» إن تَوق الإغريق إلى الاستقلال الذاتى مُيز بها تطورهم الحضارى ودفعت بهم إلى مستوى العيش الكريم لم تبلغه من العصور الخوالى.

فقد كان الإغريق أول شعب فى التاريخ – طبقًا لما قال به المؤلف – يعرف قيمة الفرد وأهميته. كما اكتشف الشعب العبرانى القديم (الله الواحد).

وقد جاء فى كتاب أحد مفكرى الإغريق «بروتاجروس Protagoras» أن كل شىء فى الكون مقاس من حيث قيمته بالنسبة للإنسان.

وكان مرجع ذلك يعود إلى العلم، والتعليم الذى ذاع وشاع فى أرجاء أثينا.

وفى القرن الثانى الميلادى وفى عهد الامبراطور «هدريان» استطاعت الامبراطورية الرومانية – بسبب العلم – أن ترتفع إلىسدة العالم المتحضر بأسره إلى ذرى لم تبلغها المدنية من قبل.

وقد تساءل «سوفوكليس Sophocles» فى روايته الموسومة بـ فيلوكتاس: «لماذا يشقى الصالحون والأبرار من الناس؟، وأجاب: إن ذلك من أثر الحياة فى القيمة الأخلاقية».

كان أرسطو يعلم الناس دون أن يتقاضى أجرًا منهم على تعليمه إياهم.

وكان أفلاطون يحاول أن يفهم أسباب سقوط أثينا وتوصل أنه كان يجب على الناس أن يرجعوا إلى نور العقل.

ونحن فى مصر لم نكتشف بعد قيمة العقل.. ولم نعرف بعد قيمة العلم؟.

وتقاضى المعلمون الذين ينهضون على العملية التعليمية الأجر تلو الأجر على ما يلقنوه لطلاب العلم، وانكبوا على مد أيديهم إلى جيوب أولياء أمورهم.. حتى شقى الصالحون والأبرار، وجأر بالشكوى منهم الأتقياء والأشرار؟!.

وأمست مشكلة التعليم فى مصر أشبه بمأساة أغريقية دفعت عبقرى مصر الدكتور «طه حسين» إلى أن تدبج يراعته كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» الذى دفع به إلى وزارة المعارف المصرية عام ١٩٣٧م لعلهم يفيدون منه.. وما استفادوا.. وما أفادوا؟!

وكان «طه حسين» يرى أن نظام التعليم فى مصر «لا يكفل رقيًا ولا صلاحا» وأصبح فن صناعة البشر فنًا غريبًا على مصر بغياب المعلم الذى هو البانى الأعظم لصرح التعليم فيها، إذ سقط النظام برمته فى مستنقع الدروس الخصوصية، والتى كانت نتيجة لعدم قيام المعلمين بواجبهم التعليمى الأمثل فى أروقة دور التعليم.

وأضحت العملية التعليمية بعبارة العقاد الذى ذكرها فى كتابه «على الأثير» «من الصعوبة والإعنات بحيث تتقاصر دونها الهمم، وتقف العقول» ذل عنان التعليم وأصبح التعليم سلعة تباع فى الأسواق.

أصبح نظامنا التعليمى قائمًا على الحفظ والتلقين، والتذكر والتكرار الممل الذى لا يغذى العقل، ولا يمد القلب بدم جديد دون فهم أو إفهام،

وأصبحت المعارف تقتحم العقول دون فيض أو إلهام على عكس ما هو موجود فى بلاد الغرب وفى الدول الحديثة التى بلغت ما بلغت من العلو والمجد بسعيها الدؤوب إلى النهوض بالعملية التعليمية، وشحذ الهمم على التفكير السليم المستقيم الذى يجمع بين العمق والرحابة ويبتعد عن الحفظ والتلقين.

ولا مراء أن شباب مصر جُلهم أضحوا يبحثون عن الشهادة التى رأوا فيها «صكًا» لخوض المستقبل دون أن تفيدهم بشعاع من الروح، أو قبس من نور العقل؟.

وأصبح الشباب خاضعًا خانعًا لنظام التعليم المصرى الذى يصادر حرية الفكر ويقتل النقد والإبداع.

وأصبح المجتمع المصرى بفئاته يأكل بعضه بعضا.. وصدق من قال:

«وليس الذئب يأكل لحم ذئب
ويأكل بعضنا بعضًا عيانا؟!»

عرفت مصر رجالًا نهضوا بها أو حاولوا مثل: «رفاعة رافع الطهطاوى، وعلى مبارك، والإمام محمد عبده، والشيخ حسن العطار الذى كان متفتح الذهن عصرى التفكير وطبقت شهرته الآفاق وخرجت النهضة المصرية الحديثة على رأس «عمامته» حيث كان شيخًا للجامع الأزهر.. يعلم تلاميذه كيف يدخلون إلى رحاب الحضارة الحديثة.. وكان إنشاء دار العلوم ١٨٩٢م وفتح بابها للمتعلمين، وإنشاء المدارس الصباحية والمسائية مع دب الحياة فى الجامعة المصرية فتحًا مبينًا أمام العملية التعليمية. بيد أن الاستعمار الإنجليزى وقف أمام هذه العملية بالمرصاد.

تقــص علينا رائــدة التعليم فى مصر «نبوية موســى» وقد عن لها أن تخــرج عن نطاق المنهج المقرر على الطالبات اللائى تقوم على تعليمهن، هــرع إليها أحد المفتشــين الإنجليز كى يقــوم باختبــار الطالبات عما درســنه، فأصابته الدهشــة إذ رآهم يجيبون على أسئلتهم بسرعة فقال لنبوية موسى:

لقد تحققت أن لكى طريقة (شــاذة) فى التدريس لا تتبعها المدارس الأخرى

فسألته:

أرجو أن تخبرنى عن رأيك فى طالباتى وطالبات المدارس الأخرى؟

فأجابها:

إنهن أقوى تفكيرًا وأكثر اســتعدادًا..وهن أقوى من طالبات المدارس الأخرى بلا جدال.

فقالت له:

إذن أطلب من المدارس الأخرى أن تتبعنى.

فقال لها:

لقد استدرجتينى إلى ما أريده.

فقالت له:

إنما استدرجتك الحقيقة التى لا مراء فيها؟!

وذلــك لأنها كانــت تقوم بالتدريــس بطريقة حديثة لا حشــو فيها ولا تلقين وإنما تعتمد على العقل، والعقل وحده.

وإثــر عودة تلميذ العقاد الوفى، والفيلســوف الألمعــى الدكتور «ذكى نجيب محمود» من غربته عام ١٩٤٧م دأب على أن يدعو مصر إلى اعتناق

المذهب العلمى «فى التعليم»، وطرح طريقة وزارة التعليم من العملية التعليمية تلك الطريقة الصماء البكماء.

وألف كتابين من كتب التنوير أوله «شروق من الغرب»، والثانى «الكوميدية الأرضية»، ودعا إلى الأخذ بالنمط الثقافى الغربى لأن الغرب هو العصر وصانع حضارة عصرنا.

وقال:

لم تكن دعوتى إلى ثقافة الغرب «صيحة مجنونة» معنونة بمظاهر كاذبة بل هى دعوة دفعنى إليها ما رأيته من مكانة رقيقة للإنسان، كل إنسان، وأى إنسان، من حيث إنه إنسان وكفى، بعدما قارنت - رغم أنفى بعد ما رأيته هناك ورأيته هنا، ولا سيما بعد أن ديست حقوق الإنسان «والأبرياء» تحت أقدام الأقوياء.

وكان جوهر دعوته كما دعا من قبل العقاد، وطه حسين، ولطفى السيد، وسلامة موسى، وغيرهم.. من حيث وجوب إعمال العقل فى أمورنا الذى يجب أن يكون هو القدح المعلى فى نهضة مصر الحضارية، بنظرة علمية فننظر إلى الواقع كما هو لنحوله إلى واقع جديد.

وفى خضم دعوته هذه للأخذ بالمنهج العلمى، فى العملية التعليمية ضرب مثلًا بتلك الحكمة الصينية التى تتحصل فى أن فقيرًا كان يتضور جوعًا، مر صائد أسماك فمد يده إليه يستجديه أن يعطيه «سمكة» يسد بها رمقه، وإذ كان يجلس على حافة النهر حكيمًا صينيًا شاهد هذا الموقف فقال للمعطى: خير لك أن تعلمه صيد السمك من أن تتصدق عليه بسمكة.. وأردف قائلًا: السمكة المعطاة ماهى إلا وجبة واحدة تأتى بعد زوالها حاجة متكررة ودائمة إلى الوجبات، أما إذا علمته الصيد فسوف يجد دائمًا ما يشبعه إذا ما استبد به الجوع.

هذا الفيلسوف، كان يرى فى كتابه: «الشرق الفنان»:

إننا نريد لأمتنا أن تسير مع العلم بقوة الإيمان، وضرب مثلًا لذلك إنه بعد أن توارت «أثينا» أصبحت الإسكندرية التى تمثل الشرق الفنان عاصمة الثقافة فى العالم القديم، ففيها بدأ اللاهوت المسيحى لأول مرة ينسق بين العقيدة من جهة والعقل من جهة أخرى وساق مثلًا من ذلك «بأورجين» اللاهوتى الإسكندرى الشهير الذى قال إن الفلسفة القائمة على العقل المنطقى الصرف، والإنجيل القائمة على الإفهام يتطابقان ولا يتعارضان.

قمين بنا إذن أن نخرج من حضارة اللفظ، إلى حضارة الأداء.

ولا جَرَم أن نلخص هنا ما أجمع عليه العلماء والأدباء من أقوالهم التى قامت على المنطق السليم إذ رأى البعض أن «التعليم أمة فى خطر، فقد جنى التعليم على الثقافة والأمن القومى». وأن جناية التعليم على الثقافة جاءت من الفصل الحاد فى شجرة المعرفة ما بين تخصص العلمى، وتخصص الأدبى، وأن الرؤيا العلمية يجب أن تكون فى الأهداف الكبرى للتعليم، وعلينا أن نواجه كل ما يتعارض مع هذه الأهداف.

فوزارة التربية والتعليم «عملت كل شىء، وفشلت فى كل شىء»

وإننا إذا عدنا للماضى يوم أن كان العرب والمسلمين صناع للحضارة والتقدم انبرى لهم اليونان، وراحوا يترجمون كل ما وصلت إليه أيديهم من تراث وفقه العرب والمسلمين يوم أن كانوا يلعبون دور المبادئ أو المرسل على حين كان اليونانيون يقومون بدور المتلقى فتلقف الغرب ذلك التراث عن اليونان ونهض به.

وإن التعليم أصبح فى مصر أداة للقهر وليس إلى التحرر.

وهاهوذا «طه حسين» الذى لم تتحقق نبوءته التى جاءت فى كتابه الذى ألمعنا إليه «مستقبل الثقافة فى مصر» يرى أن حال التعليم عندنا منحط. ونظام التعليم عندنا منحط بل أستطيع إن أقول أن نظام التعليم عندما غير موجود.

وقدم طه حسين الكثير من الحلول لنهضة التعليم.. فهل قرأها المسئولون عندنا؟

فإذا كانوا قد قرأوها فتلك مصيبة.. وإذا كانوا لم يقرأوها فالمصيبة أعظم!.

حقًا لقد أصبحت مشكلة التعليم فى مصر ملهاة ومأساة كالتى حفل بها الأدب اليونانى.. فهل آن الآوان لبعث الروح فيها وإعادة الوعى المفقود إليها..؟.

أمسى ما يقال على أن ثمة تعليمًا فى مصر هو الخرافة بعينها تفوق خرافات لافونتين «Jean de La Fontaine».

وأضحى طلبة العلم فى مصر يتلقون التعليم وهم أشبه «بالببغاوات» يصدق عليهم قول أمير الشعراء:

كان لبعض الناس ببغاءُ ما ملَّ يومًا نطقها الإصغاءُ
رفيعة القدْرِ لَدَى مولاها وكلُّ مَنْ فى بيتِه يهواها

نؤمل أن يغادر مصر فى معاهد علمها عصر الحفظ والتلقين. هذا العصر غير المأسوف عليه من منهج التعليم فى مصر.. والذى سدر فى غيه وغبائه فأمسى بقعة سوداء على وجه العقول. فأضحى الوطن بها هو الواطن الذلول!

□□□

وتبقى مشكلة منطقة أم الرشراش المصرية؟!

كتبنا عن أم الرشـــراش المصرية والتى سلبتها إسرائيل من مصر عنوة واقتـــدارًا فى مقال لنا نشـــر بجريدة الوفد وضمنته ضمـــن مقالاتنا التى جمعت ونشرت فى كتابنا «خواطر قاضٍ».

المقال المذكور كان بمناســـبة ذكرى «مصطفى النحاس» موســـومًا باسم «ذكرى مصطفى النحاس سيد الناس» قلنا فيه:

«إن التاريخ لن ينسى لمصطفى النحاس؛ إنه حال إنشاء دولة إسرائيل عقب حرب ١٩٤٨م قد حذر من احتمال إقدام إسرائيل على إنشاء دولة إسرائيل على حدود مصر الشرقية مصرًا على أن تكون قرية أم الرشراش جزءًا لا يتجزأ من الأراضى المصرية».

ووقفـــت الأقدار علـــى أن تنقذ مصر هذه البقعة الغالية من أرضها من يد الأشرار الذين تربصوا بها الدوائر.

وقرية أم الرشـــراش التى هى ميناء (إيلات) حاليًا مدينة إســـرائيلية على ســـاحل خليج العقبة وتقع فى أقصى جنوب فلســـطين بين مدينة العقبة الأردنية من الشـــرق وبلدة طابا المصريـــة من الغرب. تطل المدينة على ميناء يوصل إســـرائيل بموانى الشرق الأقصى وعلى منطقة سياحية كبيرة نسبيا مكونة من بضعة فنادق ومنتجات.

تتميز مدينة إيلات (أم الرشراش المصرية) بمعبرين حدوديين مفتوحين بالقرب منها يســـهلان حركة الســـياح منها وإليها ومن مطارين يخدمان الســـياح – مطار صغير داخل المدينة ومطار أكبر يبعد ٥٠ كم شمالا لها.

أمـا من ناحية المواصلة البرية إلى داخل إسـرائيل فتعتبر إيلات منعزلة عن باقى المدن الإسـرائيلية؛ إذ يصل إليها شارع رئيسى واحد فقط يمر فى وادى عربة. لم يتم رسم الحدود الإسرائيلية المصرية بين إيلات وطابا إلا فى ١٩٨٨م لعدم وضوح مكانها بدقة، ولكن منذ رسمه النهائى يوجد معبر حدودى مفتوح على مدار السـاعة ويخدم السياح العابرين من شبه جزيرة سيناء إلى إيلات. فى ١٩٩٤م تم افتتاح معبر مماثل بين إسرائيل والأردن شمالى مدينتى إيلات والعقبة.

احتلت القرية أو المدينة فى ١٩٥٢م حيث افترسـتها قوة إسرائيلية بقيادة اسـحق رابين عملية «عوفيـدا» فى ١٠ مارس ١٩٤٩م. وما زالت بعـض المنظمات غـير الحكومية فى مصر تطالب بها على أسـاس أنها «أرض مصريـة». كمـا طالب الرئيس السـابق محمد حسـنى مبارك، الإسـرائيليين عـام ١٩٨٥م بالتفاوض حول أم الرشـراش، التى أكدت وثائـق جامعة الدول العربية أنها «أرضًا مصرية» بيد أن طلبه وضع بين الأضابير الإسرائيلية؟!.

عقب حرب ١٩٦٧م واحتلال الجيش الإسرائيلى لشبه جزيرة سيناء أصبحة إيلات محطة للجنود وللسـياح الإسـرائيليين الذين سافروا إلى جنوب سـيناء. بعد إتمام إعادة سـيناء لمصر فى أبريل ١٩٨٢م فى إطار الاتفاقية السـلمية بين البلدين وحلت (إيلات) محل المواقع السـياحية فى جنوب سـيناء من ناحية السياحية الإسـرائيلية الداخلية فتوسعت المنطقة السياحية منها. منذ افتتاح المعبر الحدودى فى طابا فى ١٩٨٨م وإعفاء المواطنين الإسـرائيليين من ضرورة طلب التأشـيرة سلفا لزيارتها

شرقى سيناء. ومن ثم وقد أصبحت إيلات من جديد محطة للعابرين من إسرائيل إلى جنوب سيناء.

فى ٢٠٠٦م أنهى وزير الخارجية المصرى آنذاك أحمد أبو الغيط الجدل حول ملكية مدينة أم الرشراش بتأكيده على أنها أرض عربية تابعة لمصر وفقًا لاتفاقيتى ترسيم الحدود بين بريطانيا والدولة العثمانية فى ١٩٠٦م و ١٩٢٢م.

تم اختيار اسم «إيلات» للمدينة الجديدة نسبة إلى اسم موقع قديم يذكر فى الكتاب المقدس وقع حسب التقديرات على شاطئ خليج العقبة:

«فى ذلك الوقت أرجع رصين ملك آرام أيلة للآراميين وطرد اليهود من أيلة وجاء الآراميون إلى أيلة وأقاموا هناك إلى هذا اليوم». (سفر الملوك الثانى، إصحاح ١٦، ٦). وفى النص العبرى الأصلى يظهر اسم «أيلة» אילת ويلفظ فى العبرية الحديثة "إيلات".

كانت أم الرشراش تحت مظلة مصر. وعندما اغتصبها الصليبيون استردها منهم صلاح الدين الأيوبى، وإذ عادوا من جديد فقد تمكن السلطان الظاهر بيبرس من دحرهم منها عام ١٢٦٧م.

ونهض السلطان «قنصوة الغورى» على بناء قلعة حصينة فيها لتحميها من غائلة المعتدين إذا ما عن لهم الإغارة عليها.

والذى لا مشاحة فيه أن الملكية لا تسقط بالتقادم طبقًا للمبدأ القانونى السليم المستقيم.

ومن ثم فإن هذه البقعة الغالية من تراب مصر لما تزل تابعة لمصر تدور معها وجودًا وعدمًا.

ومن ثم فإننا نرى أن تلجأ مصر إلى القانون الدولى الذى يحكم العلاقات بين الدول ويمنع أية دولة من الافتئات على حق دولة أخرى. كما فعلنا مع طابا من قبل وعادت بحكم دولى إلى أمها مصر.

ألم يـأن الآون.. وقـد آن، أن تطالب مصر بحقها فى أم الرشـراش لحكـم أنها تابعة لها وقد اغتصبتها إسـرائيل بليـل، وحان الوقت أن تطالب مصر بها عبر المحافل الدولية بعد أن بزغ عليها ضوء النهار؟

□□□

المؤلف فى سطور

- تخرج المستشـار محمد محمد مرشـدى بركات فى كلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٦٧ وعمل فى سلك النيابة ثم فى سلك القضاء وتدرج فى المناصب القضائية حتى وصل لمنصب رئيس محكمة استئناف القاهرة.
- صادق الكثير من كتاب مصر وعلى رأسـهم الأسـتاذ العقاد والأسـتاذ توفيق الحكيم ويوسف جوهر ومحمد التابعى ومحمد زكى عبد القادر وأحمد بهاء الدين وأحمد الصاوى محمد والشاعر صالح جودت.
- حصل على ٧ جوائز فى أعياد العلم كانت أولاها عام ١٩٥٩ وتسلمها من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.
- حصـل على جائزة الدولة فى التفـوق الإجتماعى فىالمرحلة الثانوية على مسـتوى الجمهورية مـع زميليه المرحوم الدكتـور محمود أدهم نائب رئيس تحرير مجلة آخر سـاعة والأسـتاذ محمود عارف نائب رئيس تحرير جريدة الأخبار

وكانت هذه الجائزة تسمح لحاملها بالالتحاق بجميع كليات الجامعات بدون التقيد بمجموع الدرجات أو سداد المصروفات المقررة.

- شارك فى العديد من البرامج التلفزيونية.
- أسهم بقلمه ورأيه فى كثير من المجالات والجرائد كالأخبار والأهرام والثقافة التى كان يصدرها أحمد حسن الزيات ومجلة الحرس الوطنى والجمهورية ومجلة الشـعر والقاهرة والتحرير و روز اليوسـف ومجلة سندباد منذ عام ١٩٥٣ حين كان طالبا فى مدرسة الفيوم الإعدادية.

❑❑❑

الفهرس

إهـداء..... ٣

المقدمـة..... ٤

- مشكلة الشباب..... ١١

- مشكلة أطفال الشوارع..... ٢٤

- مشكلة العشوائيات.. واقع الملايين المر؟!..... ٤٤

- مشكلة العولمة..... ٥٨

- المشكلة الثقافية..... ٧٠

- المشكلة الطائفية.. هكذا كانت مصر.. وهكذا ستكون؟!..... ٧٩

- مشكلة الأمية..... ٨٥

- مشكلة البطالة..... ٩٥

- مشكلة البيئة..... ٩٨

- مشكلة السكان فى مصر..... ١١٧

- مشكلة المخدرات..... ١٣١

- مشكلة المياه..... ١٣٧

- مشكلة النوبة..... ١٤٥

- مشكلة بطء التقاضى..... ١٥٥

- مشكلة حلايب وشلاتين..... ١٥٩
- ميناما.. وإحراق المسلمين بالنار؟!..... ١٦٤
- مشكلة النفاق، والأنفاق..؟..... ١٧٤
- مشكلة الأخلاق..... ١٨٥
- محور قناة السويس.. نعمة أم نقمة؟!..... ١٩٥
- مشكلة التعليم فى مصر..... ٢١٥
- وتبقى مشكلة منطقة أم الرشراش المصرية..... ٢٢٢

رقم الإيداع	٢٠١٣/١٦٨٧٣
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7865-9

١ / ٢٠١٣ / ٧٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)